تصدر عن مركز الهدى للدراسات الحوزوية

مجلة
فصلية علمية
دينية سياسية
تعنى بشؤون حوزتي
النجف الأشرف
وقم المقدسة

الحوزة

مجلة علمية فصلية

تصدر عن مركز الهدى للدراسات الحوزوية

العدد الخامس عشر / السنة الرابعة/ ١٤٣٧هـ

المشرف العام

السيد قاسم هاشم مولى

رئيس التحرير

السيد عبد الله الهاشمي

هيئة التحرير

السيد محمد حميد فرج

السيد عباس النوري

إبراهيم الأسدي

التصميم والإشراف الفني

علي حسين مطر

info@markazalhuda.net

www.markazalhuda.net

دعوة للكتّاب

تود هيئة تحرير مجلة الحوزة ان ترحب بالأخوة والأخوات الباحثين والمتخصصين في الدراسات الدينية الحوزوية والذين يرغبون بنشر بحوثهم ودراساتهم العلمية والاكاديمية في مجلة الحوزة وفق المعايير التالية:

- ❖ أن تتناول البحوث والدراسات الشؤون الحوزوية المعاصرة وكل ما له علاقة بتطوير الحوزة والدفاع عنها وعكس صورتها المثلى
- ❖ تعتمد المجلة الأساليب العملية الراهنة في الكتابة والتوثيق والحيادية والموضوعية والدقة والإشارة إلى المصادر حسب القواعد العلمية المتعارف عليها.
- ❖ أن لا تكون البحوث قد نشرت في مجلات أخرى
- ❖ تقدم البحوث إلى المجلة مطبوعة وعلى (CD) مع موجز خالي من الأخطاء الطباعية.
- ❖ تخضع البحوث والدراسات إلى التحكيم العلمي المتعارف عليه أكاديميا ولا تعاد البحوث إلى أصحابها في حالة الاعتذار عن نشرها
- ❖ تنشر البحوث والدراسات وفق خطة هيئة التحرير والنشر

لا تمثل بالضرورة آراء الباحثين والكتاب رأي مجلة الحوزة

بسم الله الرحمن الرحيم

في هذا العدد

الإمام السيستاني والإمام الخامنئي
وعلماء الأمة الإسلامية يدينون جريمة إعدام الشيخ نمر باقر النمر

افتتاحية العدد

رئيس التحرير.....٥

الحوزة العلمية في النجف معالمها وحركتها الإصلاحية

عـادل عبـد الرحيـم ٣٣

دور النجف في الثورة العراقية الكبرى عام (١٩٢٠م) والانتفاضات الوطنية الأخرى

السيد محمد صادق بحر العلوم.....٥٥

حوزة النجف الأشرف (النظام ومشاريع الإصلاح «القسم الأول»)

د. عبد الهادي الحكيم.....١٠٥

مبادئ الدولة والقيادة (مقاربة في رؤى الميرزا النائيني ـ والإمام السيستاني

عمار البغدادي.....١٥٥

الإمام علي عليه السلام في مواجهة التكفيريين والإسلام دين الأمل

د.الشيخ حسين الخشن ١٧٧

بحوث قرآنية العُجُب في القرآن الكريم

سماحة آية الله الشيخ محمد مهدي الآصفي رحمه الله ١٩٧

الافتتاحية

هناك حركتان في المسيرة البشرية الأولى تسير بالإنسان الى خطى الكمال والذي يمثله الأنبياء والأئمة عليهم السلام وعباد الله الصالحين ومن سار بسيرتهم.

والآخر خط الضلال المتمثل بالشيطان وأعوانه.

هذان الخطان لا يلتقيان وهما في مواجهة دائمة، وهنا ملحوظة مهمة أن خط الباطل وإن ظهر بهيئة المنتصر أحياناً إلا أن ذلك لا يعني الانتصار؛ لأن السنن الإلهية تؤكد أن هذا الخط وإن عاش زهو الانتصار حيناً إلا أن مصيره الويل والثبور كما تؤكد الآية الكريمة.

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾

[إبراهيم:٤٢]

هذا الأمر وفي ظل الأحداث الجارية في ظل العالم الإسلامي يدعونا للتمسك بخط الشهادة والرسالة السماوية؛ لأنها المنهج المنتصر في النهاية ولا يحزننا ما نفقد خلال هذه المسيرة؛ لأن ثبات الحركة الإلهية لا يكون إلا من خلال التضحية.

وأمر آخر لا بد من بيانه:

أن الأعداء وإن تكاثرت وتكاتفت فيما بينها فليست إلا كبيت العنكبوت والذي هو أوهن البيوت؛ وليست كثرتهم بالأمر المخيف قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تستوحشوا طريق الحق لقلة سالكيه».

إنّ إيقاع الأحداث في العالم الإسلامي بنبأ بنصرٍ لا يبقى ولا تذر أذرعاً للمستكبرين في هذه البلدان، هذه الصحوة التي تعتمد على الغضب المتراكم من الظلم والقهر الذي تعاني منه الشعوب الإسلامية، إضافة إلى الاعتماد على النصر الإلهي.

رئيس التحرير

الشهيد الشيخ نمر باقر النمر

الإمام الخامنئي يدين جريمة إعدام الشيخ النمر

أدان قائد الثورة الإسلامية سماحة آية الله العظمى السيد علي الخامنئي بشدة جريمة آل سعود في استشهاد العالم المؤمن والمظلوم الشيخ نمر باقر النمر وقال: مما لا شك فيه فإن الدم المراق على غير وجه الحق لهذا الشهيد المظلوم ستعطي ثمارها بسرعة وسيطال الانتقام الإلهي، الساسة السعوديين.

وقال الإمام الخامنئي في درس البحث الخارج صباح اليوم الأحد أن هذا العالم المظلوم لم يدع الناس إلى حراك مسلح ولم يتآمر في الخفاء بل كان يوجه النقد للنظام بشكل علني والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المنبثق عن الحمية الدينية.

واعتبر قائد الثورة الإسلامية استشهاد الشيخ النمر وإراقة دمه على غير وجه الحق خطأ سياسي ارتكبته الحكومة السعودية وقال: إن الله المتعال لن يتخلى عن دم بريء وان الدم المراقة على غير وجه الحق سيطال بسرعة حكام السعودية.

وانتقد قائد الثورة الإسلامية بشدة الصمت الذي يلتزمه دعاة الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان ودعمهم للنظام السعودي الذي أراق دم شخص بريء فقط بسبب إبداء النقد والاحتجاج وقال: على العالم الإسلامي وجميع العالم أن يشعر بالمسؤولية تجاه هذه القضية.

كما اعتبر إلحاق الأذى بالشعب البحريني وتعذيبه من قبل القوات السعودية وتدمير مساجده وكذلك قصف الشعب اليمني لأكثر من ١٠ أشهر من النماذج الأخرى لجرائم النظام السعودي وأكد: على الذين يهتمون بالعدالة وحقوق الإنسان والبشرية أن يتابعوا هذه القضايا وأن لا يكونوا غير مبالين تجاهها.

وصرح: من اليقين أن الشهيد الشيخ النمر سينال التفضل الإلهي ومما لاشك فيه فإن الانتقام الإلهي سيطال الظالمين الذين تعدوا على حياته وهذا هو ما يسلينا.

بيان آية الله العظمى السيد علي السيستاني

بسم الله الرحمن الرحيم

(إنا لله وإنا إليه راجعون)

أحبتنا أهالي القطيف الكرام حديسم الله تعالى

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تلقينا ببالغ الأسى والأسف نبأ استشهاد جمع من إخواننا المؤمنين في المنطقة الذين ارتقت بهم الزكية طاهرة وعددا من منهم العالم الرجوم الشيخ نمر النمر طاب ثراه.

وإننا إذ نندد ونستنكر ذلك نعزيكم ونواسيكم - ولاسيما العوائل المفجوعة بأبنائها - في هذا المصاب الجلل ونسأل الله العلي القدير أن يتغمد الشهداء الأبرار بواسع رحمته ويحشرهم مع أوليائهم الكرام محمد وآله الأطهار وأن يمن على ذويهم بالصبر والسلوان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

٢٢ ربيع الثاني ١٤٣٧ هـ

مكتب السيد السيستاني

بيان آية الله العظمى السيد كاظم الحائري

بسم الله الرحمن الرحيم

قال عزّ من قائل: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ (سورة الغافر: ٢٨).

بلغنا نبأ استشهاد الشيخ المظلوم نمر باقر النمر رحمه الله الذي أثار في قلوبنا الألم، وفي نفوسنا الحزن والغضب... قتلته الزمرة الفاسدة من آل سعود استمراراً لها في مسلسل الإرهاب في إبادة أتباع أهل البيت عليهم السلام.

في نيجيريا، وقتل الحجيج في بيت الله الحرام والمشاهد المشرّفة في منى من هذا العام والأعوام السالفة.. مستخفّة بعالمنا الإسلامي وقيمه ومبادئه ورجاله، وتعويضاً عن خسائر سياستها الفاشلة في سوريا واليمن والبحرين

والعراق وغيرها من البلاد الإسلاميّة، وما لحق بـ (داعش) من هزائم في الآونة الأخيرة، بل مريدةً بذلك إشغال عالمنا الإسلاميّ بمحن داخليّة كي تُصرف الأنظار عن نواياها الخبيثة في التحالف العسكريّ الذي أعلنت هذا العام عن

قيادتها له، وعن الخطر الحقيقيّ والعدوّ الأساس المتمثّل اليوم بتنظيم (داعش) و(القاعدة) و(بوكو حرام) وغيرها من التنظيمات الإرهابيّة، وممدّوها وحماتها في الكيان الصهيونيّ والنظام الأمريكيّ.

إنّنا لا نشكّ في أنّ الإقدام على تصفية الشيخ النمر جسديّاً دليل انهيار الأُسرة السعوديّة الهرمة، وعجزها الواضح عن أن تسمع كلمة الشعب المسلم في شبه الجزيرة العربيّة، فإنّ الشيخ الشهيد لم يمارس إرهاباً، ولم يتجاوز حقّاً،

بل لا يملك إلاّ الكلام البليغ، فنطق مصلحاً، وتكلّم ناصحاً، وثار مطالباً برفع الحصار عن أتباع أهل البيت عليهم السلام... والمواجهة بالقتل في هذا الحال هو الأسلوب ذاته الذي

تعتمده الأنظمة الإرهابيّة اليوم تجاه المصلحين، ونفّذه الفراعنة المتكبّرون تجاه أنبياء زمانهم من ذي قبل، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾.

إنّنا لا نشكّ في أنّ اتّهام الشيخ النمر بأكذوبة الطائفيّة والخروج على إرادة وليّ الأسرة السعوديّة، يكشف عن جهالة الصبية الحاكمة في الأسرة، وتخبّطها وتحيّرها في مواجهة أزماتها.. فدم الشيخ المظلوم سيحمّل الأسرة الهرمة

تبعات سياسيّة وأمنيّة ثقيلة، بل ستشكّل ضرورة لاجتماع الأمة المسلمة بكلّ أجنحتها على التمسّك برسالتها وقيمها، ومواجهتها لأعدائها، وإدانتها للممارسات الوحشيّة التي ترتكب تحت غطاء الشرع المقدّس، وتكون ملهبة لمشاعر

مسلمي الجزيرة العربيّة، ومثيرة لوعيهم ويقظتهم في ثورة عارمة تضع النهاية للحكومة المتطرّفة التي أفسدت البلاد، وقتلت العباد.. فإنّ الوعي لا يجهضه السيف، والصحوة لا تسكن حدّتها بالقتل.

فرحم الله الشيخ النمر، قد عاش أبيّاً كريماً.. وفى بعهده، وقضى نحبه شهيداً مظلوماً.. وأعظم الله أجر أهله وذويه.

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾. (سورة الشعراء: ٢٢٧). ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾. (سورة الأحقاف: ٢٦).

/ ٢٢ ربيع الأوّل / ١٤٣٧ هـ

كاظم الحسينيّ الحائريّ

سماحة آية الله العظمى السيد محمود الهاشمي الشاهرودي يدين جريمة إعدام الشيخ نمر باقر النمر

أدان المرجع الديني سماحة آية الله العظمى السيد محمود الهاشمي الشاهرودي، جريمة إعدام العالم الديني البارز الشيخ نمر باقر النمر، وقال في بيان بالمناسبة: إن هذه الجريمة وبعون الله ستكون رصاصة الرحمة التي ستدفع كيان آل سعود الصهيوني الدموي نحو مزبلة التاريخ، مشيرا إلى أن نبأ جريمة إعدام الشيخ النمر من قبل سفاكي وجلادي آل سعود، كان أليما جدا.

وأضاف المرجع الهاشمي: إن هذا العالم الجليل وبعد أن تحمل مرارة الضغوط وآلام الأسر والتعذيب في سجون آل سعود الرهيبة، ضحى بروحه في سبيل العزة والكرامة الإسلامية والإنسانية وإعلاء كلمة التوحيد الطيبة وإقامة العدل، ليضيف صفحة ناصعة أخرى إلى صفحات جهاد الشيعة.

ولفت المرجع الهاشمي إلى أن الدماء الطاهرة للشيخ النمر وإن حزت في نفوس المسلمين وجميع أحرار العالم .. إلا أنها ستكون الرصاصة الأخيرة في كيان آل سعود الصهيوني الدموي، وسوف تسوقه نحو مزبلة التاريخ وحشره مع الأشقياء وتطهير ارض الوحي من دنسه.

ورأى آية الله الهاشمي الشاهرودي أن دماء الشهيد الشيخ نمر باقر النمر ستثير عاصفة لن تهدا إلا بإسقاط هذا الرمز الحقيقي للشيطان في المنطقة، مضيفا: آن الأوان لأن تجتمع الأمة الإسلامية العظيمة بمختلف انتماءاتها وتوجهاتها تحت راية النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وتنتفض لاجتثاث جرثومة الفساد وممثلة الكيان الصهيوني وعميلة أميركا، وأن تكف الأيادي الملطخة بدماء آلاف الشيعة والسنة من سيادة الحرمين الشريفين والأراضي المقدسة.

وأكد البيان أن انهيار ودمار هذا الكيان الشيطاني سيؤدي إلى اجتثاث الإرهاب

الداعشي التكفيري لا محالة وانه سينقذ العالم الإسلامي من هذه البلية الكبرى.

وختم آية الله الهاشمي الشاهرودي بيانه بتقديم التعازي لإمام العصر والزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف وقائد الثورة الإسلامية ومراجع الدين والأمة الإسلامية، لاسيما عائلة الشهيد داعيا المولى العلي القدير أن يحشره مع الأنبياء والصالحين وشهداء كربلاء وحسن أولئك رفيقا.

سماحة آية الله العظمى مكارم الشيرازي يندد بجريمة إعدام الشيخ النمر

ندد المرجع الديني في مدينة قم المقدسة سماحة آية الله العظمى مكارم الشيرازي بجريمة إعدام نظام آل سعود الدموي للزعيم الديني والعالم المجاهد البارز الشيخ النمر معتبرا هذه الجريمة النكراء بأنها لم ترتكب دون علم أمريكا وإنها تأتي انتقاما للفشل الذي منيت به السعودية في العراق وسوريا واليمن ومؤكدا أن جريمة إعدام الشيخ النمر لن تنسى أبدا ، وأن الانتقام سيطال آل سعود.

وأكد سماحته في البيان الذي أصدره احتجاجا على الجريمة النكراء التي ارتكبها النظام السعودي يوم السبت بإعدام آية الله النمر أن دماء الشهيد النمر لن تذهب سدى وسينتقم المسلمون من هذا النظام الذي يغذي الفتنة والإرهاب في العالم الإسلامي.

وجاء في البيان: "إن الخبر المفجع لإعدام آية الله الشيخ النمر و٤٦ من الأبرياء العزل في السعودية أدخل العالم الإسلامي في دهشة وذهول وخاصة أن هذه الجريمة تمت تحت غطاء الخوارج والتكفير وإذا كان البعض يتردد في أن آل سعود هم مصدر الفتنة والتكفير فإن هذه الجريمة لم تضع مجالا لهذا التشكيك."

واعتبر سماحته ارتكاب النظام السعودي هذه الجريمة البشعة بأنه جاء اثر الهزائم المتكررة التي مني بها هذا النظام في العراق وسوريا واليمن مؤكدا ضرورة أن ينتظر المزيد من الهزائم في هذه الدول في المستقبل.

وأضاف سماحته قائلا: "إن أمريكا لا يمكنها أن لا تكون على علم بهذه الجريمة حيث أن النظام السعودي لا يمكنه القيام بهذا العمل دون علم الأمريكان والهدف هو إثارة الحرب الطائفية بين السنة والشيعة إلا أن على هؤلاء أن يعلموا جيدا بأنه لا خلاف مع إخواننا السنة وخلافنا هو مع التكفيريين الذين يجمع عليهم المسلمون كافة."

وأكد المرجع مكارم الشيرازي أن هذه الجريمة لن تنسي أبدا وسيواجه آل سعود تبعات هذا العمل غير الحكيم في المستقبل موضحا أن الشيعة والسنة لا يدينون هذه الجريمة فحسب بل كل الأحرار في العالم يستنكرون هذا العمل المشين.

سماحة آية الله العظمى الشيخ حسين نوري همداني يدين تنفضيل جريمة إعدام الشيخ النمر

أكد المرجع الديني سماحة آية الله العظمى الشيخ حسين نوري همداني، أن تنفيذ جريمة إعدام الشيخ نمر باقر النمر رغم احتجاجات المسلمين الواسعة ضده، يعد استخفافا بالعالم الإسلامي بأسره. وبحسب وكالة "فارس"، أعرب آية الله نوري همداني لدى استقباله أعضاء هيئة المؤتمر الأول لـ "الصلاة" بمدينة قم المقدسة اليوم السبت، عن أسفه لجريمة إعدام الشيخ النمر، مبيّنا أن الاحتجاجات على حكم الإعدام لم تقتصر على إيران فقط، بل شملت بلدان عدة كالعراق ولبنان.

واعتبر المرجع الديني أن المذهب الذي تعتنقه السعودية (الوهابية)، مذهب خرافي يعمد إلى تشويه صورة الإسلام في العالم.

وأشار آية الله نوري همداني إلى أن السعودية تقدّم نفسها للعالم بأنها تتبع الدين الإسلامي، في الوقت الذي تشكل فيه حاضنة لتنظيم "داعش" والمجموعات الإرهابية مثل "بوكوحرام" بجانب أنها الخادم المطيع للكيان الصهيوني.

وأكد أن السعودية والمذهب الذي تعتنقه، وصمة عار على جبين العالم الإسلامي، داعيا المسلمين الشيعة والسنّة إلى اتخاذ رد فعل إزاء جريمة إعدام الشيخ النمر.

وأوضح المرجع الديني آية الله نوري همداني، أن العالم الإسلامي بات يعيش اليوم تهديدا واقعيا من هذه التيارات الإرهابية.

بيان سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي

أصدر سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي، دام ظله، بياناً استنكر فيه تنفيذ حكم الإعدام بحق آية الله الشيخ النمر من قبل السلطات السعودية، وفي ما يلي نص البيان:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾

الحمد لله رب العالمين، مبير الظالمين، مدرك الهاربين، نصير المستضعفين، رب الشهداء والصديقين.

وصلى الله على سيد المرسلين وقائد المجاهدين محمد المصطفى، وعلى أهل بيته وارثي المرسلين وقادة الشهداء أجمعين.

ها هو آية الله الشيخ النمر قد التحق بقافلة الشهداء، وقد حقَّق الله مناه، والتي عاشها في حياته كلها. وها هي شجرة الارهاب الخبيثة تفضح نفسها، وتقدم على قتل عَلَمٍ من أعلام الدين الذي لم تكن له جريمة إلّا الدفاع عن الحق والمطالبة بالحقوق. إنّ إعدام شهيد الكرامة آية الله الشيخ النمر أسوء من كل جرائم التكفيريين، وإنّ عواقب هذا العمل الشنيع لا تكون أقل من عواقب جرائم نظام صدام بحق الشهداء من مراجع الدين في العراق.

إنّ قتل الشيخ الشهيد اعلان حربٍ، ليس على طائفة كريمة تتبع أهل البيت عليهم السلام فحسب، بل على عامة المسلمين الذين يلتزمون بقيم السماء ويؤمنون بقوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ لقد أثبت قتلة الشيخ الشهيد أنّ منطق الارشاد والنصح والمطالبة بالحق والحقوق بالطرق السلمية لا تنفع مع عقلية داعش التي تحكم آل سعود وأذنابهم.

إنّ قتل الشيخ الشهيد استهانةٌ بكلّ قيم الأنبياء، كما هو إستهانةٌ بكلّ الأعراف والقوانين الدولية، خاصةً وأنّ قتل شيخٍ عظيم كالنمر ليس له سابقةٌ في هذه المنطقة. ولذلك فإنّ دمه لن يذهب هدراً لأنّ الله للظالمين بالمرصاد، وهو القائل: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ وقال سبحانه: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾.

وسوف يثبت التاريخ أنّ هذه الجريمة النكراء ستكون بداية النهاية لهذه العائلة الخبيثة التي لا يعرف تاريخها إلّا القتل والظلم والطغيان.

إننا إذ ندين هذه العملية الإجرامية نقول للعالم: إنّ نظام آل سعود قد تجاوز الخطوط الحمراء، وإنّ عليهم أن ينتظروا عواقب قراراتهم الظالمة.

وليعلم الجميع أنّ نهج مدرسة آل البيت عليهم السلام هو الذي عبّر عنه الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام بقوله: (القتل لنا عادة وكرامتنا من الله الشهادة) وإنّ دماء شهدائنا الابرار قد سقت ونمّت شجرة الرسالة على إمتداد التاريخ، وأنّه ليس للظالمين من أنصار.

وإنّ على الدول الكبرى أن تعلم أنّ القضاء على شجرة الإرهاب لن يكون بقطع فروعها وأنّها لو لم تأخذ بيد السلطات الظالمة وتمنعها من ارهاب الدولة فإنّ أهدافها في نشر الحرية والعدالة وحقوق الإنسان لا تكون إلّا إدّعاءً وسرابا.

والله المستعان

محمد تقي المدرسي

٢١/ربيع الأول/١٤٣٧

كربلاء المقدسة

كلمة مكتب سماحة آية الله العظمى المرجع الديني الكبير الشيخ بشير حسين النجفي (دام ظله) لاستشهاد الشيخ نمر النمر مع جمع من المؤمنين

٢٢/ربيع الأول ١٤٣٧هـ الموافق ٢٠١٦/١/٣ م العدد: ٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف النبيين محمد وآله الميامين، واللعنة على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين.

قال الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ * أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ صَدَقَ اللّهُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ.

ببالغ الحزن والأسى تلقينا نبأ استشهاد جملة من أتباع أهل البيت (عليهم السلام) ومنهم الشهيد فضيلة الشيخ الجليل نمر النمر، فكان وقع النبأ في قلوبنا وقلوب الصالحين مفجعاً، ونحن إذ نستنكر ونستبشع هذه الجريمة ونعزي صاحب العصر (عجل الله تعالى فرجه الشريف) والأُسر المفجوعة، نرجو الله سبحانه أن يتغمدهم بعطف رحمته، ويرزق متعلقيهم الصبر والسلوان، إنه رحيم ودود.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والسلام..

بيان علماء البحرين في داخل البلاد بخصوص استشهاد سماحة العلامة الشيخ نمر باقر النمر رحمه الله.

و فيما يلي نص هذا البيان:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾

في وقت عصيب تمر به المنطقة وفي الظرف الذي يفرض على كل حريص على مصلحة الأمة الإسلامية وبلدانها أن يستجيب لنداء العقل والدين، تتصاعد وتيرة الأحكام بالإعدام بصورة تنذر بمستقبل خطير لا يتمناه أي محب لوطنه وأمته. إنه حساب خاطئ جدا ومضيّ إلى المجهول أن تتحو السياسة باتجاه تشديد الأحكام ضد المعارضين لسياساتها فتصل إلى حد الإعدام وأحكام المؤبد، كما يحصل عندنا في البحرين أيضا.

إن الوهم كل الوهم أن يُظن أن ذلك يُسكت الشعوب أو يُخمد صوتا حرا من أصواتها المطالبة بالحقوق والإصلاح عبر الوسائل السلمية.

وما كان جرم سماحة العلامة الشيخ نمر النمر؟ وبأي ذنب قتل؟

هل قتل أحدا أو مارس الإرهاب أو حتى دعى له؟!

هل دعا للفساد والإفساد أو مارسه؟!

إنما دعا للإصلاح عبر الوسائل السلمية، ورفض علانيةً العنف بالقول والفعل، كما تشهد بذلك كل كلماته ومواقفه.

من هنا نستنكر وندين قتل الأنفس البريئة ونحمل السلطات مسؤوليتها والعواقب المترتبة عليها.

إننا كشعب واحد وقلب واحد نعزي أهلنا في المنطقة الشرقية بهذا المصاب الجلل، باستشهاد أبنائنا المظلومين، وباستشهاد سماحة العلامة الشيخ نمر باقر النمر رحمه الله، ونتقدم

إلى العوائل المكرمة المفجوعة بأحر التعازي، ونسأل الله تعالى لهم الصبر والسلوان، وأن يتغمد شهداءنا بواسع رحمته ويسكنهم فسيح جنته مع سادتهم الطاهرين محمد وآل محمد عليهم السلام.

كما نرفع تعازينا إلى مقام صاحب العصر والزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف، والمراجع العظام، والحوزات العلمية، والأمة الإسلامية، وأتباع أهل البيت عليهم السلام.

ولا حول ولا قوة إلا بالله وإنا لله وإنا إليه راجعون

علماء البحرين

السبت ٢١ ربيع الأول ١٤٣٧

الموافق ٢ يناير ٢٠١٦م

امام جمعة اهل السنّة بايران: جريمة اعدام الشيخ النمر امر لا يصدق

اعرب الشيخ مولوي عبدالحميد في حديث لطهران نيوز، عن بالغ اسفه وحزنه لجريمة اعدام عالم الدين الشيخ نمر النمر.

وبيّن زهي العضو بالاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، بان اعدام عالم دين تتبعه شريحة كبيرة من المسلمين بهذه الطريقة، أمر لايصدق.

واعتبر الشيخ اسماعيل زهي بأن مصلحة العالم الاسلامي كانت تقضي عدول المسؤولين السعوديين عن هذا الامر، لكون أن العالم الاسلامي بأمس الحاجة للوحدة في الظروف الحالية.. مؤكدا أن اعدام الشيخ النمر ليس بصالح الاسلام والمسلمين.

واشار امام جمعة اهل السنّة بمدينة زاهدان، الى أنه بعث شخصيا رسالة للمسؤولين السعوديين طالب فيها بالغاء حكم الاعدام بحق الشيخ نمر باقر النمر، الا انه لم يتلق اي رد بشأنها، في الوقت الذي كان من المرجو النظر اليها من منظور المصلحة الاسلامية، الا أنه من المؤسف لم يحدث ذلك.

الشهيد الشيخ نمر باقر النمر

هيئة التحرير

إبراهيم الأسدي

ميلاده ونسبه:

ولد سماحة العلامة الشيخ نمر باقر النمر عام ١٣٧٩ هـ (١٩٥٩م)، بمنطقة العوامية - إحدى مدن محافظة القطيف بالمنطقة الشرقية - .

ينتمي سماحته إلى عائلة رفيعة القدر في المنطقة برز فيها علماء أفذاذ أبرزهم آية الله العظمى الشيخ محمد بن ناصر آل نمر، و"حجة الإسلام الشيخ حسن بن ناصر آل نمر، والأديب الشاعر محمد حسن آل نمر (رائد القصة القصيرة بالقطيف ورئيس تحرير جريدة البهلول بالعراق)، سماحة الشيخ عبد الحسين آل نمر (أحد تلاميذ الشيخ محمد بن نمر)".

"بالإضافة لمجموعة من خطباء حسينيون كجده من أبيه: الحاج علي بن ناصر آل نمر المدفون إلى جانب أخيه آية الله الشيخ محمد بن نمر بمقبرة العوامية، والملا عبد الله بن حسين آل نمر وغيرهم من الشخصيات المرموقة.

أما نسبه لأمه فيعود للشخصية العوامية البارزة الحاج الوجيه سلمان محمد الفرج المعروف باسم (سلمان الشيوخ) الذي اشتهر بكرمه ووقفه للأرض الزراعية الكبيرة بالعوامية (الرامس) لعموم أهالي العوامية".

الحالة الاجتماعية:

له الأبناء ابن واحد وثلاث بنات، وقد وافت المنية زوجته بعد معاناة مع مرض السرطان والشيخ النمر في معتقله بالرياض عام ١٤٣٣هـ.

دراسته ورحلته لطلب العلم الديني:

بدأ دراسته النظامية في مدينة العوامية إلى أن انتهى إلى المرحلة الثانوية؛ ثم هاجر إلى الجمهورية الإسلامية الإيرانية طلباً للعلوم الدينية الشرعية في عام ١٤٠٠ هـ (١٩٨٠م)، فالتحق بحوزة الإمام القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف العلمية في مدينة طهران، التي تأسست على يد آية الله العظمى السيد محمد تقي الحسيني المدرسي (دام ظله) في ذات العام، والتي انتقلت بعد قرابة العشر سنوات إلى منطقة السيدة زينب عليها السلام بسوريا.

وقد أتمّ سماحته فيها دراسة الأصول والفقه، فأتمّ في علم الأصول: أصول المظفر، ورسائل الشيخ الأنصاري والكفاية للآخوند الخراساني، وأتمّ في الفقه: اللمعة الدمشقية للشهيد الأول، وجامع المدارك للخوانساري، والمكاسب للشيخ الأنصاري، ومستمسك العروة الوثقى للسيد الحكيم، وغيرها من الكتب الفقهية.

وقد حضر دروس وأبحاث أبرز أساتذة حوزة الإمام القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف وغيرها؛ فمن المدرسين الذين حضر لهم:

١ـ بحث الخارج عند آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي (دام ظله).

٢ ـ بحث الخارج عند سماحة آية الله السيد عباس المدرسي (حفظه الله) في سوريا.

٣ ـ بحث الخارج عند سماحة آية الله الخاقاني (حفظه الله) في سوريا.

٤ ـ الدروس العالية عند سماحة العلامة الشيخ صاحب الصادق (حفظه الله) في طهران.

٥ ـ درس اللمعة عند سماحة العلامة الحجة الشيخ وحيد الأفغاني قدس سره.

"ويعد سماحته من خيرة المدرسين، حيث قام سماحته بتدريس المقدمات للعديد من الطلبة في الحلقة العلمية، ومن ثم بدأ بتدريس السطوح، والمكاسب، والرسائل، والكفاية، كما قام بتدريس كتاب اللمعة الدمشقية مرات عديدة في الحوزة العلمية في إيران وسوريا"، كما ودّرَسَ كتاب جامع المدارك، ومستمسك العروة الوثقى، والحلقات للسيد محمد باقر الصدر، وغيرها من الدروس الحوزوية.

تخرجت على يديه ثلة من العلماء الأفاضل الذين مارسوا ويمارسون الأدوار الدينية والاجتماعية والقيادية في مجتمعاتهم.

وتولى سماحته إدارة حوزة الإمام القائم عجل الله فرجه الشريف بطهران وسوريا لعدة سنوات، وكان من أعمدتها وإداريها المتميزين، وساهم مع زملائه العلماء في تطويرها وتقدمها.

من سماته:

يتمتع سماحته بخلق رفيع وقوة في تمسكه بمبادئ وقيم الدين الحنيف، والتي تبلورت عملياً في مسيرته الفكرية والجهادية.

كما ويتمتع سماحته بنظرة ثاقبة في المستجدات الواقعة، وبرؤية تحليلية دقيقة وموضوعية لمجريات الواقع الاجتماعي والسياسي، والتي كان يستلهمها من بصائر الذكر الحكيم، وهدى السنة المطهرة، وبما لديه من ثقافة غزيرة ومتنوعة.

نفاذ البصيرة والقدرة على التحليل واستشراف المستقبل الذي تميز بها سماحته تعتمد على ركيزتين:

الأولى: الوحي: (القرآن والسنة المطهرة).

الثانية: العقل.

فجمع من خلالهما بين (فقه القيم) و(فقه الواقع) مما أكسبت تحليلاته لمجريات الأمور الدقة والموضوعية والواقعية، ومكنه من قراءة متقدمة للواقع، ومنحه براعة في الكشف عما وراء الأحداث، وهذا يعود لما يمتلكه سماحته من مقومات عقلية وعلمية.

كما "وقد عرف عن الشيخ الجد والاجتهاد والنشاط والمثابرة والإيمان العميق وقد شهد له الجميع ممن عرفه ودرس معه بأنه فاق أقرانه، ومع أن الشيخ لا يجامل على حساب الدين والمبدأ إلى جانب شجاعته ودفاعه عن الحق بكل قوة وصراحة وعدم خشيته من الملامة في الله، فهو إلى جانب ذلك لا يحمل في قلبه أي حقد على أحد من الناس على الإطلاق ولذلك يعد الشيخ مضرب المثل في طهارة النفس وسموها ورفعتها". .

نشاطاته ومشاريعه:

له العديد من النشاطات والمشاريع التي أثرى بها الساحة المحلية والإقليمية بالذات، وكان لبعضها تأثيراً ملحوظاً على المستوى الديني والفكري والاجتماعي والسياسي؛ حيث أسهم وبشكل فاعل في تنشيط المد الديني والرسالي في المنطقة ـ وبالذات في مدينة العوامية ـ فقد عمل على تبني عدة نشاطات ساهمت في خلق الوعي الديني والرشد الفكري، منها:

١ ـ إحياء دور المساجد: ومن ضمنها جامع الإمام الحسين عليه السلام بحي الزارة في العوامية، وبعد أن كان المسجد مهجوراً أصبح متميزاً في نشاطاته وفعالياته، والذي سمي بعد توسعته بجامع الإمام الحسين عليه السلام، وكان ذلك بفضل الجهود التي كان يبذلها سماحته.

٢ ـ صلاة الجماعة: حرص سماحته على إقامتها في جميع الفرائض بما فيها صلاة الفجر التي تثاقل الناس عنها، وخلت بعض المساجد منها تماماً، وساهمت توجيهاته إلى إقبال شريحة من المجتمع على صلاة الجماعة لاسيما من فئة الشباب، وكان يدفع هذا الأمر بقوة من خلال تحركه وكلماته، كما أنه قام بإشراك المرأة في الصلاة بالحضور والتواجد الفاعل، في الوقت الذي لم يكن لها موقعاً في مساجد المنطقة، إلى أن أصبح وجودها أمراً واقعاً بعد أن كان مرفوضاً من عدة شرائح دينية واجتماعية بداوعٍ عرفية.

٣ ـ صلاة الجمعة: بادر الشيخ النمر لإقامة صلاة الجمعة في عام ١٤٢٤ هـ (٢٠٠٣م) بمدينة العوامية، بعد أن كانت الظروف المحيطة تعوق دون إقامتها سوى من صلاة واحدة تقام في مدينة سيهات من قبل مقلدي آية العظمى الشيخ حسين العصفور دام ظله، فكان لسماحته الفضل في تكثيفها في المشهد الديني في مدينة القطيف، حيث أقيمت بعدها في مدن صفوى وتاروت والقطيف.

٤ ـ الإثراء الفكري: كان للشيخ النمر في إثراء وتغذية الساحة الإسلامية بالكثير من المحاضرات الرسالية المتنوعة والتي تربو على ٢٠٠٠ محاضرة، بين خطب جمعة

وكلمات قصيرة وتأملات في أحديث أهل البيت عليهم السلام والندوات والرؤى العديدة، ولم تكتفي في الطرح الداخلي بل كانت لها انتشار كبير في الداخل وخارج المنطقة وقد تميزت بالطرح المتجدد والجريئ في العديد من موضوعاتها.

٥ ـ المقالات والنشرات: للشيخ النمر أطروحات عديدة، توزعت في مقالاته المتنوعة التي نشرت في المجلات والمطويات ومواقع الانترنت وغيرها، وأيضاً أهتم بشكل خاص بالجيل الشاب عبر إصداره قرابة ٣٠ عدداً من نشرة "الشباب والشبائب" والتي كان يكتبها بنفسه كاملة، تناول فيها مختلف القضايا الدينية والثقافية والسلوكية والاجتماعية بصبغة معاصرة مما يحتاجه الجيل الشاب.

٦ ـ مشاركات نشطة: وفاعلة في العديد من الأنشطة الدينية والثقافية التي تقام في المنطقة.

٧ ـ دور المرأة: سعى جاهداً لتفعيل دور المرأة في المنطقة واستثمار طاقاتها في المجالين الديني والاجتماعي، والعمل على صقل كفاءتها وإبرازها في الوسط النسائي، ابتداءً من المشاركة والحضور في صلاة الجماعة في المسجد، مروراً بالمشاركة في البرامج الدينية المختلفة، وانتهاءً بالمشاركة في قيادة المجتمع، وقد تكلل سعيه بالنجاح حيث تخرّجت من مدرسته ثلة من الأخوات العالمات الرساليات القادرات على إدارة العمل الديني والمشاركة في الأنشطة خطابة وكتابة وقيادة، فتشكل للمرأة واقع ديني مختلف يتميز بالنشاط والفاعلية والانطلاق.

٨ ـ محاربة العرف الاجتماعي والديني الجاهلي والتقاليد البالية: قد حمل على عاتقه كسر الآصار والأغلال الاجتماعية السيئة التي تعيق تقدم الإنسان وتحمله أضعاف ما يحتمل، وتحمل في سبيل ذلك مقاطعة بعض الفئات الاجتماعية والدينية له، ومحاولة تشويه الصور التي يرسمها عن البديل الأصيل لتلك الأعراف الخاطئة، ووقف بحزم وصدق مع التجاوزات التي يقوم بها أدعياء الدين باسم الدين من أجل تصحيح المسار ورفع الغبش والضبابية عن عيون المجتمع.

٩ ـ تيسير الزواج: دعا سماحته إلى تقليل التكاليف الباهظة للزواج، لتزويج العزاب والعازبات، وسعى إلى الإقناع باعتماد (مهر الزهراء عليها السلام) بدلاً من المهور المرتفعة الذي يرمي بعوائق الزواج وتكاليفها الباهضة التي تثقل عاتق الشباب والشبائب، وتحول دون المساهمة في تسهيل أمور الزواج.

١٠ ـ التعليم الديني: في عام ١٤٢٢ هـ (٢٠٠١م) انشأ سماحته حوزة دينية إذ كانت بداية انطلاقتها باسم (المعهد الإسلامي)، وقد حوت في صفوفها الدراسية الرجال والنساء في قسمين منفصلين، ومن ثم تم استحداث أقسام أخرى وهي: قسم النشء (بنين) ثم (بنات)، والقسم القرآني النسائي، بإدارة وتدريس من طلبة الحوزة وخارجها.

فكان من بركات هذا الإنشاء أن عمم سماحته مجموعة من خيرة الشباب المؤمنين بالعمامة الدينية، وهم يمارسون أدوارهم الدينية في مجالات شتى فيعطون من أوقاتهم وجهدهم خدمة للدين والمجتمع، وتخريج مجموعة من الكتاب والكاتبات من أصحاب القلم الرسالي الموجه، وغير ذلك من الآثار الطيبة والحميدة.

١١ ـ الاهتمام بقضية البقيع: نادى وبصوت مدوي بقضية قبب أئمة البقيع التي هدمت في الثامن من شوال لعام ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م)، بعد أن غابت هذه القضية عن الساحة الشيعية عقوداً من الزمن، إلى أن تعالى الصوت الشيعي تدريجياً بعد ذلك يصدع مطالباً بإعادة البناء، حيث ابتدأ النداء عبر مراحل عدة منها:

ـ نادى سماحته في عام ١٤٢٥ هـ (٢٠٠٤م) بإقامة مهرجان بسيط لإحياء هذا الحدث تحت عنوان: (البقيع حدث مغيب) وقد تعرض هذا المهرجان لتدخل أمني من قبل السلطات السعودية، مما أدى إلى المنع من إقامة المهرجان، بعد أن تعرضت الحكومة لضغوط كبيرة وكثيرة من الوهابية التي ثارت ثائرتها بحجة "إقامة شركيات في بلاد التوحيد"، مما سبب ذلك استدعاء سماحة الشيخ من قبل السلطة.

ـ نادى سماحته بإقامة المهرجان في العام الذي تلاه تحت مسمى: (البقيع الخطوة

الأولى لبنائه) في عام ١٤٢٦ هـ (٢٠٠٥م) وقد تعرض أيضاً للمنع من السلطات، مما أنتج عن هذين النداءين مطالبة آخرين في العالم الإسلامي الحكومة السعودية ببناء قبب البقيع، وقد وعدت الحوزة العلمية في العراق بالتكفل بتكاليف البناء، وقد جمعت تواقيع ٨ ملايين من الشيعة للمطالبة ببناء البقيع.

ـ تلا ذلك وبإصرار من سماحة الشيخ على إقامة المهرجان وإحياء الذكرى في عام ١٤٢٧ هـ (٢٠٠٦م) فنادى بإقامة مهرجان تحت مسمى: (البقيع قبب ومنائر)، وقد تعرض هذا المهرجان أيضاً للمنع، ولكن الجديد هنا هو في أخذ وعداً من أحد المسئولين بالحكومة بإقامة المهرجان أو مطالبته الشرعية لإقامته، وكان من مطالباته له ـ أي للمسئول بالدولة ـ ووعده له، حتى وإن لم يتجاوز كونه حبراً على ورق: "تجويز المطالبة بحقه الشرعي في بناء قبور أئمة البقيع عليهم السلام، إضافة إلى حذف عبارات من الكتب الدراسية والإعلام الرسمي التي تتهم بناة القبور ـ وما يرتبط بها ـ بالشرك".

ـ في العام الذي تلاه ١٤٢٨ هـ (٢٠٠٧م) أقام المؤمنين المهرجان وقد كان الإرباك من رجال الأمن من أن يقام، وقد أقيم برغم المنع له في السنوات التي تليها.

ـ أنتجت هذه النداءات أن ارتسمت ذكر البقيع في أذهان المسلمين حيث خرجت بتوفيق الله في أوربا وأمريكا بعض التجمعات المنظمة في مسيرات سلمية منادية بحق المطالبة ببناء مقبرة البقيع المخربة ومنائرها المهدمة، ومنددة بالعمل المشين لهدم تلك القبب، وكذلك في بعض الدول الإسلامية.

١٢ ـ توثيق حقوق الطائفة الشيعية: في عام ١٤٢٨ هـ (٢٠٠٧م) قدم سماحته لنائب أمير المنطقة الشرقية ـ بعد تجاذبات بينه وبين السلطات ـ عريضة نموذجية غير مسبوقة تجسد المطالب الشيعية في المملكة، وقد أثنى على هذه المطالب المطلعين والمراقبين وعدها المطلعون نموذجاً شجاعاً وصريحاً وأسلوباً يُحتذى في المطالبة بالحقوق.

١٣ ـ تشكيل المعارضة الرشيدة: في خطابٍ جماهيري بليلة العاشر من شهر محرم لعام ١٤٢٩هـ (٢٠٠٨م) نادى الشيخ النمر بتشكيل (جبهة المعارضة الرشيدة)، والتي من

وظيفتها ومسؤولياتها: "معارضة الفساد الاجتماعي والكهنوت الديني والظلم السياسي" الواقع على المواطنين في السعودية.

وغيرها من المشاريع والنشاطات والمواقف العديدة التي أثمرت عن تكوين توجهات وتحركات تعود بركاتها على المجتمع.

الاعتقالات وبعض المضايقات التي مر بها:

مر على الشيخ العديد من المضايقات من قبل رجال الأمن بالدولة لمدد متفاوتة، تناوب فيها رجال الأمن على مراقبة سكن الشيخ على مدار الساعة، والتعرض له عن طريق الاستدعاء المتكرر وبدون إذن مكتوب، ولكنه لم يتجاوب معها، ومن تلك المضايقات:

١. في عام ١٤٢٤ هـ (٢٠٠٣م): اعتقل سماحته بعد إقامة صلاة الجمعة في (ساحة كربلاء)، واستمرارها لعدة أسابيع، وقد طلبوا منه ـ بالإضافة إلى ترك إقامة صلاة الجمعة والبرامج المختلفة ـ إزالة البناء الذي تقام فيه الصلاة في ساحة كربلاء ليطلق سراحه.

٢. في عام ١٤٢٥ هـ (٢٠٠٤م): أُستدعي سماحته من قبل السلطات من أجل إلغاء مهرجان: (البقيع. . حدث مغيب) وقد طوقوا منزله بسيارات رجال المباحث بمرافقة رجال الأمن، وقد رفض مصاحبتهم مفضلاً أن يأتي بسيارته، وقد قاموا بالضغط على سماحته لكي يلغيه.

٣. في عام ١٤٢٦ هـ (٢٠٠٥م): أُستدعي سماحته أيضاً من أجل إلغاء مهرجان: (البقيع الخطوة الأولى لبنائه) وقد استمر بقاء الشيخ في المعتقل من الساعة التاسعة والنصف صباحاً حتى الواحدة ظهراً، وقد أخذ منهم وعوداً بأن يعطى حقه في المطالبة بالبناء وغيرها من المطالبات.

٤. في عام ١٤٢٧ هـ (٢٠٠٦م): اعتقل سماحته غدراً وهو عائداً من البحرين من (مؤتمر القرآن الكريم) التي أقامته ممثلية آية الله العظمى السيد محمد تقي الحسيني المدرسي (دام ظله)، واقتيد من على جسر الملك فهد إلى المعتقل، وذلك بسبب التقارير المكذوبة،

وقد أهين في المعتقل جسدياً ومعنوياً بسبب جملة من المطالبات في إطار حقوق الطائفة الشيعية منها تدريس المذهب الشيعي في المدارس، وبناء البقيع، والمحاضرات التي يلقيها، وقد استمر اعتقال الشيخ قرابة الأسبوع، وبطول الاعتقال خرجت مظاهرة في مدينة العوامية عجلت بخروج سماحته.

٥. في عام ١٤٢٩هـ (٢٠٠٨م): استدعي سماحته إلى محافظة القطيف ولما لم يتجاوب معهم رُحِّلَ إلى أمارة الدمام ومنها إلى المعتقل وأُجبر على أثرها على التوقيع بعدم إلقاء الخطب ـ وبالذات الجمعة ـ والدروس، فرفض الشيخ ذلك، مما أدى لسجن الشيخ سجناً انفرادياً بقرار من وزير الداخلية، أو يتوقف عن إلقاء الخطب حتى مدة مؤقتة لم يحدد مقدارها، فسجن "سجناً على الرأي السياسي" ولم يستمر الاعتقال أكثر من يوماً وليلة.

٦ـ في ٠٨ ـ ٠٧ ـ ٢٠١٢م اعتقلت حكومة المملكة العربية السعودية الشيخ نمر باقر النمر للمرة السادسة، وقد باشرت الفرقة الأمنية الاعتقال بتسديد أربع طلقات عليه من قرب، أصابته في فخذه الأيسر، فهشمت عظامه واستقرت في اللحم، مما أدى إلى فقدانه الوعي؛ وبعدها خرجت بيانات وزارة الداخلية السعودية تدعي أن الشيخ النمر وآخرين قاموا بإطلاق النار على رجال الأمن، وهو الأمر الذي لم يحدث بتاتاً.

يقف وراء أسباب اعتقاله بهذه الطريقة الإرهابية مطالبه وجهوده الإصلاحية، والتي منها: المطالبة بالإفراج عن المعتقلين المظلومين سنة وشيعة، المطالبة بالعدالة والحرية لكافة المواطنين، التثقيف والتوعية السياسية؛ وقد كان ملتزماً بمنهجية سلمية في الاحتجاج والمعارضة، ملتزماً بالمبدئية في مطالبه السياسية لكل المواطنين، دون فرق في استحقاق الجميع لحقوقهم، كما كان متدرجاً في أطروحاته السياسية والمطالبات الحقوقية.

وما زال منذ اعتقاله يتنقل بين زنازين انفرادية، لا يدخلها ضوء الشمس أو الهواء الطبيعي، حيث أحتجز مكبلاً ومقيداً لمدة أسبوعين في سجن المستشفى العسكري بمدينة الظهران شرق السعودية، ثم نقل لزنزانة في سجن مستشفى قوى الأمن بالعاصمة السعودية الرياض، ثم نقل في ٠٣ ـ ٠٩ ـ ٢٠١٤م لزنزانة انفرادية في سجن الحائر السياسي

سيئ الصيت.

لم يتم علاجه بالسرعة والكيفية المناسبتين، إذ تعمدت الحكومة السعودية تعذيبه بتركه دون علاج لمدة أسابيع وشهور، حيث أهمل علاج جروحه، ما خلف آلاماً شديدة ومضاعفات، وبعد ذلك بدأ متأخراً علاجه بإخراج ثلاث رصاصات، بينما لم يتم إزالة الرابعة من فخذه والتي نبتت عليها الأنسجة، وقد أدت الإصابة والعلاج المتأخر والسيئ إلى إعاقة مزمنة في رجله لا تمكنه من السير بشكل طبيعي، ونقص من طول رجله اليسرى قرابة ٢. ٥٠ سنتيمتراً، مع انخفاض ملحوظ في الوزن، وضمور في الخدين برزت من تحتهما عظام الوجنتين.

محاكمته والحكم بإعدامه

بدأت محاكمته في ٢٥ مارس ٢٠١٣، و١٥ اكتوبر عام ٢٠١٤، حكم عليه بالقتل تعزيرًا من المحكمة الجزائية بالمملكة العربية السعودية.

تنفيذ حكم الإعدام

أُعلن عن تنفيذ حكم إعدامه عن طريق بيان وزارة الداخلية السعودية في صباح ٢ يناير ٢٠١٦ تزامن حكم إعدامه مع إعدام ٤٦ آخرين في قضايا تتعلق بالإرهاب و نفذت الإعدامات في ١٢ منطقة من مناطق المملكة العربية السعودية ، واتهم النمر بـ"مساعدة إرهابيين" أدت لاحتجاجات في القطيف .

فسلام عليه يوم ولد ويوم استشهد ويوم يبعث حياً

عـادل عبـد الرحيـم
أكاديمي وباحث إسلامي من العراق

الحوزة العلمية في النجف
معالمها وحركتها الإصلاحية

بـدأ الرسـول صلى الله عليه وآله بتعلـيم أصـحابه، ومـن الطبيعـي أن يتـوافر للمـتعلّمين مكـان يتلقـون فيـه علـومهم القرآنيـة، فكـانـت البدايـة دار الأرقـم بـن عبـد مناف، حتى عرفت بـ «دار الإسـلام الأولى» ويكـاد يتّفق المؤرخون على أنها «في مكة عند الصفا» ومع انتشار الإسـلام وكثـرة معتنقيـه تـوفر للمسـلمين الجـو الملائـم، فكـان المسـجد هـو ذلـك المكـان الـذي انتقـل إليـه مكـان التعليم. وفي أحاديث الرسـول صلى الله عليه وآله الشـيء الكـثير الـذي يؤكّـد صلة المسـجد بالعلم والتعلّم، حتى أصبحت مساجد المسلمين موئلاً للتعليم. منها مسـجد الكوفـة الـذي شـهد حلقـات تـدريس اللغـة العربيـة وتفسـير القـرآن، وأُخـرى للفقه والادب.

ظهور المدارس الإسلامية في العالم الإسلامي:

صلة الذات بمقوماتها، هي تلك الصلة بين دعوة رسول اللهﷺ العلم، وحين نزلت: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[1] لم يكن في مكة عصرئذ أكثر من سبعة عشر رجلاً يقرأون ويكتبون[2].

وبدأ الرسولﷺ بتعليم أصحابه، ومن الطبيعي أن يتوافر للمتعلّمين مكان يتلقون فيه علومهم القرآنية، فكانت البداية دار الأرقم بن عبد مناف، حتى عرفت بـ «دار الإسلام الأولى»[3]. ويكاد يتّفق المؤرخون على أنها «في مكة عند الصفا»[4]. ومع انتشار الإسلام وكثرة معتنقيه توفر للمسلمين الجو الملائم، فكان المسجد هو ذلك المكان الذي انتقل إليه مكان التعليم. وفي أحاديث الرسولﷺ الشيء الكثير الذي يؤكّد صلة المسجد بالعلم والتعلّم، حتى أصبحت مساجد المسلمين موئلاً للتعليم. منها مسجد الكوفة الذي شهد حلقات تدريس اللغة العربية وتفسير القرآن، وأُخرى للفقه والادب.

تأريخ ظهور المدارس الإسلامية

الرأي الأول: يعتمد أصحاب هذا الرأي على نصوص تأريخية تشير الى إنشاء ثلاث مدارس في النصف الاول من القرن الرابع الهجري في مدينة «نيشابور».

الرأي الثاني: إن أول من بنى المدارس في الاسلام هو نظام الملك الطوسي في أواسط القرن الخامس الهجري في مدينة بغداد، وحملت اسمه «النظامية».

ونحن نركن الى الرأي القائل: إن أهل نيشابور كان لهم قصب السبق في انشاء المدارس الدينية في النصف الأول من القرن الرابع الهجري، كمدرسة ابن فورك المتوفى سنة ٤٠٦ هـ، والمدرسة البيهقية، والمدرسة السعدية التي بناها

أخو السلطان «محمود الغزنوي»[٥].

ومن المفيد أن نشير الى أن بعض المدارس الإسلامية كانت تقام بجوار المسجد أو بجوار بيت الملك، أو قريباً من قبر أو مشهد فتقترن به، ففي سمرقند كانت هناك مدرسة بجانب القبر المنسوب لقُثَم بن العباس ابن عم النبيﷺ. أما قبر مُدخِل المذهب الحنفي إلى بخارى الفقيه أبي حفص الكبير المتوفى سنة ٢١٧ هـ فقد تحوّل الى مدرسة منذ القرن الرابع الهجري.

ولا نستغرب بعد هذا فِرار الشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي الى مدينة النجف سنة ٤٤٨ هـ بعد أن أحرق السلاجقة داره وكتبه، ليجاور مرقد الإمام علي بن أبي طالبعليه السلام وينشئ هناك ما عرف بالحوزة العلمية.

نشأة النجف وتطورها كمدينة علمية

النجف المدينة: النجف لغة: لفظ «مفرد، جمعه نِجاف: التل. . . المكان لا يعلوه الماء، مستطيل في بطن الوادي، وقد يكون ببطن الأرض، أو هي أرض مستديرة مشرفة على ما حولها»[٦].

النجف عَلَماً: «النجف بالتحريك، وهو يظهر كالمُسنّاة تمنع الماء أن يعلو الكوفة ومقابرها وبالقرب من هذا الموضع قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام وقد ذكرته الشعراء فأكثرت[٧]». وللنجف أسماء أخرى منها: «الطّور، الظَّهر، الجودي، الرَّبوة، وادي السلام، لكن الأسماء الأكثر شيوعاً واستعمالا هي النجف والغري والمشهد».

تطور النجف كمدينة علمية:

بدأت النجف تأريخها كمدينة مقدسة منذ اكتشاف قبر الامام عليعليه السلام سنة ١٧٠ هـ بعد أن كان غير معروف الا لبعض شيعته.

أما تأريخها كمدينة علمية فهناك من يرى أنها بدأت بعد هجرة الشيخ الطوسي إليها سنة ٤٤٨ هـ وهناك من يعيد ذلك التأريخ الى زمن أقدم، فيرى وحدة المدينة المقدسة والمدينة العلمية، أو يرى وحدة النجف والكوفة، أو يستدلّ على وجود هيئة علمية قبل الشيخ الطوسي.

أدوار الحوزة العلمية في النجف:

حيث نعتمد الرأي القائل بتأسيس الحوزة العلمية في النجف على يد الشيخ الطوسي، فإننا نقسم الأدوار العلمية لتلك الحوزة إلى ثلاثة أدوار هي:

الدور الأول: ويبدأ بانتقال الشيخ الطوسي من بغداد الى النجف سنة ٤٤٨هـ ، حيث فتح باب التدريس على طريقة الاجتهاد المتبعة اليوم في النجف، ووضع مصنفات كانت ولا زالت موضع اهتمام العلماء من القدماء والمحدثين، كالمبسوط، والعُدّة، والتهذيب والاستبصار، والتبيان، والفهرست في أسماء المصنفين من الشيعة، وغيرها من المصنفات.

وانتقل مؤسس الحوزة العلمية في النجف الشيخ الطوسي الى الرفيق الأعلى سنة ٤٦١ هـ، فظلت الحركة العلمية تنمو بفضل ولده الشيخ الحسن بن محمد المعروف بأبي علي الطوسي، وما إن انتقل الشيخ أبو علي إلى جوار ربه بعد سنة ٥١٥ هـ حتى تولّى مقام المرجعية الدينية ومقام التدريس بعده مجموعة من طلابه يبرز فيهم اسم نجله الشيخ أبي منصور محمد الطوسي، ثم جاء عهد الشيخ علي بن حمزة بن شهريار في الربع الأخير من القرن السادس الهجري، حيث بزغ نجم ابن إدريس في الحلة بعد انتقاله إليها من النجف.

الدور الثاني: احتفظت الحلة بزعامة الحركة العلمية في الحوزة ما يقارب الثلاثة قرون تمتد من أوائل القرن السابع حتى النصف الأخير من القرن العاشر الهجري. ولعل ما يفسر سبب عودة المركز العلمي الى النجف ما ذكر من خلو الحلة من العلماء الكبار بوفاة فخر المحققين، واهتمام السلاطين بإيصال الماء الى النجف، وبناء الأسوار حولها لتقليل أثر الأعراب التخريبي. وما إن أطلّ القرن الثاني عشر حتى بدت فيها مظاهر الضمور فانتقلت الحوزة منها الى كربلاء حيث انتقل الى كربلاء زعيم الحركة العلمية الشيخ أحمد بن فهد الحلي.

الدور الثالث: يبدأ هذا الدور في الربع الأول من القرن الثالث عشر الهجري

حيث عادت النجف الى ميدانها العلمي كمركز أول، والعالِم البارز في هذا الدور هو السيد محمد مهدي بن السيد مرتضى الطباطبائي المتوفى سنة ١٢١٢هـ[٨] المعروف ببحر العلوم. ولعلّ أهم ما يميز هذا الدور ما لوحظ من اُمور تنظيمية للقضايا والمشاكل.

ويمكن أن نؤرخ عام ١٤٠٠ هـ نهاية لهذا الدور، حيث تم تهجير الآلاف من الطلاب بدعوى حملهم جنسيات غير عربية، والملاحقة الأمنية للطلاب العرب، و إعدام مجموعة من طلبة العلوم الدينية عام ١٣٩٤ هـ وعودة الإمام السيد روح الله الموسوي الخميني قدس سره إلى وطنه إيران، وتأسيسه الجمهورية الإسلامية فيها، مما شجع هجرة أفراد الحوزة العلمية من النجف الاشرف إلى إيران، ولاسيما بعد إعدام الحكومة العراقية المرحوم آية الله العظمى الشهيد السيد محمد باقر الصدر قدس سره.

معالم الحوزة العلمية في النجف

الحوزة لغة: إن جذر كلمة «حوزة» في اللغة هو الفعل حاز، يراد به الشيء إذا ضمّه وجمعه، أو إذا حصل عليه، والحوز الموضع إذا أقيم حواليه سد أو حاجز، والحيِّز: المكان.

وفي الاصطلاح: للحوزة في الاصطلاح عدة تعريفات، والشيء الأهم الذي نورده عليها عدم تضمّنها مسألتين مهمتين من المسائل المرتبطة بالحوزة هما: ١ ـ خط الاجتهاد. ٢ ـ خط التبليغ.

ولهذا فقد ابتكرت تعريفاً يجمع هاتين المسألتين، ويتجنب الملاحظات الواردة على التعاريف السابقة «الحوزة العلمية: كيان بشري يؤهّل للاجتهاد في علوم الشريعة الإسلامية، ويتحمل مسؤولية تبليغ الأمة وقيادتها».

نشوء الحوزة العلمية: الحوزة العلمية بمفهومها الدراسي التبليغي إنما نشأت مع اشعاعة فجر الإسلام، ثم تطورت «لتخرج عن مجرد كونها حلقة درس حول شخص، لتصبح ظاهرة ثقافية وسياسية ذات أثر بالغ»[٩].

وقد اقترن ظهور الحوزات العلمية وازدهارها في العالم الإسلامي بمجاورة

قبور المعصومين والأولياء، كما في النجف وكربلاء وسامراء وقم.

كما أن لشخصية العالم الكبير الدور الأهم والأكبر، حيث قامت حوزتان في مدينتي جزين وجُباع في جبل عامل على الرغم من عدم وجود مرقد فيهما، حيث استوطن الأولى الشهيد الأول، وفي الثانية الشهيد الثاني.

مكوّنات الحوزة العلمية: يمكن أن نحدّد مكوّنات الحوزة العلمية وعناصرها الأساسية بدعامتين: الأولى: الدعامة البشرية، الثانية: وسائل الاتصال.

الدعامة الأولى: وحديثنا فيها سيكون عن:

أ) المجتهد الفقيه المرجع: المرجع هو الذي يرجع الناس إليه، إلاّ أنه في اصطلاح رجال الحوزة يعني ذلك المركز القيادي الأعلى الذي يتولى شؤون المسلمين في أمور الدنيا والدين، وهو الذي يتبوأ رأس المركز القيادي الديني بالفتيا، والتدريس، واستلام الحقوق الشرعية وصرفها، بالإضافة إلى قيامه بواجبه كقائد للأمة.

ب) الأساتذة العلماء: لا تشترط الشهادة ولا العمر المحدد فيمن يتصدّى للتدريس في الحوزة، والمهم أن تتوافر فيه القابلية العلمية والقدرة البيانية، وكثيراً ما تجد الطالب أستاذاً في الحوزة في الوقت ذاته الذي يتلقّى العلم، حيث يواصل دراسته لبلوغ مرحلة البحث الخارج، إذ يرعى المجتهد الأعلى حلقاتها ليتم إعداد الطلاب لمرحلة الاجتهاد.

ج) **الطلاب**: وهم العنصر الذي يشكّل الرقم الأكبر والقاعدة الأوسع وتظل أعداد الطلاب خاضعة للظروف السياسية المحيطة بالبلد، وبطبيعة الحكم والسلطة، علماً بأن ازدياد عدد الطلاب في الحوزة في النجف كان يشغل بال السلطات في غير بلد[١٠]

استقلالية الحوزة العلمية في النجف عن السلطة السياسية

١ ـ استقلالية المناهج الدراسية: إن المناهج الدراسية للحوزة العلمية في النجف يتم اختيارها من قبل أساتذة متخصصين، بل قد يتم اختيارها من قبل

طلاب الحوزة أنفسهم، وهناك كتب جرى العرف الحوزوي على تداولها، والمدهش حقا أن تأريخ الحوزات العلمية لم يعرف تسللاً لكتاب أرادت السلطة السياسية إقراره.

٢ـ استقلالية الطالب الحوزوي: إن علماء الحوزة العلمية هم الذين يتولون مسألة توجيهه، وهم الذين يلحقونه بالسكن الداخلي، ويدفعون له المرتب الشهري، و إذا ما وصل الى مرحلة الاجتهاد يمنحونه «الإجازة» وهي كالشهادة في العرف الحديث، لذا فلن يجد الطالب أي دافع أبداً نحو محاباة السلطة السياسية.

٣ـ استقلالية الأساتذة والعلماء: إن الأستاذ في الحوزة العلمية لا يرتبط بأية جهة سياسياً أو مالياً، إن هذه الاستقلالية تمنح الأستاذ القوة لقول الحق من جانب والإخلاص للعلم والشريعة ومبادئها من جانب آخر.

٤ـ استقلالية المرجعية الدينية العليا: إن المرجع غير مدين في وصوله الى مركزه لاية جهة الا علمه وتقواه، وذلك يمنحه القوة والقدرة الكافية لاستقلالية فتواه، وهي من أهم عناصر نقاء المسيرة الاسلامية وبقائها خالصة، بعيدة عن هوى السلطات السياسية المتعاقبة.

ان استقلالية الحوزة العلمية في النجف انما تبرز في جانبين رئيسين هما:

أ) **الجانب الفكري والسياسي:** ما دام المنهج الحوزوي يعتمد الكتاب والسنة كمصدرين اساسين للتشريع، فان ذلك يعني استقلاليته عن كل خط فكري غير إسلامي.

ب) الجانب المادي: من المعروف أن أئمة أهل البيت عليهم السلام كانوا يتسلّمون ما يصلهم من حقوق شرعية كالخمس والزكاة، وقد نهج مراجع الشيعة نهج الائمة عليهم السلام.

الاجتهاد ودوره في ازدهار الحركة الفكرية في الحوزة العلمية في النجف

الاجتهاد في اللغة مأخوذ من الجُهد وبذل الوسع، وقد وردت مادة الجهاد في القرآن الكريم في مواضع عديدة «جاهد، ويجاهدون، وجاهدوا» والمعنى

في كلمتي اجتهد وجاهد أصله واحد.

لقد تطور مدلول كلمة الاجتهاد من مؤداها اللغوي الى معناها الفقهي خلال عصر تكوين المذاهب الاسلامية المعروفة، ويحصر العلامة أبو بكر الرازي المداليل التي وصل إليها هذا المصطلح في ثلاث معان:

١ـ القياس الشرعي. ٢ ـ ما يطلب في الظن من غير محله. ٣ـ الاستدلال بالاصول.

الاجتهاد في اصطلاح الفقهاء والاصوليين له تعاريف متقاربة:

١ـ تعريف العلامة الحلي: الاجتهاد: «استفراغ الوسع في تحصيل الظن بالحكم الشرعي»[١١].

٢ـ تعريف السيد أبي القاسم الخوئي: الاجتهاد: «بذل الوسع لتحصيل الحجة على الواقع أو على الوظيفة الفعلية الظاهرية»[١٢].

٣ـ تعريف الدكتور أحمد مصطفى الزرقاء: الاجتهاد: «عملية استنباط الاحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية في الشريعة»[١٣].

متى بدأ الاجتهاد؟

لا شك لدى المسلمين الشيعة ـ كما لدى غيرهم ـ بأن ما من واقعة الا ولله فيها حكم، وقد بين النبي صلى الله عليه وآله بعض تلك الإحكام فيما بقيت أحكام كثيرة لم تحصل الدواعي لبيانها، ورغم اختلاف الصحابة في فهم معاني الكتاب وأحاديث النبي لاختلاف أفهامهم وقرائحهم إلاّ أن اجتهادهم لم يكن صعباً.

و إذ كثرت الآراء واختلطت الاعارب بالأعاجم، وتغيّر اللحن وكثرت الأحاديث والروايات، وتوافرت دواعي الكذب على النبي، ودخل الدس والوضع، أصبح أمر الاجتهاد عسيراً، ولا يتم دون الجهد وبذل الطاقة.

هل كان الرسول مجتهداً؟

إن الشيعة الأمامية لا يرون الرسول مجتهداً، و إنما هو وحي يوحى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾[١٤]. بينما يرى غيرهم اجتهاده، بل جواز خطئه في اجتهاده! ومن

ثم مخالفة أمره وقوله، إذا فسّر بأنه صادر عن اجتهاد! كما في تخلّف أبي بكر وعمر عن جيش أُسامة بن زيد بعد أمر الرسول لهما بالالتحاق به، والمقصود من اجتهاد الرسول هو: «التفكير الشخصي» أو «العمل بالرأي».

الاجتهاد في عهد الصحابة:

لقد كانت القرون الثلاثة الاولى للهجرة النبوية الشريفة على إجمالها: «قروناً عملاقة في علوم الشريعة وغيرها، وقامت المدارس الفكرية والفقهية في المدينة ومكة والكوفة والبصرة ودمشق والشمال الافريقي والاندلس»[١٥]. واذا كانت الحركة الفكرية قد جمدت بسبب موقف السلطة في القرن الرابع الهجري، فإننا نتفاءل بالدعوات المخلصة لفتح باب الاجتهاد من أمثال الشيخ محمد عبده والشيخ مصطفى المراغي والاستاذ الاكبر محمود شلتوت.

الاجتهاد لدى الامامية الاثني عشرية:

الاجتهاد بمعنى التفكير الشخصي دعت إليه كبرى المدارس الفقهية السنيّة، كمدرسة أبي حنيفة «الذي يأخذ بالقياس والاستحسان والاجماع والعرف، إذا لم يكن نص من القرآن أو سنّة أو قول لصحابة»[١٦]. وهذا الفهم و إعمال الرأي «لقي معارضة شديدة من أئمة أهل البيت عليهم السلام ومن الفقهاء الذين ينتسبون إلى مدرستهم»[١٧]. ونقرأ لابن إدريس في كتابه «السرائر» في أواخر القرن السادس الهجري قوله: «. . . والقياس والاستحسان والاجتهاد باطل عندنا»[١٨].

واستمر الموقف حتى مجيء المحقق الحلّي الذي يعتبر أول من تطور مصطلح الاجتهاد لديه، إذ لا يوجد نص شيعي يعكس ذلك التطور أقدم من كتاب «المعارج للمحقق الحلي» حيث ورد فيه عن الاجتهاد: «وهو في عرف الفقهاء: بذل الجهد في استخراج الأحكام الشرعية. وبهذا الاعتبار يكون استخراج الأحكام من أدلة الشرع اجتهاداً، سواء كان ذلك الدليل قياسا أو غيره. . فإذا استثني القياس كنا من أهل الاجتهاد في

تحصيل الأحكام بالطرق النظرية التي ليس أحدها القياس»[١٩].

إن «الفرق بين المعنيين جوهري للغاية، إذ كان للفقيه على أساس المصطلح الأول للاجتهاد أن يستنبط من تفكيره الشخصي، أما المصطلح الجديد فهو لا يسمح للفقيه أن يسوّغ حكماً من الأحكام بالاجتهاد، لان الاجتهاد بالمعنى الثاني ليس مصدراً للحكم، بل هو عملية استنباط الأحكام من مصادرها»[٢٠].

ان الاجتهاد بمفهومه الدال على الرأي في مقابل النص مرفوض من قبل الأئمة وعلماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام وقد تأخّر ظهور الاجتهاد بمفهومه الخاص لدى الشيعة الأمامية، لانهم كانوا في عصر أئمتهم يعيشون عصر النص الشرعي، باعتبارهم الامتداد الطبيعي لقيادة الرسول صلى الله عليه وآله كما ورد ذلك في ما استفاض عن النبي صلى الله عليه وآله من حديث الثقلين.

إن بدايات الاجتهاد وكيفية معالجة الاحاديث واستعمال القواعد والاصول ظهرت في عصر الائمة عليهم السلام وبإرشاد منهم، وكان يمارس بشكل تطبيقات فردية، يفرضها وجود الائمة عليهم السلام حتى إذا ما بدأت الغيبة الكبرى للامام الثاني عشر عجل الله تعالى فرجه وذلك في النصف من شعبان عام ٣٢٩ هـ كانت الحاجة للاجتهاد أشد وآكد.

دور الاجتهاد في ازدهار الحوزة العلمية

لقد أصاب الركود حركة الاجتهاد لدى المسلمين - غير الشيعة - في القرن الرابع الهجري حيث اعلن الملك الظاهر بيبرس البنداقداري احد ملوك دولة المماليك بمصر سنة ٦٦٥ هـ وبتحريض من الفقهاء: «أن المذاهب الرسمية هناك هي الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية، وأن المذاهب الاخرى غير معترف بها رسمياً»[٢١]. حيث ابتدأ ما يعني ضمنا توقف حركة الاجتهاد والاتجاه نحو التقليد، ولكن المدرسة الإسلامية الشيعية لم تتأثر بهذا الركود. ويمكن ملاحظة التطور الكبير الذي أتيح للفقه الأمامي ما بعد

الغيبة وحتى اليوم رغم حملات التنكيل، حيث كان الفقه الأمامي على علاقة غير جيدة مع الحاكم وكان يتحرّك ويتعامل مع حاجات الناس، وباعتماد الحوزة خط الاجتهاد هدفاً لطلابها تزدهر حركة الاجتهاد نفسها، وتزدهر الحركة الفكرية في الحوزة العلمية.

مفهوم المرجعية الدينية لدى الأمامية الاثني عشرية

المرجعية في اصطلاح الفقهاء: «الجهة المتولية لشؤون الأمة أو الفرقة أو الطائفة بأجمعها، ويبدها الإدارة لتدبير أحوالها وأوضاعها الدينية، ويسمى المتقمص بها المَرجِع»[٢٢].

لقد شرف الله الإنسان بالخلافة على الأرض:﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٢٣].

وبموازاة مسألة الخلافة هناك مسألة الشهادة، قال تعالى:﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[٢٤].

يقول السيد الصدر: «أمكن القول بأن خط الشهادة يتمثل: أولا ـ في الانبياء. ثانياً ـ في الائمة الذين يعتبرون امتداداً ربانياً للنبي صلى الله عليه وآله. ثالثاً ـ في المرجعية التي تعتبر امتداداً رشيداً للنبي صلى الله عليه وآله والامام علي عليه السلام في خط الشهادة»[٢٥].

«إن المرجعية كخط قرارٌ إلهي، والمرجعية كتجسيد في فرد معين قرار من الامة»[٢٦].

مراحل المرجعية:

يتحدث السيد الصدر عن تلك المراحل فيرى أن المرجعية مرت بأربع مراحل كالتالي:

١ـ مرحلة الاتصال الفردي: حيث كانت الاتصالات فردية بين علماء ومجتهدين وقواعد شعبية، وهذه المرحلة عاشها أصحاب الائمة واستمرت حتى ايام العلاّمة الحلّي.

٢ـ مرحلة الجهاز المرجعي: لقد قام بهذا التطبيق الشهيد الاول في لبنان وسوريا وعين الوكلاء وفرض جباية الحقوق الشرعية كالخمس على القواعد الشعبية من الشيعة، فأنشأ

كياناً قوياً مترابطاً، وكان ذلك من أهم الاسباب التي أدت الى غيبته.

٣ـ مرحلة التمركز والاستقطاب:

لقد دخلت المرجعية هذه المرحلة على يد الشيخ جعفر كاشف الغطاء ومعاصريه من العلماء عن طريق علاقات وارتباطات واسعة بين العراق و إيران، وقام الشيخ جعفر كاشف الغطاء «بمحاربة الجمود الفكري الفقهي، وقضى على الدعوة للبقاء على تقليد الاموات ونقل الدراسة من الحلّة الى النجف، واستدعى العلماء في العلوم الاسلامية، حتى الطب والفلك والحساب»[٢٧].

٤ـ مرحلة القيادة: «ما إن دخل المسلمون عصر الاستعمار، حتى وجد نوع من التحول والتطور في الكيان المرجعي، فبدأ يتسلم زمام القيادة ويتبنى الصراع مع الكافر المستعمر ويتبنى مصالح المسلمين ويدافع عنهم»[٢٨].

المرجع الاعلى:

«إن المرجعية في واقعها إنّما تخضع للنص من الامام عليه السلام فقط ولا تخضع لاية وسيلة اُخرى»[٢٩]. والمرجعية تدور وتتركز حول بيان «الصفات» التي يجب أن يتمتع بها المرجع، ولعل خير ما يمكن أن يحدد تلك الصفات ما ورد في المروي: «فإن من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، مطيعاً لامر مولاه فللعوام أن يقلّدوه»[٣٠].

إن الشخصية المرجعية تكون محصلة لمقوّمات ثلاثة:

الاولى: المقومات التَقَوية في مقامي الرعاية والسلوك «العدالة».

الثانية: المقومات الاجتهادية في مقامي الاصول والفقه «الاعلمية».

الثالثة: المقومات القيادية في مقامي الادارة والتوجيه «الكفاءة».

الحركة الاصلاحية للكيان المرجعي

إن موضوع بحثنا عن الحركة الإصلاحية هو تلك الافكار المخلصة النابعة من محيط الكيان المرجعي، كونها أقرب الى هذا الكيان، ومن ثم أكثر قدرة على الملاحظة والتقويم. وما يواجهها من ملاحظات على الكيان المرجعي:

١ـ العلاقة بالمقلِّد: إن التقليد عاد التزاماً شكلياً دون أن يكون «صلة حية بين التوجيه الفقهي وبين المسلم العادي»[٣١].

٢ـ المرجعية الشخصية: حيث لم نعهد في المرجعية كياناً أو مؤسسة لها أجهزتها وقوانينها ونظمها، وكنتيجة طبيعية للمرجعية الذاتية هي تعدد المراجع وبالتالي تعدد القرارات الفردية التي تؤثر فيها معظم الاحيان آراء الحاشية.

٣ـ النظام المالي: تعتمد الموارد الأساسية للمرجعية الدينية على أموال الحقوق الشرعية كالخمس وبعض الهدايا والتبرعات، وتتجدد الدعوة لإصلاح هذا الخلل بإيجاد دخل ثابت ومنتظم إضافة الى الدخل المتغيّر، وتنظيم أوجه الصرف.

٤ـ وكلاء المرجعية: وتشبه مهمة الوكيل مهمة السفير في هذه الأيام، وقد ظلّ هذا الجهاز يعاني غالباً من نقص وتقصير في جانبيه الكمي والكيفي.

٥ـ اسلوب العمل المرجعي: حيث يتسم بالانكفاء ويبدو ذلك واضحاً في ثلاث نقاط:

أ) تأثير التفكير الإقليمي، فكثيراً ما تصرفت المرجعية إقليمياً، دون إنكار بعض المواقف الرائعة التي وقفتها المرجعية بعقلية عالمية.

ب) عدم الانفتاح الواسع على مشكلات العصر، كتنظيم النسل، والتعليم، والتمييز العنصري، ومشكلات الاستعمار، والحرب والسلام، ومشكلات الانحلال الجنسي والاخلاقي.

ج) طغيان النزعة الاستصحابية في أساليب العمل ونمط التفكير.

٦ـ فوضى الانتماء للحوزة: إن فقدان الضوابط أو عدم الالتزام بها يجعل هذه المشكلة لا تقل خطورة عن غيرها.

إن السيد الشهيد الصدر قدم «أُطروحة المرجعية الموضوعية» التي تناولت مجمل الانتقادات على الكيان المرجعي، آملاً في أن يتوفر على دراستها المهتمون بهذا الجانب من الباحثين.

لمحة عن النظام الدراسي العام في الحوزة العلمية في النجف

«لا يختلف النظام التربوي عند الأمامية من حيث الشكل عن النظام التربوي الإسلامي العام، و إنما ينفرد عنه ببعض السمات الخصوصية في منهج البحث وفي بعض موضوعات الدرس»[٣٢].

لقد تصدى الدكتور عبدالله الفياض[٣٣] لدراسة العوامل المؤثرة في توجيه التعليم عند الامامية وأسلافهم من الشيعة فأجملها في نقاط ثلاث:

اولاً: اعتقاد الامامية وأسلافهم بعلم أئمتهم ورسالة الائمة عليهم السلام في تبليغه لشيعتهم.

ثانياً: العالم السياسي، إذ لجأ الائمة الى عدم البوح بعلومهم أمام من يخالفهم في العقيدة وأمام من له صلة بالسلطات، بسبب المطاردة والتنكيل، وهو ما يعرف في مفردات التعامل الشيعي بـ «التقية».

ثالثاً: الموارد المالية لدى الائمة ونوابهم تتكون من الحقوق الشرعية وينفقون منها على التعليم.

إن النظام التعليمي في الحوزة يشبه النظم التعليمية الاخرى من حيث الزي الخاص، والكتب، واللغة، والمال، والامتحان، والشهادات، والعطل الدراسية، وقد يختلف عن النظم التعليمية الحديثة في جوانب أُخرى، ولايضاح ذلك نتناول العناوين التالية:

١ـ شروط الانتساب للحوزة العلمية في النجف: «يدخل الطالب الى النجف فلا يسجل اسمه ولا صفته في سجل، بل لا يسأله أحد عن هويته واسمه الا للتعارف فقط، ويترك له الخيار في تعيين الكتاب الذي يدرسه والرفيق والاستاذ»[٣٤].

٢ـ الزي: وهو «العمّة والجبّة الاسلاميتان اللتان كان النبي صلى الله عليه وآله يرتديهما والائمة المعصومون عليهم السلام. وقد أخذ الاسلام زيّه عن العرب وأُمرائهم. وقيل في الحديث النبوي: «العمائم تيجان العرب، فإذا وضعوا العمائم وضع الله عزّهم»[٣٥].

٣ـ طريقة التدريس ومميزاته: لا

تعتمد الحوزة نظام السنوات، و إنما تعتمد نظام الحلقات التي يُشخّص فيها الاستاذ والمكان والزمان والكتاب، ويحضر فيها الطالب بملء اختياره، وحرية الرأي والنقد مضمونة، على أن لا يتجاوز الادلة المقررة، وهذه الحرية لازمة للوصول بالطالب الى مرحلة الاجتهاد التي تعدّ أهم الاهداف في الحوزة.

٤ ـ **المراحل الدراسية:** يوجد أكثر من رأي في تقسيم المراحل الدراسية في الحوزة، ونحن نعتمد الرأي الذي يقسم المراحل الى ثلاث:

١ـ **مرحلة المقدمات:** وتعني الوقوف على المعلومات الضرورية لاطلاع الطالب عليها، فيدرس النحو والصرف مثلاً لكي يفهم فيما بعد مباحث الالفاظ في الاصول، وهكذا في المواد الاخرى.

٢ـ **مرحلة السطوح:** ويطلب من الطالب معرفة ما في سطح الكتاب دون الغوص في مبانيه ومعانيه.

٣ـ **مرحلة الخارج:** وهو «اسم للدراسة بدون كتاب، وهو عبارة عن محاضرات علمية عالية في الفقه والاصول. يشرع فيها من أول مسائل العلم وتنتهي الدورة بإنهاء تمام مسائل ذلك العلم»[٣٦].

والاستاذ في مرحلة الخارج لا يكون إلاّ مجتهداً، ومع انتهاء الدورة إذا شعر الطالب باكتساب ملكة الاجتهاد يخرج من مرحلة التقليد للغير ويصبح في عداد المجتهدين، أما إذا لم يشعر بذلك فعليه معاودة حضور البحث الخارج.

الحركة الاصلاحية للنظام الدراسي الحوزوي

الخطوات الأولى للإصلاح: إن الارهاصات الأولى للحركة الإصلاحية بدأت بعد الغزو الانجليزي للعراق ١٣٣٣هـ/ ١٩١٤م، في نفس الوقت الذي كان فيه التيار الداعي لابقاء القديم على قِدمه قوياً، ويمكن تقسيم ملاحظات المصلحين الى مجموعتين:

أ) **المجموعة الاولى**: ملاحظات في الجانب الاداري والمالي ويمكن إجمالها بما يلي:

غياب الضوابط في مسألة الانتماء للحوزة، وعدم خضوع الطالب لاختبارات الكفاءة، وعدم وجود دار نشر خاصة

بالحوزة، وعدم وجود نظام للتخصّص، والارتباك في الوضع المادي للطالب واقتصار الرعاية السكنية على الطالب الاعزب، وفقدان الرعاية الصحية.

ب) المجموعة الثانية: ملاحظات على المنهج الحوزوي، ومنها ـ مثلاً ـ اقتصار مناهج التدريس على الفقه والاصول، و إهمال تدريس اللغات غير العربية، وجفاف المادة الدراسية، وصعوبة التعبير في الرسائل العملية، وخلوّها من المنهجية الفنية.

أما التقليديون فكانوا يرون «في طابع الحرية الذي يسود في أنظمتها سواء باختيار الطالب لاستاذه أو الكتاب الذي يدرسه ما ينمي ملكته»[٣٧].

الحركة الاصلاحية في مرحلتها الثانية ١٣٤٩ـ ١٣٦٥هـ /١٩٣٠ـ ١٩٤٥م

إن أهم جهات الاصلاح في هذه المرحلة هي: جمعية منتدى النشر، ونهضة الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء.

١ـ جمعية منتدى النشر: تعود بذور فكرة انشاء «جمعية منتدى النشر» الى عام١٣٤٣ هـ / ١٩٢٤م حين عقدت الاجتماعات السرية بين «الشيخ جواد الچامي والشيخ محمد حسين المظفر والسيد علي بحر العلوم»[٣٨]. وتأخر الاعلان عن المنتدى كجمعية معترف بها حتى عام ١٣٥٤ هـ /١٩٣٥م.

وكان من نشاط الجمعية افتتاح صف لدراسة العلوم العربية والمنطق والفقه والادب العربي في سنة ١٣٥٧ هـ/ ١٩٣٨م ثم اصبح في العام اللاحق ثلاثة صفوف، وحصلت الجمعية على اعتراف بمدرستها هذه من وزارة المعارف العراقية. ثم توسعت الى أربعة صفوف في عام١٣٦٤ هـ / ١٩٤٤م، وافتتحت في الكاظمية مدرسة ابتدائية دينية باسم مدرسة «منتدى النشر» اجيزت من الدولة، وفي عام ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢م أصبح لمنتدى النشر أربع مدارس ابتدائية، متوسطة، ثانوية، كلية يهيّئ السابق منها للاّحق.

٢ـ نهضة الشيخ كاشف الغطاء: إن ما يميز نهضة الشيخ محمد حسين

كاشف الغطاء أنها صادرة من مجتهد مقلَّد يعرف الجميع نزاهته، وقد تمثّلت النهضة في مدرسة أُقيمت سنة ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م. وقد دونت بخصوصها بنود كثيرة تتضمن وضع منهاج للدروس والكتب، وتقسيم مراحل الدراسة، واختيار الاساتذة الاكفاء، وتشكيل لجان للامتحان، وتبديل الكتب الدراسية أو تعديلها، وضبط الموارد المالية والصرف، وفتح ناد للمطالعة، وتأسيس ندوة للخطابة والمحاضرات، و إنشاء مجلة، وتبادل الزيارات بين النجف والازهر. وقد حملت المدرسة اسم الشيخ كاشف الغطاء، إذ تم «تأهيلها بكل ما تسمح ظروف النجف وظروفه الخاصة، وتبرّع لها بمكتبته الكبرى التي تشتمل على أندر المخطوطات وأنفس الكتب العلمية والادبية»[٣٩].

الحركة الاصلاحية في مرحلتها الثالثة: هناك عاملان فرضا تحديد المرحلة الثالثة:

الاول: وفاة المرجع الديني السيد أبي الحسن الاصفهاني عام١٣٦٥ هـ / ١٩٤٥م.

والثاني: هو قيام انقلاب ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨م في العراق ضد حكومة عبدالرحمن عارف. لقد تميزت هذه المرحلة ببلوغ الحركة الاصلاحية درجة من النضج تمثلت بظهور الاحزاب الاسلامية في العراق وصدور المجلات الاسلامية النجفية كمجلة الاضواء، وقيام الحكم الجمهوري في العراق عام١٩٥٨م، وانشاء العديد من الصروح العلمية في النجف منها:

١ـ مدرسة الجزائري «مدرسة النجف الدينية»: بدأت هذه المدرسة باعتماد فكرة تنظيم وتحديث الوضع الدراسي والاقتصادي والاعلامي للحوزة، وشرعت في عام ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٧م بتدريس علوم الشريعة والعلوم العربية دراسة منهجية، وكان غالبية طلابها من العرب.

٢ـ جامعة النجف الدينية: وهي أفخم مدرسة دينية بنيت في تأريخ النجف، ومنهجها لا يختلف عن منهاج الحوزة سوى ضبط الحضور والغياب، ونظام الامتحانات، والتدريب على الخطابة.

٣ـ مدرسة العلوم الاسلامية: تأسست في النجف سنة ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣م برعاية مرجع المسلمين الشيعة آنذاك ـ السيد محسن الحكيم ـ وكان الهدف من تأسيسها هو تحقيق أمرين:

١ـ تجديد في مناهج التدريس في الحوزة.

٢ـ خلق جيل من العلماء الشباب الواعين.

وقد أُدخلت مواد جديدة اليها كمادة «اقتصادنا» و«فلسفتنا» وعلوم القرآن «البيان في تفسير القرآن» بالاضافة الى العلوم التقليدية، ويجمع الكثير على أنها من مقترحات السيد محمد باقر الصدر.

لقد واجهت هذه المدرسة المشاكل منذ تأسيسها سواء من أصحاب الاتجاه القديم أو من النظام الحاكم في العراق.

الحركة الاصلاحية في مرحلتها الرابعة: وتبدأ هذه المرحلة بقيام أحد جناحي حزب البعث بالاستيلاء على السلطة في ١٩٦٨م. وكان من قراراته المبكّرة «ضرورة القضاء على الرجعية الدينية»[٤٠] ـ على حد تعبيرهم ـ حيث قام بإلغاء مشروع «جامعة الكوفة» ومصادرة الاموال المتبرع بها لانجاز المشروع، وتأميم التعليم الاهلي، كمدارس منتدى النشر، ومدارس الامام الجواد وغيرها. وإغلاق مدرسة الجزائري ومدرسة العلوم الاسلامية. وتهجير طلبة الحوزة من النجف، وانتهت هذه المرحلة بقيام الجمهورية الاسلامية في ايران عام١٩٧٩م وبروز حوزة قم، واستشهاد السيد الصدر عام١٩٨٠م.

كلية الفقه نموذج للاصلاح الدراسي (دراسة وتقويم)

اتسمت خطوة الشيخ محمد رضا المظفر في إنشاء كلية الفقه في النجف الاشرف (عام ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧م)[٤١] وهي إحدى المؤسسات التعليمية المنبثقة عن جمعية منتدى النشر نفسها.

وكانت اهداف كلية الفقه:

١ـ تنظيم الدراسة الحوزوية في مرحلتي المقدمات والسطوح.

٢ـ إعداد نخبة واعية من الطلاب مسلّحين بالثقافة الاسلامية وبعض العلوم

الحديثة.

إن نظرة سريعة في المواد الدراسية لكلية الفقه تكشف أن هناك تركيزاً على المواد الاربعة: ١ ـ الفقه. ٢ ـ أُصول الفقه. ٣ ـ النحو. ٤ ـ الادب العربي.

لقد وضعت الكلية شروطاً لالتحاق الطالب بها، فكان على الطالب النجاح في امتحان القبول الذي تجريه الكلية، وبعد الاعتراف بها، أصبح على الطالب تقديم وثيقة التخرّج من الثانوية. أما الزي فلم تشترطه الكلية، وقد التحق بها حوزويون، وخريجو الثانويات، ومعلمو المدارس الابتدائية الراغبون بتحسين أوضاعهم الوظيفية والمادية.

إن اغلب اساتذة الكلية من الحوزويين قد تفرّغوا لها تفرّغاً كاملاً، وشاركهم أساتذة من حملة الدكتوراه من جامعة بغداد كمحاضرين.

وكان هناك مسعى لتفريع الكلية الى قسمين، وفتح معهد لدراسة الماجستير. ولكن مجيء السلطة البعثية عام ١٩٦٨م حال دون ذلك، حيث اقدمت على تدويل الكلية بصورة تامة والحقتها بالجامعة المستنصرية ببغداد.

الهوامش

(١) سورة العلق: ١.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان: ٤٧١ .

(٣) الطبري: تأريخ الامم والملوك ٣ : ١٣٣٥.

(٤) هارون: تهذيب سيرة ابن هشام: ٤٨ ، ٦٥ .

(٥) المقريزي: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار ٤ : ١٩٣.

(٦) الفيروزآبادي: القاموس المحيط ٣ : ٤٠٢ مادة النجف.

(٧) ياقوت: معجم البلدان ٥ : ٢٧١ ـ ٢٧٢.

(٨) شمس الدين: حديث الجامعة النجفية: ٣٢.

(٩) عطوي: الحوزات العلمية في فكر الامام الخميني، مجلة المنطلق (بيروت) ٤ : ٥٧ محرم ١٤١٠ هـ.

تناول مؤلف الكتاب الدعامة الاولى بالحديث، ولكنه غفل عن ذكر الدعامة الثانية ولم يتطرّق إليها، مما اقتضى التنويه. «التحرير».

(١١) الحلي: تهذيب الاحكام: ١٠٠.

(١٢) عرفانيان: الرأي السديد في الاجتهاد والتقليد: ٩٠ تقريرات الامام الخوئي.

(١٣) الحكيم: الاصول العامة للفقه المقارن: ٥٦٣ .

(١٤) سورة النجم: ٣.

(١٥) النمر، الاجتهاد: ١٤٦.

(١٦) ابو زهرة: تأريخ المذاهب الاسلامية ٢ : ٣٧٦ .

(١٧) الصدر : المعالم الجديدة في الاصول: ٢٢ .

(١٨) المصدر السابق: ٢٤ .

(١٩) نفس المصدر : ٢٧ .

(٢١) المقريزي: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار ٤ : ١٤١.

(٢٢) كاشف الغطاء: باب مدينة علم الفقه: ٣٥٨ .

(٢٣) البقرة: ٣٠ .

(٢٤) الحج: ٧٨ .

(٢٥) الصدر : خلافة الانسان وشهادة الانبياء: ١٦٢.

(٢٦) نفس المصدر : ١٦٥.

(٢٧) كاشف الغطاء: أدوار علم الفقه واطواره: ٢٤٢ .

(٢٨) الصدر : المحنة: ٤٤ .

(٢٩) معتوق: المرجعية الدينية العليا لدى الشيعة الامامية: ٣٠ .

(٣٠) الطبرسي: الاحتجاج ٢ : ٢٦٣ .

(٣١) شمس الدين: مواقف وتأملات في قضايا الفكر والسياسة: ٦٩ .

(٣٢) حسين: تصدير كتاب تأريخ التربية عند الامامية للدكتور الفياض: ٣٦ .

(٣٣) استاذ التأريخ الاسلامي بكلية الاداب جامعة بغداد، في كتابه السابق: ٤٥ .

(٣٤) مغنية: النجف والامتحان، مجلة العرفان مج٤٥ ج١ ربيع الاول ١٣٧٧ هـ .

(٣٥) الطبرسي: مكارم الاخلاق: ١١٩ .

(٣٦) الفقيه العاملي: جامعة النجف في عصرها الحاضر: ١٨ .

(٣٧) الحكيم: المنتدى: تأريخ وتطور النجف العدد الثاني، السنة الثانية. ذو الحجة ١٣٨٧هـ/ آذار ١٩٦٨م.

(٣٨) الاصفي: مدرسة النجف: ١١٣ . نقلاً عن مخطوطات المظفر.

(٣٩) الزين: بوادر الاصلاح في جامعة النجف، او نهضة كاشف الغطاء، مجلة العرفان مج: ٢٩ ج٢ :١٣٢٨ هـ/ ١٩٢٩م .

(٤٠) التكريتي: من مذكرات حردان عبدالغفار التكريتي: ٤٧ .

(٤١) الاصفي: مدرسة النجف: ١٢٩ . .

السيد محمد صادق بحر العلوم

مؤسس الجمعية العراقية الإسلامية في أمريكا

دور النجف في الثورة العراقية الكبرى عام (١٩٢٠م) والانتفاضات الوطنية الأخرى

خلال مطالعاتي للتأريخ السياسي وما تتناقله كتب المؤرخين من أهمية لثورة العشرين التي قادها جهابذة العلماء في مدينتي النجف الأشرف وكربلاء حيث نزل إلى ميدان الجهاد معظم عشائر الجنوب، بقيادة العلماء، واستمر هذا العطاء بثورات وحركات لم يهدأ العراق معها حتى يومنا هذا. ويصب معظم هذا التعرض السلبي على رأس شيعة العراق بالذات نتيجة موقفهم المبتني على الاصرار حتى رفع مظلوميتهم في مواقع الدولة العراقية.

وبالرغم من أنَّ التاريخ لم يكن منصفاً ولم يكن أميناً في معظم نقله، لما يتخلله من شغب الرواة والمتحدثين بما يمثل مصالحهم وتعكسه نفوسهم في كتابة الواقع الحقيقي للأحداث، إلاَّ اننا نرى مع كل هذه المظلومية.....

مقدمة:

خلال مطالعاتي للتأريخ السياسي وما تتناقله كتب المؤرخين من أهمية لثورة العشرين التي قادها جهابذة العلماء في مدينتي النجف الأشرف وكربلاء حيث نزل إلى ميدان الجهاد معظم عشائر الجنوب، بقيادة العلماء، واستمر هذا العطاء بثورات وحركات لم يهدأ العراق معها حتى يومنا هذا. ويصب معظم هذا التعرض السلبي على رأس شيعة العراق بالذات نتيجة موقفهم المبتني على الاصرار حتى رفع مظلوميتهم في مواقع الدولة العراقية.

وبالرغم من أنَّ التاريخ لم يكن منصفاً ولم يكن أميناً في معظم نقله، لما يتخلله من شغب الرواة والمتحدثين بما يمثل مصالحهم وتعكسه نفوسهم في كتابة الواقع الحقيقي للأحداث، إلاَّ اننا نرى مع كل هذه المظلومية ان الكثير من الكتاب أعطو الأغلبية لسكان العراق وهم «الشيعة» حق ثورتهم وامتدادها حتى ونحن على أبواب القرن الجديد، وربما كان عهد صدام التكريتي أشد وأقسى ظرف يمر على شيعة العراق خاصة وشعب العراق عامة، قناعة منه فانه يستطيع أن يحقق لأسياده تصفية الوجود الشيعي في العراق وربما صعد به غروره إلى تصفية الوجود الشيعي الإسلامي عموماً لقاء بقائه على كرسي الحكم في العراق مدة أطول، انطلاقاً من حماقته وغبائه وجهله بالتاريخ الذي ابتلي به الشيعة في العهد الأموي والعباسي، ولكنه نسي أن الحق لا يمكن أن يُقضى عليه مهما مرّ عليه الزمن وجاشت حقود الحاكم وما هي إلاَّ عملية وقت.

فالدستور الإنكليزي الإستعماري لثورة ١٩٢٠م وإبعاد الغالبية السكانية، لا يُبعد النجف الأشرف عن القيادة الثورية

ولا يطفئ شعلتها الجهادية، وستبقى النجف قبلة المسلمين ومحط المراجع العظام والعلماء والشعب الثائر مهما جار عليها الزمن، لأن حمايتها بحاميها وهو سيّد الوصيين وأمام المتقين أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، فهو حامي بيته ومَن يلوذ به والله المعين.

مكانة النجف الأشرف:

يطلق على مدينة النجف ثلاثة أسماء: النجف، الغري، المشهد. والنجف الأسم المعروف والغالب على التسميات الأخرى، والنجف هي ذلك المعهد الجامعي، العلمي الديني.

النجف، فرضت نفسها عندما شاء القدر لها أن يدفن فيها الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ويبقى قبره غير معروف في ظرف من الظروف السياسية التي كانت تلاحق محبي الإمام وتابعيه، وظل القبر على سريته حتى عام ١٧٠هـ (أيام الرشيد). ومنذ ذلك الحين أخذت مدينة النجف تستقبل الزاحفين لزيارتها أفواجاً من المحبين والعاشقين للإمام علي عليه السلام وأبنائه وأحفاده.

في عام ٤٤٨هـ نزح إليها من بغداد كبير علماء الإمامية الشيعة في ذلك الوقت الشيخ ابو جعفر محمد بن الحسن الطوسي أثر فتنة طائفية أثارها السلجوقيون في بداية حكمهم في العراق، فهجموا على داره ونهبوا كتبه وأحرقوا كرسيه الذي يجلس عليه للتدريس إلى جانب احراقهم مكتبات اخرى قديمة. وبانتقاله إلى مدينة النجف فتح عهداً جديداً للنجف حيث تحولت من مدينة ومزار إلى جامعة علمية كبرى. علماً بان مدينة النجف كان لها قبل الشيخ الطوسي شأنها العلمي وكانت مقصد الطلاب للدراسة على علمائها الأعلام[1]، واستمر بريق[2] النجف العلمي مستمراً بعد الشيخ الطوسي رغم توجه البعض إلى مدينة الحلة التي تبعد عن النجف حوالي ٧٠كم لتصبح مدينة بديلة لكبار علماء الشيعة ومقر تدريسهم ... إلاّ ان النجف ظلت تحتفظ بمكانتها العلمية وبقي فيها الكثير من العلماء والفقهاء يتابعون تدريسهم.

لم يطل الوقت حتى عادت النجف داراً للعلم والتدريس حتى امتد هذا النبع إلى مدينة كربلاء وفيها مرقد الإمام الحسين عليه السلام واخيه العباس عليه السلام وفيها مثلما في الحلة من مياه وبساتين اضف إلى المراقد المقدسة، وبقيت معهداً للشيعة حتى القرن الثالث عشر الهجري. وبانتقال السيد محمد مهدي الطباطبائي المعروف ببحر العلوم من كربلاء إلى النجف الأشرف استقر الأمر كاملاً في النجف[٣]. ثم اعقبه تلميذه الشيخ جعفر كاشف الغطاء فزاد الأمر احكاماً وأصبحت النجف مدرسة الشيعة الكبرى ومعهدهم الأول ودار هجرتهم العلمية[٤] حتى عهد قريب.

انفردت النجف في اغلب عهودها بالمرجعية العليا حيث كان مقرها الدائم إلى جوار الإمام علي عليه السلام والمرجع مجتهد من كبار المجتهدين تتوافق آراء العلماء المجتهدين الآخرين على رئاسته ومرجعيته فيأخذ مكانته دون تعيين أو ترشيح وانما بتسديد رباني يهيء أن يقوم الخلف بعد السلف.

وتعقد الدراسات النجفية في قاعات للدرس في المساجد والحسينيات اضافة إلى دور الأساتذة، وهي دور متواضعة حيث يجتمع الطلبة عند اساتذتهم، وإذا كبر حجم الحلقة الطلابية تنتقل إلى المساجد وبعض الحسينيات أو المدارس المخصصة لسكن طلاب العلوم الدينية.

وتوجد في مدينة النجف مدارس خاصة لطلبة العلوم الإسلامية وهي في حقيقتها أقسام داخلية للطلبة القادمين من خارج النجف، حيث تعطى للطالب غرفة لنومه واستقراره ومنها ينطلق إلى مكان دراسته، وربما يتخذ البعض هذه الغرفة للتدريس في بداية انطلاقته.

وتدريس العلوم الدينية في النجف الأشرف ينقسم إلى ثلاث مراحل:

أ) المقدمات: وهي المرحلة الأولى وتتضمن دراسة النحو والصرف وعلوم البلاغة والمنطق وهي مقدمة للتخصص في علمي الفقه والأصول.

ب) السطوح: ويقصد بها دراسة متون الكتب في الفقه الاستدلالي واصول الفقه، ويدرس في هذه المرحلة معالم

الأصول وقوانينه وكفاية الأصول وغيرها، وهاتان المرحلتان تعدان الطالب ليكون مستعداً للمرحلة الثالثة، وهي البحث الخارج وتستغرقان وقتاً ربما قد يصل إلى عشر سنين أو أقل تبعاً لقابلية الطالب واستعداده الفكري.

ج) البحث الخارج: وفي هذه المرحلة يكون اطلاق حرية المنافسة للطلاب على اوسع الأبواب، فيتسابق الطلبة مع اساتذتهم في مناقشة الآراء والنظريات مناقشة الند للند، ويزدادون ثقة بأنفسهم والاعتماد على مناقشتهم حيث يؤدي تلك المناقشات إلى أن تبرز في شخصية الطالب ثقته ثم اعداده ليكون مجتهداً حيث يعد فسه لنيل أضخم اجازة علمية وهي درجة «الاجتهاد»[٥].

مواقف النجف السياسية:

النجف الأشرف كغيرها من المدن فيها تنوع الآراء وتعدد الأفكار وهي في طليعة الحركات التحررية بل في أوائلها، خاصة وان للعلماء الأعلام نفوذهم الديني والسياسي حيثما كانوا، فالمرجع الأعلى الميرزا محمد حسن الشيرازي قاد الحركة الوطنية في ايران من مقره في سامراء - العراق، وأفتى تلك الفتوى المشهورة بتحريم استعمال التنباك.

وكذلك في بداية الحرب العالمية الأولى، رأى مجتهدو النجف الأشرف في هجوم الإنكليز على العراق تدخلاً سافراً على وطنهم، فأفتوا بالجهاد فانخرط الشعب في أثرهم بقيادة المجتهد العالم السيد محمد سعيد الحبوبي ومعه كتائب العلماء وطلاّب النجف وساروا مدججين بالسلاح إلى ساحات القتال في معركة «الشعيبة» وغيرها.

وبعد الاحتلال الإنكليزي للعراق واعلان الانتداب، دعا المرجع الأعلى الشيخ ميرزا محمد تقي الشيرازي - من مقرّه في كربلاء - الشعب العراقي لمقاومة الاحتلال والثورة على الانتداب، فهب الشعب حاملاً سلاحه، فكانت الثورة العراقية الكبرى التي أرغمت المحتلين الإنكليز على اعلان الحكم الوطني، وتوفي الشيخ الشيرازي فقاد الثورة خلفه الشيخ فتح الله النمازي

المعروف بشيخ الشريعة.

النجف والأدب والشعر:

وكما كان النجف الأشرف مركزاً للفقه والأصول ولبقية علوم الشريعة، حيث قاعدة العلماء والمجتهدين ومراجع الدين، كان له موقع للأدب العربي والشعر الأصيل وقد يترافق الأدب والشعر والفقه في العلماء والمراجع فنرى أمثال المجتهد الكبير السيد محمد سعيد الحبوبي، العالم والشاعر الكبير والثائر والقائد السياسي ... كما رأينا في السيد مهدي الطباطبائي بحر العلوم الفقيه والمرجع والشاعر الرقيق.

ونرى إلى جانب ذلك الإبداع الخطابي، وخاصة حيث يبدع خطيب المنبر الحسيني في تفسيره والشعر والحديث عن الملحمة الحسينية ويؤثر بالمستمعين وينقلهم إلى حالة اللاشعور ليندفعوا في البكاء على المصيبة.

واحتضنت النجف رواد المنبر الحسيني، كالشيخ اليعقوبي والسيد صالح الحلي والشيخ محمد علي قسام والدكتور الشيخ أحمد الوائلي في أيامنا الحالية.

وقد تعددت المكتبات العامة والخاصة في النجف، فيختص كل عالم بمكتبة واسعة بل يتعدى الأمر لتكون المكتبات الخاصة عند بعض الأشخاص العاديين وفي ذلك دلالة على شمولية الثقافة الأدبية.

يحدثنا المرحوم العلامة الدكتور الشاعر السيد مصطفى جمال الدين في ديوانه[٦] عن النجف الأشرف: «تمتاز هذه المدينة بخصائص يندر وجودها في مدن العراق، هي انها:

١ـ **مدينة الوافدين:** زوّاراً ومجاورين وطلاّب علم.

٢ـ **الشمائل العربية:** وهناك ميزة أخرى تبرز في هذه المدينة هي ان شمائل أهلها، والطابع العام لسكانها هو الطابع العربي القريب من البداوة، فالعشائرية، والنخوة، ورعاية الجار، والكرم، والضيافة، سمات بارزة يلمسها كل وافد إليها.

٣ـ **العربية ومراكز الدراسات**

الإسلامية: وخصوصية ثالثة تميز النجف عن غيرها من مدن العراق، انها لكونها مدينة جامعية للدراسات الإسلامية، وتمتد جامعتها على مدى يقرب من عشرة قرون، قد احتفظت باللغة العربية وآدابها رغم كل محاولات التتريك الذي فرضه المماليك والحكام العثمانيون على مدارس العراق وغيرها من البدان الخاضعة للخلافة الإسلامية من جهة ... ورغم انتشار اللغات الشرقية - وبخاصة اللغة الفارسية - بين الوافدين إليها من أقطار العالم الإسلامي التابعة لمرجعيتها الدينية من جهة ثانية».

وادي السلام - مقبرة النجف:

وهي نموذج تاريخي تمتاز به أرض النجف، أرض الغري لتكون مقبرة اسلامية عامة يؤتى لها من كافة الأقطار الإسلامية بملوك ورؤساء ووزراء وعلماء ومن سائر طبقات المسلمين والشيعة خاصة، ليوفقوا في الأوصياء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وعندما تزور الوادي ترى اختلاف القبور وحجمها وشكلها، وعلى الكثير منها صخرة كُتب عليها اسم الميت وتاريخه، والصخور التي نقش عليها اسم بين صخر طبيعي بسيط وآخر من الرخام الجيد وبلاط صناعي يسمى «الكاشي».

وتربة المقبرة تربة رملية نقية ناعمة، وهي القسم الظاهر، أما المخفي فعبارة عن صخرة متكونة من رمل قوي تسمح لحفر اللحد فيها بشكل عموديدفنهم جوار سيد. وقد كتب المرحوم الشاعر علي الشرقي قصيدة في مقبرة النجف بعنوان «وادي السلام» يقول فيها:

خليلي كم جيل قد احتضن الوادي
سل الحجر الصوان والأثر العادي

ويقول فيها[٧]:

فكم من بلاد في الغبار وكم ناد
عبرت على الوادي وسفت عجاجة
لأرفع تكريماً على الرأس أجدادي
وابقيت لم أنفض عن الرأس تربة

مرقد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام:

من أهم العوامل التي ساعدت مدينة

النجف الأشرف أن تكون قاعدة للشيعة الإمامية ومحط مراجعها وعلمائها وحوزتها العلمية وكرامتها واحاطتها بهذه الأبهة الكبيرة، وجود مرقد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وأحد أهم أركان الإسلام وتثبيته وخليفة رسول الله صلى الله عليه وآله من بعده.

من هو الإمام علي عليه السلام؟ وما صلته بالرسول صلى الله عليه وآله؟

لازمن الإمام علي عليه السلام محمداً صلى الله عليه وآله من المهد إلى الممات، يشم أنفاسه، ويضعه النبي صلى الله عليه وآله في حجره ويضمه إلى صدره ويكتنفه في فراشه ويمسه جسده، بل ويمضغ اللقمة ثم يلقمها إياه، تماماً كما تفعل الأم بوليدها.

ومن الثابت أن الله سبحانه وتعالى قرن علياً بمحمد من يوم كان فطيماً كما أنعم عليه بملازمته محمداً صلى الله عليه وآله منذ طفولته فكان يتبعه اتباع الفصيل أثر امه، ويرفع النبي له في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمره بالاقتداء به، حتى صاغه في تربيته صياغة قرآنية محمدية.

وهنا نجد السر في قول الإمام علي عليه السلام: «**ذاك القرآن الصامت وأنا القرآن الناطق**»، وقوله «**سلوني قبل أن تفقدوني ...**» وقوله: «**ان رسول الله علّمني ألف باب من العلم، يفتح لي من كل باب ألف باب ...**» وقوله: «**ما وجد رسول الله لي كذبة في قول، ولا خطلة في فعل ..**» وقوله: «**لم يكن لأحد في مهمز ولا لقائل في مغمز، الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه، رضينا عن الله قضاءه، وسلمنا لله أمره، أتراني أكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله؟ لأنا أول مَن صدقه فلا أكون أو من كذبه**»[٨].

ويكفينا تأكيداً من النصوص الإسلامية ما قرأناه من دعاء الرسول صلى الله عليه وآله له يوم أعلن ولايته على الأمة يوم غدير خم «**اللهم وأدر الحق معه حيث دار**»، كما ويكفينا ما قرأناه من شمول قطعي في آية التطهير المباركة له، وكذلك تأكيد الكثير من الروايات الواردة بانه مع الحق والحق معه، وانهما لا يفترقان حتى يردا على الرسول صلى الله عليه وآله الحوض يوم القيامة، بالاضافة إلى

روايات الثقلين، وهي متواترة الصدور عن الرسول صلى الله عليه وآله ... إذ قال: «**وانني سائلكم حين تردون عليّ عن الثقلين، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، الثقل الأكبر كتاب الله، سبب طرفه بيد الله وطرف بأيديكم، فاستمسكوا به لا تضلوا، ولا تبدلوا .. وعترتي أهل بيتي، فانه قد نبأني اللطيف الخبير انهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض**».

كما يرد تأكيد الرسول صلى الله عليه وآله بان علياً مع القرآن والقرآن مع علي حتى يردا عليه الحوض، كما يرد قول الرسول صلى الله عليه وآله في حقه «ان حافظي علي بن ابي طالب عليه السلام ليفخران على سائر الحفظة لكونهما مع علي، وذلك انهما لم يصعدا إلى الله بعمل يسخطه»[٩].

وما رواه أنس بن مالك قال: بينما كنّا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله، إذ قال: «**يدخل عليكم من هذا الباب رجل هو سيّد الوصيين وقائد الغر المحجلين، وقبلة العارفين، ويعسوب الدين، ووارث علم النبيين** ...» إلى آخر الحديث، وكان الداخل هو الإمام علي عليه السلام.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**من اطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومَن أطاع علياً فقد أطاعني، ومَن عصى علياً فقد عصاني**»[١٠].

وقوله صلى الله عليه وآله: «**مَن أراد أن يحيا حياتي ويموت ميتتي ويسكن جنة الخلد التي وعدني ربي، فليتول علي بن ابي طالب، فانه لن يخرجكم من هدى، ولن يدخلكم في ضلالة**»[١١].

ولو أردنا الولوج في الحديث عن امام المتقين وسيّد الوصيين أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام لكلّت الألسن وتعبت الأيدي عن الكتابة ومهما ولجنا فسنجد أنفسنا في بداية الطريق، فشخصية الإمام علي عليه السلام تحدث عنها الله تعالى قبل الخلق وتناقلها الأنبياء حتى كان الساعد الأيمن لرسول الأمة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وهو يعد من أحد الأركان المهمة في تثبيت الدعوة الإسلامية.

ان ما جرّنا إلى الحديث عن الإمام وشخصيته، انه العامل الأساسي والمهم في ابراز أهمية مدينة النجف الأشرف حيث مرقد هذه الشخصية الإسلامية

الفذة فنالت هذه المدينة شرف العظمة وسمو الرقي وتهافت العلماء إليها حتى كانت اولى المدن في العالم، وأخذت هذه المدينة تخرج العلماء وهم يقودون للعالم الإسلامي ثوراته ضد الطغاة والمستعمرين بسلاح العقيدة والإيمان.

الحوزة العلمية ونشأتها في النجف الأشرف:

يحدثنا التاريخ بأنَّ مدينة النجف الأشرف كانت ذات شأن علمي ولا تزال وكان الناس يقصدونها للدراسة على علمائها الفطاحل المجاورين فيها، فمنذ أوائل القرن الثالث الهجري نرى أسماء علمية بارزة تُنسب للنجف مثل شرف الدين بن علي النجفي وأحمد بن عبد الله الغروي وابن شهريار، كما ان هناك اجازات علمية تحمل اسم النجف، ثم نرى ان المؤرخين يذكرون ان عضد الدولة البويهي حين زيارته للنجف سنة ٣٧١هـ وزع أموالاً على الفقهاء والفقراء ومعنى هذا انه كان فيها جمهور من الفقهاء خفيت عنّا أخبارهم[١٢].

اختار الشيخ الطوسي مدينة النجف الأشرف داراً لهجرته عندما خرج من بغداد اثر حوادث السلاجقة في تتبع الشيعة فيها بالتنكيل والتقتيل. مضافاً إلى مجاورته لمرقد الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام تيمناً بقدسية مَن فيه وتبركاً بروح روحانيته.

ولأن الشيخ الطوسي كان مرجع الشيعة في بغداد بعد وفاة استاذه الشريف المرتضى فحين اضطر إلى الهجرة من بغداد إلى النجف الأشرف انتقل مركز المرجعية معه، وحلَّ أرض النجف المقدسة طلاّبه ومريدو فضله، والتفّ حوله مَن فيها من الفقهاء والطلاب، ووفد إليها آخرون من حواليها وأطرافها والبقاع القريبة منها والنائية عنها.

ألفَّ الشيخ الطوسي من هؤلاء المركز العلمي الرئيسي للشيعة الإمامية، وراح يعد تلامذته اعداداً تربوياً خاصاً ليعوّض عما فقده الشيعة من عدوان السلاجقة عليه. فقد ذكر ان عدد الفقهاء المجتهدين الذين تخرجوا في مجلس درسه تجاوز الثلاثمائة مجتهد.

وعندما توفي الشيخ الطوسي سنة ٤٦٠هـ، تولى المرجعية وزعامة الحركة العلمية في النجف من بعده ولده أبو علي الحسن بن محمد الطوسي الملقب بـ «المفيد الثاني» والمتوفى بعد سنة ٥١٥هـ[١٣].

وازدهرت النجف ثانية بعد هبوط الشيخ المحقق الكركي فيها، وتوليه زمام المرجعية العامة للامامية فيها، وتسلمه منبر الدرس الأعلى في وسطها العلمي[١٤]، وقد سار الشيخ الكركي في مرجعيته العامة وزعامته للطائفة سيرة الشهيد الأول فقد كان يقول بولاية الفقيه[١٥].

ان استمرارية الحوزة العلمية في النجف بمراجعها وأساتذتها وطلاّبها على امتداد هذا العمر الطويل يعود إلى استقلاليتها عن السياسة الادارية والتدريسية حيث المناهج الخاصة بطريقة الحوزة العلمية وبارشاد وتنظيم الاساتذة والمجتهدين واشراف المرعية، فقد تكونت من مجموع ذلك دروس ثقافية ودينية باللغة العربية كالبلاغة والنحو والفقه والأصول .. والسلطة السياسية لا دخل لها في مثل تلك المناهج.

ان استمرارية الحوزة العلمية تقتضي الشأن المادي لما فيه من تيسير امور الطلاب النازحين من خارج النجف خاصة وغيرها من المصاريف المقتضية لذلك. والمرجعية تعتمد في هذا الصدد على الحقوق الشرعية، الأمر الذي حاول من خلاله كثير من الحكام وضع رواتب لطلبة الحوزة لربطهم بالدولة، إلاّ أن الأمر باء بالفشل إذ رفضت المرجعية الدينية ذلك تطبيقاً للحديث المشهور «إذا رأيتم العلماء على أبواب الملوك فبئس العلماء وبئس الملوك، وإذا رأيتم الملوك على أبواب العلماء فنعم الملوك ونعم العلماء».

ان قبول الطالب الحوزوي له استقلاليته بحد ذاته، حيث لا يخضع قبوله في الحوزة لسلطة سياسية، فقبوله مرهون بما يؤديه من اختبار أولي ثم يتولى المرجع شؤون سكنه واقامته والمرتب لتسيير امور معيشته .. ثم يوجه دراسياً فيتابع تعليمه ويمر بالمراحل التي

سبق وتحدثنا عنها حتى يصبح هو الآخر مؤهلاً للاجتهاد.

وقد كانت العشائر في العراق تقف مع صوت المرجعية، وكان هذا العامل من جملة العوامل التي جعلت ثورة العشرين تنجح في دحر الاستعمار البريطاني حيث كان لفتوى المرجع الديني الميرزا محمد تقي الشيرازي أثر كبير في نفس ابن العشيرة وشيخها حيث يعتبرها واجباً مقدساً يلتزم به، وبهذا الترابط القوي بين الشعب والمرجع تفجرت الثورة وتألقت تقدماً وأنزلت ضرباتها على المستعمر الذي حاول بمخططاته وضع كثير من الحواجز بينهما، وبذل الأموال لشراء ضمائر بعض ذوي النفوس الضعيفة واستدراجها إليه.

وأصبحت مدينة النجف الأشرف - حينذاك - غرفة عمليات ثورة، جهاداً ومصدراً للبطولة والفداء حتى سرت الثورة إلى جميع محافظات العراق، والجنوبية بالذات.

دور الدين في قيام الثورة:

فيما تقدم تحدثنا عن الخلفية التاريخية للنجف الأشرف وكونها مدينة مقدسة، وعن نشأة الحوزة العلمية وفيها عوامل مهمة جداً في تكوين فكرة الثورة ضد الاحتلال البريطاني، فلما كان المسلمون الشيعة كلية القاطنين الساكنين في النجف منذ ميلاد المدينة، وكون احتضان فكرة الثورة من رجال النجف الأشرف وشخصياتها قاعدة وقيادة ... كانت بذور التشيع في فكرة التحرك الثوري مدعاة لتكون الانطلاقة شيعية وان انضمّ إليها شخصيات سياسية ودينية غير شيعية لما فيها من اصالة عقائدية، وصدقية في المسيرة.

وفي ضمن التحرك المنظم يبادر اعلام النجف إلى تشكيل حزب سياسي اطلق عليه «الحزب النجفي السري» حيث اتخذ اعضاؤه المؤمنون من غرفة معزولة في مدرسة الملا كاظم الخراساني في محلة الحويش في النجف الأشرف مقراً لهم.

وقد ضمَّ هذا الحزب الكثير من علماء الدين الكبار والشخصيات الاجتماعية المعروفة وزعماء العشائر، توزعوا على ست مجاميع حسب طبيعة العمل منهم: الشيخ عبد الكريم الجزائري، الشيخ محمد جواد الجزائري، الشيخ محمد باقر الشبيبي، الشيخ محمد رضا الشبيبي، السيد محمد سعيد كمال الدين، الشيخ حسين الحلي، الشيخ عبد الحسين مطر، السيد أحمد الصافي، الشيخ نمحمد علي القسام، الحاج محسن شلاش، السيد هادي زوين، السيد علوان الخرسان، محمد أبو شبع، السيد علوان الياسري، السيد كاظم العوادي، الحاج عبد الواحد سكر، الشيخ غثيث الحرجان، الشيخ شعلان أبو الجون.

وقد حظي هذا الحزب الذي يضم العلماء في النجف الأشرف ورؤساء العشائر والشخصيات الاجتماعية في النجف ومنطقة الفرات الأوسط بتأييد مراجع الدين حتى ان التنسيق كان قوياً حول ظروف الساحة وأساليب التحرك، ولاسيما مع الإمام محمد تقي الشيرازي الذي انتقل من سامراء إلى كربلاء في نهاية ١٩١٨م، آخذاً بنظر الاعتبار ضرورة الاقامة بالقرب من الفرات الأوسط. فقد وجد الإمام الشيرازي في هذا الحزب ذراعاً فاعلة تستطيع أن تدفع الامة بالاتجاه الذي تهدف له[١٦].

وبنفس الوقت تشكلت أحزاب مختلفة في بغداد تضم جهتي الشيعة والسنة ومن أبرز الأعضاء المؤسسين: الشيخ محمد باقر الشبيبي، علي البازركَان، جلال بابان، محمود رامز، محيي الدين السهروردي، شاكر محمود، السيد محمد الصدر، جعفر أبو التمن، يوسف السويدي، دكتور سامي شوكت ... وغيرهم.

وكان هدف هذه الأحزاب استقلال العراق استقلالاً كاملاً، وفي نفس الوقت الذي نرى فيه تركيبة تلك الأحزاب والجمعيات من شخصيات مختلفة ومتنوعة، إلاَّ أن الدور الديني في عملها السياسي واحد، حيث كانت توزع بياناً اصدر الإمام الميرزا محمد تقي

الشيرازي قدس سره يذكر فيه اقامة دولة اسلامية في أرجاء العراق وعلى نطاق واسع.

تأسست في عام ١٩١٩م جمعية الشبيبة الجعفرية ومعظم أعضائها من طلاب المدرسة الجعفرية واتخذت دار عبد الغني كبة مقراً لها وضمت شباباً من ضمنهم: سامي خونده، باقر سركشك، محمد حسن كبة، صادق البصام، محمد الشجاع، صادق حبة، عبد الرزاق الأزري، رؤوف البحراني، عبد العزيز القطان، صادق الشهربانلي، جعفر حمندي، كاظم الشجاع، محمد مرزة، ذبيان الغبان، سليم الحريري.

وانضمت هذه الجمعية أخيراً إلى جمعية حرس الاستقلال (جناح الشباب) للتحرك بين الطلبة والشباب، وعند اندماج الجمعيتين تم تعيين الشيخ محمد باقر الشبيبي عضو ارتباط بين النجف وبغداد (لأهمية ومكانة النجف كما تحدثنا)، كما انيطت بالشيخ الشبيبي مهام اخرى في كربلاء والحلة والشامية للتمكن من كسب تأييد وجهاء هذه المناطق العشائرية[١٧].

وقد استطاع الشيخ السبيبي ان يوجد انسجاماً كبيراً بين جمعية حرس الاستقلال وبين التحرك السياسي في مناطق الفرات الأوسط، والذي كان يحركه الحزب النجفي السري. ومما يجدر ذكره ان الشيخ الشبيبي رغم كونه من الاعضاء القياديين في حرس الاستقلال، فانه أيضاً كان عضواً في الحزب النجفي السري[١٨].

وبتشكل الحزب النجفي السري عام ١٩١٨م، تشكلت في كربلاء الجمعية الإسلامية في كربلاء، وفي الكاظمية الجمعية الإسلامية في الكاظمية. وقد انصب نشاط تلك الأحزاب على تهيئة الظروف اللازمة للثورة المسلحة ضد الإنكَليز حيث كانت هذه التجمعات وبقيادة المرجعية الدينية في مدنها تعبئ الجماهير المجاهدة باتجاه الثورة. وبفضل انتماء الكثير من رؤساء العشائر في صفوف تلك الجمعيات، كانت النتائج الفاعلة في ثورة العشرين.

نلاحظ انه من خلال تشكيل هذه

الجمعيات التي تضم العلماء ورجال الدين وارتباطها بمراجعها في قراراتها، والمسيرة التي كان يخطط لها في اشعال نار الثورة وانطلاقها من المساجد التي يحتفل فيها بالمناسبات الدينية وحضور الحشد الجماهيري فيها لهذه المناسبات، قامت السلطة بمراقبة تلك الفعاليات والحد منها او خلق مناسبات في نفس الوقت محاولة بذلك اشغال الجماهير الدينية وابعادها عن علمائها ورؤساء الجمعيات المؤسسة لغرض الثورة.

ان هذا الاتجاه الديني في تحريك الجماهير سياسياً تحت مظلة العمل الإسلامية والهدف الثوري انطلق من مدن المراقد المقدسة، من النجف الأشرف وكربلاء والكاظمية. وما الجمعيات واعضاؤها وهيكليتها الشيعية إلاّ لتفجير ثورة العشرين في العراق.

دور رجال الدين:

كان لدور العلماء ـ كما أشرنا ـ في تعبئة الجماهير للثورة أثره الكبير في الاستجابة لهم فالشيخ مهدي الخالصي والسيد هبة الدين الشهرستاني كانا حلقة الوصل بين القيادة وبين علماء الدين في الكاظمية وجماهيرها، كما ان السيّد أبو القاسم الكاشاني كان حلقة الوصل بين القيادة وإيران، والميرزا أحمد الخراساني كان الحلقة بين اليادة وجماهير وعشائر النجف الأشرف، والأخيران كانا حلقة الوصل مع عشائر الفرات الأوسط.

ان منهج الإمام الشيرازي في القيادة كان يعتمد على الشورى، ومن هنا فقد شكّل في البداية مجلس شورى للعلماء، كما شكّل فيما بعد وعلى أثر فتواه بجواز حمل السلاح ضد الإنكَليز مجلساً لأدارة الحرب ضد القوات الإنكَليزية، يتشكل من رؤساء العشائر الثائرة، ومن الوجهاء وكبار زعماء الثورة، وعلى رأسهم الحاج عبد الواحد الحاج سكر[١٩].

كما كان منهج الإمام الشيرازي في الثورة قد تميز بما تميزت به الحركة الثورية الإسلامية في ذلك الوقت من المبادئ الثلاثة:

١ـ النفي المطلق للإستعمار ورفض المهادنة معه.

٢ـ الوحدة الاسلامية.

٣ـ الاعتماد على الفكر الإسلامي في الحركة.

كما كان الإمام الشيرازي منذ توليه الزعامة الدينية والسياسية، سعى عبر توجيهاته ووكلائه، ورسله، إلى تهيئة الأرضية الشعبية لتفجير الثورة بوجه الإنكليز، وقد أصدر عدة فتاوى حدد فيها واجب الشعب في قضية الاستفتاء وفي حرمة التعاون مع السلطات المحتلة. ولم يكن الإمام الشيرازي تنقصه الشجاعة في اصدار فتوى يلزم فيها الشعب بوجوب حمل السلاح، إنما كانت حكمته تقتضي أن يجعل الفتوى كيف مسلّط على رأس الإنكَليز دون استخدامه. إلاّ في الحالات التي تفقد فيها جميع الآمال والحلول[٢٠].

وفي فترة المفاوضات بين ممثلي الإنكَليز والزعامة الدينية والشعب، وفشل تلك المفاوضات أصدر الإمام الشيرازي فتواه المشهورة وهذا نصها:

«مطالبة الحقوق واجبة على العراقيين ويحق عليهم في ضمن مطالباتهم رعاية السلم والأمن، ويجوز لهم التوسل بالقوة الدفاعية إذا امتنع الإنكَليز عن قبول مطالبهم».

وانتشرت الفتوى على نطاق واسع في كل مكان مع مبعوثين خصوصيين من علماء الدين لتحريض الجماهير على حمل السلاح ومقاومة القوات الإنكَليزية بالقوة، وكان بعض العلماء والخطباء والشخصيات الدينية من أقدر الناس على تعبئة الجماهير من أمثال أبو القاسم الكاشاني والسيد صالح الحلي، والسيد محمد الصدر[٢١].

وأخذت المدن الجنوبية المحيطة بالنجف وكربلاء والكاظمية، تتحرك اثر الفتوى واتساع انتشار العلماء والشخصيات الأخرى في جبهات المعركة، وتحرك الاستعمار الإنكليزي بعناده ومؤامراته لتطويق التحركات، فكان الثوار يقودهم العلماء ورؤساء العشائر يبذلون الغالي والرخيص لفك حصار الاستعمار عن المدن. وانتكست

مدينة الحلة، فبلغ ذلك الإمام الشيرازي، فأمر السيد هبة الدين الشهرستاني كاتبه ومستشاره باستفسار الخبر من السيد علوان الياسري ... فكتب يقول: «أما حالتنا الحاضرة فكما يحب الله وتحبون، وان مصادقة الجيش العربي مع القوة المعادية في الحلة ليست أخبارها كما بلغتكم ... وهاك حقيقتها، مولاي وردتنا مكاتيب من بعض العشائر تريد الهجوم على الحلة، وطبق خطتهم أن يكون هجومهم مما يليهم ويكون هجومنا مما يلينا حتى يكون الهجوم عمومياً، والظفر من الله، وبعد هذا الترتيب حشدنا جيوشنا للهجوم ولكن ويا للأسف ان الوضعية بين العشائر تغيّرت دون اشعارنا»[٢٢].

من الأمور المعروفة ان الزعامة الدينية الشيعية في العراق والتي لعبت دوراً خطيراً في تفجير وأجيج ثورة ١٩٢٠م الوطنية، كانت تنطلق في تفكيرها السياسي من منطلق ديني اسلامي عام لا يختص بطائفة ذهبية معينة، شيعية أو سنية، ولا بفئة اثنية دون أخرى، عربية أو كردية أو تركية أو غيرها.

لقد ذهب علماء الدين الشيعة، العرب منهم والايرانيون على رأس قوافل المجاهدين إلى ساحات القتال في الشعيبة وغيرها لمحاربة القوات البريطانية. أمرُ الزعامة الدينية الشيعية في العراق بأن تحرير العراق من الاحتلال البريطاني شرط أساسي لتأسيس الحكم الوطني الجديد. وأكّد هذا المعنى اصرارهم على متابعة الشوط في سياستهم ضد الاحتلال البريطاني والسير فيه إلى النهاية، وقد تجلى هذا بالدور المشرف في تفجيرهم ثورة ١٩٢٠م.

ومن علماء الشيعة الذين شاركوا في المعارك ضد الاحتلال:

١ــ آية الله السيد أبو القاسم الكاشاني.

١ـ آية الله الشيخ جواد الجواهري.

٣ــ آية الله السيد محمد سعيد الحبوبي.

٤ـ آية الله السيد محسن الحكيم.

٥ـ آية الله السيد علي الداماد.

٦ـ آية الله السيد مصطفى الكاشاني.

٧ـ آية الله السيد محمد علي بحر العلوم.

٨ـ السيد محمد نجل آية الله السيد اليزدي.

٩ـ آية الله الشيخ اسحاق الرشتي.

١٠ـ ميرزا مهدي الآخوند.

جلّ اولئك العلماء من النجف الأشرف أو ممن يقيم في النجف وقد حملوا راية الجهاد ونزلوا إلى ساحة القتال حتى اللحظات الأخيرة.

يقول الأستاذ عبد الحليم الرهيمي: في مدينة النجف قام عدد كبير من العلماء بأدوار مهمة في حركة الجهاد، وكان أبرزهم المجتهد محمد سعيد الحبوبي «ويعتبر من كبار الفقهاء المجدّدين وبرز كشاعر مجدد أيضاً وكان أول من أفتى عام ١٩٠٨م بشرعية تأسيس مدارس حديثة في بغداد لتعليم اللغات الأجنبية، وهو من عائلة نجفية مشهورة من السادة العاملين في التجارة، قاد المجاهدين في جبهة الشعبية، وبعد الانكسار في المعركة وعودته مع المجاهدين إلى مناطقهم، توفي قرب مدينة الناصرية في منطقة سُميت (دار الجهاد) وذلك في الثاني من شعبان ١٣٣٣هـ الموافق ١٩١٥م، وقد اعتبرت وفاته نكسة كبيرة لحركة الجهاد في العراق».

ان السيد الحبوبي قام بدور رئيسي في الثورة، حيث كان أول من بادر إلى قيادة مجموعات المجاهدين والتوجه بهم إلى الجبهة، وقد التف حوله عدد من العلماء في النجف الأشرف وكربلاء والكاظمية الذين قاموا بدور فعّال في تعبئة عشائر الفرات الأوسط وحثّها على الجهاد[٢٣].

ولقد شارك مع العلماء غالبية قطاعات الشعب من المثقفين والعشائر، والتجار، وكان لهم دور كبير في تحريك وتأجيج الثورة في النجف. وكان أغلبية المثقفين من المجاهدين يلتقون في مكتبة الأستاذ الفاضل عبد الحميد زاهد وهو صاحب المكتبة الوطنية في

بغداد، وهذه المكتبة أخذت من احدى ايوانات الصحن الحيدري مكاناً لها، وكانت بعض الصحف اليومية والمجلات العربية تصل إلى هذه المكتبة، شجّع هؤلاء المثقفين بملازمة هذه المكتبة، وبمرور الأيام أصبحت هذه المكتبة كندوة تضم الطبقة الأدبية والمثقفة.

وبرزت طبقة مفكرة مجاهدة تبنت فكرة مكافحة الاستعمار والثورة عليه منذ عام ١٩١٨م، حتى انبثاقها يوم ٢ تموز ١٩٢٠م، وفي مقدمة هذه الطبقة: الشيخ عبد الكريم الجزائري، الشيخ محمد رضا الشبيبي، السيد محمد سعيد كمال الدين، السيد محمد رضا الصافي، الشيخ باقر الشبيبي، السيد حسن كمال الدين، الشيخ علي الشرقي، الشيخ محمد جواد الجزائري، السيد سعد صالح، السيد أحمد الصافي، السيد محمد علي كمال الدين، وغيرهم.

وهناك طبقة روحية عُليا تولت معظم الأعمال خلال الثورة إلى انتهائها وهم: الشيخ عبد الكريم الجزائري، الشيخ محمد جواد الجواهري، الشيخ عبد الرضا راضي، الشيخ مهدي الملا كاظم. والشيخ الجزائري أهم عضو في الطبقتين الروحية والمتجددة، وهو همزة الوصل بين جميع الطبقات، بل كان أحد أهم من في الثورة لأنه محور الحركة ومجرى التفكير للثورة والثوار والعلماء والمجتهدين والمثقفين يسانده في جهاده الشيخ جواد الجواهري وزعماء القبائل مع بعض أفراد الطبقة الأولى المثقفة.

كما كانت هناك طبقة أخرى هم: الحاج محسن شلاش، الشيخ محمد حسن الجواهري، عبد الأمير الشكري، محسن عجينة، يوسف عجينة، السيد علي الحلي، الشيخ عبد الغني الجواهري، الشيخ عبد الحسين مطر.

والطبقة الرابعة هم: عبد الحميد الزاهد، الشيخ باقر الجواهري، الحاج عبد النبي الشكري، الحاج حمود معله، عبد الحميد مرزة، الحاج علي كبة، امين شمسة، السيد علوان

الخرسان، الحاج سعيد مرزة، الحاج رؤوف شلاش، السيد جواد زيني.

الطبقة الخامسة هم: السيد يحيى الحبوبي، السيد رضا الخرسان، مكي الشكري، عبود مرزة، عبد الرزاق الحاج مسعود، السيد حسين الرفيعي، الشيخ محمد علي قسام، الشيخ حسين الصحاف، الشيخ محمد الشبيبي، الشيخ عبد علي الطريفي، عبد الحسين الحلي، الشيخ محمد الوائلي، الشيخ حسين الشيخ مهدي، الشيخ محمد حسن محبوبة، السيد محمد زوين، الشيخ جعفر قسام، عبد الرسول شريف، السيد علي هادي الحبوبي.

والطبقة السادسة هم: الشيخ سعيد الخليلي، الملا علي الدلال وابنه سلمان الملا علي، علي بن قاسم افندي، السيد صالح البغدادي، الشيخ حسين الحلي، محمد علي الصراف، رؤوف الجواهري، الشيخ محمد علي الخليلي، نعمة الشيخ كاظم.

وهناك طبقة اشتغل بعض أفرادها مع الطبقة الأولى المتجددة وكان لهم الأثر الفعّال في تشجيع الحزب العامل، لأنهم من الطبقة المسلحة. ونذكر منهم: السيد هادي زوين، السيد كريم السيد سلمان، السيد كاظم السيد سلمان، عبد الرزاق عدوه، محمد أبو شبع، رسول تويج، تومان عدوه، حمود الحار، الحاج محمد الحاج عبد الله الهندي، عبد الصاحب هويدي.

وقد تبع السيد هادي من نجفيي الحيرة المسلحين وغيرهم ما لا يقل عن ألف مسلح، وتبع محمد أبو شبع ورسول تويج ما لا يقل عن خمسمائة من نجفيي الكوفة وغيرهم، وتبع الباقين ما لا يقل عن مائة وخمسين مسلحاً باسم الجيش الوطني المحارب، وصرف محمد الهندي على الجيش الوطني ما لا يقل من عشرين ألف روبية من خالص ماله.

وكانت مكتبة الزاهد مركزاً للمراجعة في أوقات مختلفة، وهي في عين الوقت مرتبطة بمركز الحزب السري كل الارتباط، وهذا الحزب أعضاؤه هم أغلب أفراد الطبقة الأولى[٢٤].

اسباب الثورة (ثورة العشرين):

كانت المنطقة تغلي بالثورات والحركات، والتطلعات الخارجية كانت سبباً مهماً في اثارة الداخل الذي كان يعاني من سطوة الاحتلال الإنكَليزي ما يرهقه ويذله.

ان اعلان الحسين بن علي، شريف مكة المكرمة، الثورة على الترك في اليوم التاسع من شهر شعبان ١٣٣٤هـ الموافق ١٠ حزيران ١٩١٦م دفع الإنكليز إلى دعم ثورته كثيراً.

ان أخبار الثورة التي قام بها الأحرار في مصر في ١٧ آذار ١٩١٩م في وجه الطغيان الإنكَليزي، والأعمال الخارقة التي أتوا بها لمكافحة الاستعمار البريطاني، ألهبت الحماسة في نفوس العراقيين، يضاف إلى ذلك قيام الحكومة الفيصلية في الشام قبيل انتهاء الحرب العالمية الأولى، وانخراط معظم الضباط العراقيين فيها، وتمتعهم بالمراكز المهمة في دواوينها، وسعي (حزب العهد العراقي) في دمشق ليكون للعراق حكومة عربية. وكانت في مقدمة الأسباب المباشرة للثورة وجود القوات البريطانية ذاتها، فما ان أعلنت برطانيا عن محاولتها لتثبيت أوضاعها وفرض الانتداب، بعد اعلان قرارت مؤتمر - سان ريمو - وانتهاء أعماله واقراره بوضع العراق تحت الانتداب البرطاني حتى اندلع لهيب الثورة العراقية(٢٥).

يرى الأستاذ عبد الرزاق الحسني ان تلك الأسباب أثارت العراق سياسياً وخصوصاً بعد أن ظهرت نيات الإنكليز نحو مستقبل البلاد، فتحركت الجماهير العراقية بكافة طبقاتها وهيئاتها، ومما دفع هذه الجماهير بحركتها السياسية سوء الإدارة المحتلة بأعمالها فدفعت بالعراقيين نحو الثورة:

أ) بيانات الحملة العسكرية: بخصوص محافظتها على المراقد المقدسة على أن يمر الحجاج أو الزوار الهنود القادمون من الهند وألا يعترضهم أحد في طريقهم. وعند احتلال القوات الإنكَليزية مدينة البصرة اصدر القائد

العسكري كوكس بياناً إلى أهل البصرة ذكر فيه الأهالي بأن الجيش البريطاني انما يحارب الحكومة التركية، لا الأهلين الذين يضمر لهم كل خير وفلاح.

ويلاحظ ان تلك البيانات كان المقصود منا زعزعة الوحدة الإسلامية، واثارة النفرة بين العراقيين والحكومة العثمانية، جرياً على قاعدة «فرّق تسد». وفي يوم ١٤ شباط ١٩١٥م أذاع السير بيرسي كوكس بلاغاً خطيراً هذا نصه:

«إلى جميع مَن يعنيهم المر: يعلم الجميع، ان مناطق العراق فيما بين الفاو والقرنة، قد أصبحت الآن محتلة من قبل القوات البريطانية منذ شهرين مضيا. لقد بينا مراراً إلى الجمهور، ان الحكومة البريطانية قد اضطرت ضد رغبتها إلى محاربة تركية بسبب الأعمال العدوانية التي قامت بها الحكومة التركية بتحريض من ألمانيا غير ان أعمال القوات البريطانية الحربية موجهة نحو الحكومة التركية وجنودها فقط، أما العرب فان الحكومة البريطانية ليست لها رغبة في أن تعاملهم كأعداء لها، طالما ظلوا هم أنفسهم أصدقاء ومحايدين، وطالما امتنعوا من حمل السلاح ضد جيوشها، بل ان الحكومة البريطانية على العكس ترغب في تحرير العرب من ظلم الترك، وتيسير التقدم لهم، وزيادة رفاههم وصناعتهم.

لقد أبدى الكثير من شيوخ العرب والقبائل في ولاية البصرة، مدركهم مصالحهم الخاصة ورغبتهم في التسليم إلى السلطات البريطانية، أو وقفوا بعيداً عن الحركات الحربية، بين الحكومتين بمحض ارادتهم، غير ان بعض الأشخاص من الطائشين قد أغراهم العدو على حمل السلاح لمساعدته ضد الجيوش البريطانية.

لقد أصدرنا هذا التنبيه لنحذر جميع الشيوخ، والقبائل في ولاية البصرة، وبضمنها مناطق البصرة، والقرنة، والعمارة المنتفك. ان اولئك الذين ينحرفون

عن طريق الصداقة والحياد، ويحملون السلاح لمعاونة العدو، ستستحوذ الحكومة البريطانية على أملاكهم التي تقع ضمن النفوذ البريطاني، وسوف يُعلن في حينه عندما ينفذ أمثال ذلك. هذا ما وجب بيانه».

ب. ف. كوكس رئيس الحكام السياسيين[٢٦]

ب) احتياجات الجيش المحلية: وقد أدّت احتياجات الجيش المحلية إلى اصدار عدد كبير من البيانات والاعلانات والأوامر المعقدة، هيمنت على العلاقات بين الجيش والأهلين، فكانت شديدة الوطأة صعبة التنفيذ بحيث انتقدها العسكريون قبل السياسيين.

موقف علماء الدين:

ان من أسباب الثورة واندلاع لهبها في نظر الكثير من الباحثين والمؤرخين هو موقف رجال الدين. ولا يخفى ان المجتهدين من علماء الشيعة الإمامية، مرجع جميع أبناء هذه الطائفة في تلقي الفتاوى والأحكام الدينية، وهم يعتقدون ان علماءهم نوّاب أئمتهم فلا يخالفون لهم أمراً، ولا فتوى، ولا حكماً من الأحكام الشرعية. وقد ظهرت من قديم الزمان طبقات مختلفة من العلماء المذكورين، واختلفت اجتهاداتهم في كيفية كفاح الغزاة من الاستعماريين، فكان بعضهم، منطلقاً من حالة الضعف، يقصره القيام بوظائفه الدينية، وقسم آخر يعتقد با الاسلام لا يجتمع مع السيطرة الأجنبية تحت صعيد واحد مهما كانت الأصول، فعلى المسلم أن يستميت في الدفاع عن نفسه، متى هاجمه أو أراد الاستيلاء مستمر غاشم.

وقد كان من هذين التوجهين جماعات في كربلاء والنجف والكاظمية وسامراء، فلما اندلع لهيب الحرب العالمية الأولى جرت مناقشات ومداولات كثيرة، في المحافل الدينية الموجودة في هذه المدن المقدسة، في موضوع الجهاد والقتال، فكان فريق يدعو إلى المسالمة بسبب ضعف الاستعداد وقلة وسائل الدفاع، وعدم ملائمة الظروف للقتال، وكانت أكثرية العلماء

والطلاّب، ولاسيّما العرب من دعاة الحرب والدفاع عن بيضة الإسلام، وقد تغلب هذا الحزب أخيراً، فكان لآرائه وفتاواه النفوذ الواسع على جمهور الناس في العراق[٣٧].

ولا غرو في هذا الرأي والتحمس فقد قاد رجال الدين الرأي العام في أيام الانقلاب الدستوري وفي أثناء الحرب العالمية فكانوا من أصدق العامة المتفانين في سبيل مبادئهم، ومن أخلص الزعماء المؤمنين بعقائدهم، وكان كل ما لديهم في هذه القيادة الايمان والعقيدة الدينية التي اتنفروا بها الناس للجهاد سواءاً أكان ذلك في الحرب العالمية أم في ثورة العشرين ـ الثورة الكبرى ـ وهذا ما أزعج الاستعمار البريطاني والذي لم يضع في حساباته أهمية هذا الدور الكبير.

ولما تقدم نائب الحاكم الملكي العام في العراق (أي. تي. ولسن) باستفتاء طرحه للعراقيين يتضمن ثلاثة أسئلة:

١ـ هل العراقيون يرغبون في دولة عربية واحدة، تحت الوصاية البريطانية تمتد من الحدود الشمالية لولاية الموصل حتى الخليج «العربي» الفارسي؟

٢ـ هل يرغبون، في هذه الحالة، في رئيس عربي بالإسم يرأس هذه الدولة الجديدة؟

٣ـ مَن هو الرئيس الذي يريدونه في هذه الحالة؟

ان هذا الاستفتاء أثار موجة غضب واستياء في مناطق النجف، كربلاء، الكاظمية، والحلة، والموصل، واشدها وأعنفها مدينة النجف، فقد كانت هذه المدينة قذىً في عين البريطانيين وسياستهم، كما يصفها السير برسي كوكس، وكانت المدينة الأولى التي تحسست بثقل الاستعمار، واول مدينة عراقية فكّرت بالتخلص من الاستعمار البريطاني، بالنظر لما قد تشبعت من روح الحرية والنزوع إلى الديمقراطية، بسبب ما كانت تلقاه من دروس متواصلة عن فلسفة نهضة الإمام أبي عبد الله الحسين بن علي عليه السلام، وبسبب كونها مهد

العلماء ومركز الروحانية، ولذا فقد اهتم بها الحاكم الملكي العام اهتماماً عظيماً، وأراد أن يعرف رأي سكانها والمحيطين بها في مستقبل بلادهم، معرفة دقيقة، فسافر إليها في اليوم الحادي عشر من شهر كانون الأول سنة ١٩١٨م بعد أن أوعز إلى المبجر نوربري، الحاكم السياسي للواء الشامية والنجف، أن يدعو علماء النجف وأشرافها، وزعماء القبائل وساداتها، في أبي صخير والشامية للاجتماع بهم[٢٨].

وبعد ان اجتمع الحاكم العام مع مجموعة نذكر منهم: الشيخ محمد رضا الشبيبي، والحاج عبد المحسن شلاش، والسيد هادي الرفيعي، والشيخ عبد الواحد سكر، والسيد علوان الياسري، وبعد المناقشات وابداء الآراء احتدم الموقف بينهم وبين الحاكم العام. طلبوا تأجيل الاجتماع إلى الغد، لدرس المواضيع الثلاث فوافق، حيث ذهب الحضور إلى الزعيم الروحي الجليل السيد محمد كاظم اليزدي لطرح الموضوع عليه، فأشار عليهم السيد اليزدي بالاجتماع وتداول الأمر فيما بينهم حيث اجتمعوا في دار «الشيخ محمد جواد صاحب الجواهر» حضره رهط من العلماء والزعماء والمتمولين والمتعلمين، والأشراف والسادات وغيرهم، وجرى نقاش حول مسألة الحاكم العام، وتشعبت الآراء، وداهمتهم الشرطة فشتتهم أيدي سبا.

انتفاضة النجف:

جميع أبناء العراق استجابوا لنداء الثورة بالرغم من ان بؤرة الثورة الرئيسية وقيادتها كانت في المدن المقدسة والفرات الأوسط بشكل خاص ... وبينما كانت مدينة النجف تشكو من قلّة الطعام، قدم إلى النجف شيخ من قبيلة عنزة محمّلاً برسالة من قبل «ليشمان» ـ وهو ضابط انكَليزي اشتهر بقمعه لأنتفاضة النجف ــ إلى حميد خان المنصوب من قبل الإنكَليز لمساعدته على حمل كمية كبيرة من الحبوب على متن قافلة قوامها ١٢٠ جملاً مرسلة من قبل شيخ مشايخ عنزة (فهد بن هذال)

حليف الإنكَليز الحميم، ولم يكن بوسع النجف أن توفر هذه الكمية من الحبوب لقبيلة وهابية هاجمت مدنهم وأهانت مقدساتهم وقتلت رجالهم في حملات نهب سابقة، ثم تجلس على بساط القصر تنتظر الجماعة أو العون على يد المحتلين الإنكَليز، لذلك ثارت الجماهير وخرجت في مظاهرة اتجهت نحو محط قافلة عنزة فنشبت معركة ونهب، وفوضى شاملة، فقدم النجف ضابط الارتباط السياسي المقيم في الشامية الكولونيل بلفور، ليسوي الأمور بالتي هي أحسن، ولكنه فشل في مهمته وخرج من النجف تحت حراسة مشددة، وامتدت ثورة أهالي النجف إلى حواليها حيث هاجم الأهالي مكاتب الحكومة في الكوفة وأبي صخير وانتصر الثوّار في الجولة الأولى[٢٩].

ان الضغط المادي والمعنوي وواقعة قافلة ابن هذال هيأت النفوس للثورة، كما اجتمع أعضاء جمعية النهضة الذين اجتمعوا في ١٩ آذار في النجف الأشرف وقرروا بالاجماع البدء بالثورة عن طريق اغتيال الضابط مارشال حيث سيؤدي ذلك إلى سلسلة ردود فعل من جانب الإنكَليز وضدهم، تؤدي في النهاية إلى قيام ثورة عامة في الفرات الأوسط.

وبالفعل تمَّ اغتيال مارشال على يد عشرين شخصاً تتكروا في ثياب الشبانا (البوليس المحلي) ودخلوا مقر الإدارة المركزية البريطانية في خان عطية أبو كلل تحت شعار انهم يحملون رسالة مستعجلة إلى المارشال[٣٠].

من المقاومة إلى الثورة:

ان تشكيل الجمعيات الوطنية وتعبئة الجماهير بالعمل ضد الاحتلال والتفاف المواطيني حول مرجعيتهم يساندهم بذلك رؤساء العشائر والجماهير، كان بمثابة بدء التحركات والمناوشات في المدن المقدسة في النجف الأشرف وكربلاء والكاظمية وسامراء، ضد الإنكَليز وسريان تلك التحركات إلى المناطق الأخرى مما أدى إلى اصدامات بين الثائرين وحكومة لاحتلال، وأخذت النار تشتعل وتبرز بوادر الثورة الكبرى

ملوحة بالأفق لتحرير العراق من احتلال العدو لها.

«في الأسبوع الأول من ١٩١٨م كانت قوات بريطانية قد أخذت مواقعها في الكوفة، وكلّفت دورة عسكرية بالتجول حول سور النجف، فأُطلقت عليها النار وقتل اثنان من أفرادها».

وأعاد هذا الحادث إلى الأذهان مرة أخرى فكرة المواجهة بين الشيعة والإنكَليز وأعطى انطباعاً عاجلاً، ربما شخص على طاولة العسكريين البريطانيين بان السهولة التي دخلت فيها قواتهم إلى بغداد سوف لا تتكرر في مدينة النجف.

ففي بغداد لم يواجه البريطانيون مقاومة، بعد أن انسحب الجيش التركي منها إلى مواقع دفاعية في سامراء، ولم يكن أهالي مدينة بغداد في وضع يساعدهم على المقاومة، فوجهت ضربة قوية لحركة الجهاد، ولكن البقية الباقية من السكان لم يساهموا أساساً في عمل ضد الاحتلال مما سهل أمر السيطرة على بغداد.

وأغلب الظن ان ادارة الاحتلال أدركت، بان الرد بالمثل ومهاجمة النجفيين سيضعهم في مأزق أمام المسلمين سواء في العراق وفي خارجه كالهند وإيران وبعض البلاد العربية.

كما ان رد الفعل قد يسحب الفريقين إلى مواجهة عسكرية، فاكتفت بارسال طائرة عسكرية حلقت على ارتفاع منخفض في سماء النجف بقصد الارهاب، فاطلقت عليها النار بغزارة من جميع المحلات[٣١].

«وبالاجمال فانّ المشروع المطروح في النجف، والذي يقف وراءه علماء بارزون، خلاصة مخلصة لتلك الجهود العظيمة التي بذلها الاصلاحيون الاسلاميون في مدرسة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي، فقد جعل واضعو المشروع الإسلام حلاً لمشكلات المجتمع، لكنهم لم يغلقوا الأبواب أمام التجارب العالمية»[٣٢].

وقد وضع هذا المشروع علماء ومجتهدون منهم الشيخ عبد الكريم الجزائري والشيخ محمد جواد الجزائري

والسيد محمد علي بحر العلوم والسيخ محمد علي الدمشقي الذين أسسوا لتنفيذه تنظيماً حزبياً، وأقاموا له هيكلاً ونظاماً داخلياً، وهو «حزب النهضة الإسلامي» وكانت الأحزاب تسمى على الأغلب جمعيات، فغلبت عليها هذه التسمية وأصبح معروفاً باسم «جمعية النهضة الإسلامية»[٣٣].

وفي متابعتي لمطالعة الشيعة والدولة القومية في العراق من موضوع النجف والإنكَليز ص: ٨٩ إلى ص: ١٠٦، لاحظت ان الكاتب الأستاذ حسن العلوي يصف السيد اليزدي المرجع الديني، بانه كان من أتباع الإنكليز وانه ساعد بموقفه على وأد الثورة في النجف، وهذا خلاف ا أعلفه وأتتبعه في ان موقف لسيد اليزدي، كان على خلاف هذا الرأي وانه كان مفكراً في تصرفه ومتأنياً ودقيقاً في تعامله مع حكومة الاحتلال، ولا أدري ما الذي دعا الكاتب إلى أن يصفه بهذا الوصف؟ وربما يرى الأستاذ العلوي ان المجتهد قد يختلف في رأيه مع الآخرين ولكن لا يعني ذلك عصياناً وتمرداً في رأيه مع غيره، فالمرجع السيد اليزدي عُرف عنه انه كان يتعقل الأمور ويتصرف بحكمة ودقة. ولربما كان يرى في عدم اظهار موقفه العدائي لحكم الاحتلال مجالاً لحل كثير من الأمور التي تتعلق بادارة البلد والأمة، ومنها الجانب الاقتصادي والسياسي.

حكومة النجف الثورية:

لقد شهدت حركة المعارضة الإسلامية هذه، أولى تحركاتها مع بداية انحسار حركة الجهاد، أي في أعقاب معركة الشعيبة، حيث عقدت لقاءات ومؤتمرات متتالية بين عدد من العلماء في النجف وكربلاء، وزعماء العشائر في الشامية والناصرية والشطرة ... وغيرها من مناطق الفرات الأوسط، وكان الرأي السائد فيها هو الإعداد للثورة على الإنكَليز ومحاربتهم، غير ان التشكيل العملي لهذه المقاومة لم يبدأ، إلاَّ بعد احتلال بغداد، وعلى وجه التحديد، في أواخر العام ١٩١٧م وأوائل

١٩١٨م، حيث دخلت حركة المعارضة اعتباراً من ذلك التاريخ في مواجهات سياسية وعسكرية قوية مع سلطات الاحتلال كان أهمها: المواجهة المسلحة الموضعية التي مثلتها «ثورة النجف» خلال آذار - نيسان ١٩١٨م.

والمواجهات السياسية ابان عملية الاستفتاء التي أجرتها الادارة الإنكليز في أواخر ١٩١٨م وأوائل ١٩١٩م، رغم المواجهة المسلحة الشاملة التي مثلتها «ثورة العشرين» خلال حزيران - تشرين الثاني ١٩٢٠م، والتي شكلت ذروة المواجهات السياسية والمسلحة ضد الإنكَليز، حيث أعقبت ذلك فترة من المواجهات السياسية ضد الانتداب، وضد المشروع الإنكَليزي لإقامة دولة محلية (محدثة) وتابعة للغرب[٣٤].

لقد شكلت النجف منذ بداية الاحتلال، مركزاً أساسياً لحركة الجهاد، واثر التصادم مع الادارة العثمانية المحلية وطردها في آيار ١٩١٧م. أقام زعماؤها المحليون ادارة ذاتية لتسيير شؤون الأهالي، وهي ادارة يصفها «لونكرك» بانها أشبه بحكومة مؤقتة، وخلال السنتين تمتعت بهما المدينة بوضع مستقل عن الادارتين العثمانية والإنكَليزية، أقام علماؤها وزعماؤها صلات وثيقة، بمعظم أنحاء العراق والعالم الخارجي ولاسيما زعماء ورؤساء عشائر الفرات الأوسط[٣٥].

كان العراقيون قد انتظموا في ترتيب تشكيل حكومة وطنية لتسيير دفة البلاد بعد ان بلغ الأمر ذروته مع الاحتلال وبدؤوا ينزلون ضرباتهم بالمحتل، فثورة العراقيين في وجه الظلم والاستبداد والجور والاستعباد كانت تزداد يوماً بعد يوم فنظموا شؤونهم مادياً وحربياً، وأخذوا يشكلون في المدن التي يستولون عليها حكومة محلية، وتقف على تنظيمها هيئات علمية.

«ففي مدينة النجف انشئ مجلس بلدي قوامه ثمانية أشخاص لكل محلة من محلات المدينة الأربع شخصان، والثمانية هم:

محلة المشراق: ١ـ عبد الرزاق شمسة ٢ ـ عباس شمسة.

محلة البراق: ١ـ أحمد ناجي ٢ـ محمد جواد عجينة.

محلة العمارة: ١ـ كردي أبو كلل ٢ـ علوان الخرسان.

محلة الحويش: ١ـ سعيد كمال الدين ٢ ـ حسين الظاهر.

وكانت وظائف هذا المجلس جمع الضرائب، وجباية الرسوم المحلية والاشراف على الأمور الصحية، والقضايا البلدية، ولهذا انشؤوا حرساً خاصاً للأمن ومراقبين صحيين للنظافة، وموظفين ماليين للجباية. وقامت إلى جانب المجلس البلدي هيئتان محليتان:

الأولى: هيئة أعضاء مجلس الادارة وكانت مكونة من:

١ـ الشيخ جواد صاحب الجواهر رئيساً

٢ـ الحاج عبد المحسن شلاش ناظراً للمالية

٣ـ السيد مهدي السيد سلمان رئيساً للقوة الاجرائية

الثانية: هيئة القوة التنفيذية وكانت مكونة من:

١ـ كردي آل عطية ابو كلل.

٢ـ الحاج حسين آل ظاهر.

٣ـ السيد علي جريو.

٤ـ السيد مهدي السيد سلمان.

٥ـ الحاج عبد الله الشمرتي.

٦ـ غيدان عدوه.

٧ـ الحاج حسون سربه.

٨ الحاج محمد الشرباوي.

وإلى جانب هاتين الهيئتين قامت «الهيئة العلمية الدينية العليا» فكانت تشرف على شؤون الثورة العامة، وتدير امورها وتصدر التعليمات المقتضية لهيأتي «المجلس البلدي» و«القوة التنفيذية» وتقضي في المشكلات التي تحصل آنياً، أي أنها كانت تجتمع إثر كل حادثة أو مشكلة لتجد لها الحلول والمنافذ وكان الاجتماع برئاسة شيخ الشريعة، أما أعضاء هذه الهيئة العلمية العليا فكانوا:

١ـ الشيخ فتح الله شيخ الشريعة.

٢ ـ الشيخ عبد الكريم الجزائري.

٣ـ الشيخ جواد الجواهري.

٤ ـ الشيخ مهدي الملا كاظم.
٥ـ الشيخ موسى تقي زاير دهام.
٦ ـ الشيخ اسحاق حبيب الله.
٧ـ الشيخ مشكور الحولاوي.
٨ ـ الشيخ علي الحلي.
٩ـ الشيخ عبد الرضا الشيخ راضي.
١٠ ـ الشيخ أحمد الملا كاظم.
١١ـ السيد محمد علي بحر العلوم.
١٢ ـ السيد محمد رضا الصافي.
١٣ـ السيد علي السيد حسن.
١٤ ـ الشيخ علي المانع[٣٦].

وهكذا وعلى اثر هذه التشكيلات العملية لبدء انطلاقة الثورة، سارت بقية المدن الثائرة بتنظيم شؤونها وتشكيل الهيئات فيها، ومنها مدينة كربلاء ومحل اقامة الإمام الشيرازي.

ان ثورة النجف كانت أول ثورة في العراق على الإنكَليز، وهي لم تستمر طويلاً إذ سرعان ما تمكن الإنكليز من القضاء عليها في مهدها، ولكنها على الرغم من قصر عمرها تُعتبر حدثاً مهماً من الناحية السياسية والاجتماعية، فهي تعطينا صورة حية من صور المجتمع العراقي في تلك المرحلة، ومن الممكن القول انها من الأحداث التي تهم الباحث الاجتماعي والمؤرخ في آن واحد، أو لعل أهميتها الاجتماعية أكبر من أهميتها التاريخية[٣٧].

ثمار الثورة:

لما تمَّ للبريطانيين احلالت بغداد في ١١ آذار ١٩١٧م بعد اتفاقية سايكس بيكو، اتخذت دوائر الاحتلال البريطاني بموجبها قرارات خطيرة بكيفية احلال المناطق العراقية في البصرة والناصرية والحي وبدره، وتنظيم شؤون الاحتلال والتمثيل في المدن وكيفية تشغيل الموظفين في تلك الادارات، ونتيجة التحركات الانتفاضية والثورية للمناطق المقدسة كالنجف وكربلاء والكاظمية وسامراء، كان قرار الاحتلال البريطاني ان تكون لـ «أماكن الشيعة المقدسة» ادارة مستقلة غير خاضعة للهيمنة البريطانية المباشرة على أن ينتبه إلى عدم ادخال أراضي سقي، أو قابلة للسقي فيها.

أما كيف تسرّب الاحتلال إلى النجف والمدن المقدسة الأخرى وبدأت المدينة تدك بالمدافع ودنسها دخول الجيش، فقد سبق أن أشرنا في البحث إلى رفض المواطنين وفي مقدمتهم العلماء الأعلام السيطرة الأجنبية مهما كانت صفتها ونتيجة لهذا الرفض القاسي كان الشيعة قد تحملوا عبئاً كبيراً جداً ودفعوا الثمن باهضاً حتى يومنا هذا وسيأتي البحث عنه مفصلاً.

قرّر مجلس الحلفاء الأعلى في ٢٥ نيسان سنة ١٩٢٠م فرض «الانتداب البريطاني» على العراق، وأخذ وزير الخارجية البريطاني اللورد وكرزن يفكر في كيفية ادارة العراق في الوقت الذي اخذت روح الاستقلالية تسري بين مواطنيه بسرعة فائقة رافضين كل هيمنة أجنبية، فكان تفكير الوزير - كما صرح في خطابه في مجلس اللوردات - حول حاكم يجمع عليه رضى العراقيين، في الوقت الذي كان لهب الثورة قد تفجر بشكل خطير، واندلعت ألسنتها تسير في جميع أنحاء العراق سريان النار في الهشيم حتى لم يبقَ للاستعمار موضع قدم في حين كانوا يتصورون أن لهم الأيادي المتعاونة فيها، الأمر الذي دفع بالبريطانيين إلى التعجيل في اختيار الحاكم العربي للعراق لوضع الحد لهذا اللهيب المستعر وتكونت فكرتهم باستدعاء الأمير فيصلاً الموجود في درعا، وبدأت المحاولات والمراسلات والاعتراضات حتى تحقق أن فيصل هو الوحيد بين زعماء العرب الذي يدرك المشكلات العملية في ادارة حكومة متمدنة، بموجب الطرق العربية، ولهذا أشارت الأصابع إلى تسلمه لحكم العراق.

«فقرّرت الحكومة البريطانية دعوة الأمير فيصل إلى انكَلترا فوراً، فجاء إلى لندن في ٢ كانون الأول ١٩٢٠م وقابل الملك جورج الخامس في اليوم الرابع من هذا الشهر لتقديم الشكر على الهدايا التي أهداها الملك جورج إلى والده الملك حسين»[٣٨].

«في يوم ٢١ تشرين الأول ١٩٢٠م جمع السير برسي كوكس مجلسه الاستشاري المكون من «السير بونام كارتر» ناظر العدلية والكولونيل هاول ناظر المالية ومساعده الكولونيل سيلتر، والميجر بولارد ناظر الأشغال، والمستر فلبي ناظر الداخلية، والمس بل السكرتيرة الشرقية لفخامته، وعرض عليهم مشروعه قائلاً: انه يرى أن يسلك طريقاً خاصاً في تنفيذ السياسة المقررة في البلاغ الصادر في ١٧ حزيران فيحافظ على الروح الوثابة، ويشذ في طريقة البناء، وانه يرى أن يؤلف حكومة مؤقتة، تكون كالجسر بينه وبين الشعب العراقي وتأخذ على عاتقها تعبيد الطريق لأقامة الحكم المقرر، دون أن يمس جوهر السياسة المرسومة. وأضاف إلى ما تقدم، أنه قرر الاستعانة بالسيّد عبد الرحمن الكَيلاني «نقيب اشراف بغداد» ليوليه رئاسة هذه الحكومة، لما له من المنزلة الاجتماعية والمقام الروحي، وذلك بعد أن اعترضته صعوبات وعقبات جمة في ترشيح غيره»[٣٩].

وبعد فراغه من المناقشات والتصورات مع اعضاء مجلسه (أي السير برسي كوكس) واجهته صعوبات من معظم الوجوه والأشراف لمخاوفهم المختلفة من هذا الطرح، كما ان علماء الكاظمية أصرّوا على تشكيل حكومة تنتخب من الشعب، وأخيراً تكونت الحكومة المؤقتة على النحو التالي:

١ ـ السيد عبد الرحمن النقيب (نقيب بغداد) رئيساً لمجلس الوزراء.

٢ـ طالب النقيب وزيراً للداخلية.

٣ـ ساسون حزقيل وزيراً للمالية.

٤ـ مصطفى الآلوسي وزيراً للعدلية.

٥ـ جعفر العسكري وزيراً للدفاع.

٦ـ السيد محمد مهدي بحر العلوم وزيراً للصحة والمعارف.

٧ـ عبد اللطيف المنديل وزيراً للتجارة.

٨ـ السيد محمد علي فاضل وزيراً للأوقاف.

٩ـ عزّت باشا الكركوكي وزيراً للثقافة.

ثم توصل السير برسي كوكس إلى تشكيل مجلس استشاري لمجلس الوزراء

يتناول المخصصات الوزارية ولا عمل لهم رسمياً إلاَّ إذا دعوا للاشتراك في جلساته وهم:

١ـ الشيخ ضاري السعدون المنتفك
٢ـ عبد الجبار الخياط بغداد
٣ـ عبد الغني كبة بغداد
٤ـ عبد المجيد الشاوي بغداد
٥ـ فخر الدين جميل بغداد
٦ـ عبد الرحمن الحيدري بغداد
٧ـ محمد الصيمود الكوت
٨ـ عجيل السرمد الكوت
٩ـ أحمد الصانع البصرة
١٠ـ سالم الخيون المنتفك
١١ـ الحاج نجم البدراوي العمارة
١٢ـ داود اليوسفاني الموصل

وكانت مخصصات رئيس الوزراء سبعة آلاف روبية شهرياً. وثلاثة آلاف روبية للوزير سواء كانت له وزارة أم لم تكن[٤٠].

دور النجف في ثورة العشرين:

لثورة العشرين أهمية خاصة، حيث ان ١٣٠ ألف ثائر من الفلاحين والبدو وسكان المدن، شهروا السلاح في وجه أقوى دولة امبريالية في ذلك الحين، وقاتلوا قواتها المتفوقة عدداً وعدة لأكثر من خمسة أشهر بشجاعة لم يسبق لها مثيل[٤١].

وان الانتفاضات التي قام بها الشعب العراقي، والتي انطلقت من المدن المقدسة ابتداءاً من النجف الأشرف، دفعت بسريانها ضد الاستعمار البريطاني خلال ١٩٢٠ و ١٩٢٤ و ١٩٢٦ و ١٩٢٧ و١٩٢٨م والانتفاضة الجبارة التي حدثت خلال الأعوام ١٩٣٥ ـ ١٩٣٨م سجلت أحداثاً مجيدة في تاريخ النضال التحرري للشعب العراقي[٤٢]. الحدث العظيم الذي حدث في ميثاق النجف ٢٣ آذار ١٩٣٥م الموجه من الشعب العراقي لمرجع المسلمين الشيعة آنذاك الإمام الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء[٤٣].

واستمر العراق بعطائه حتى كانت اتفاقية بورتسموث ١٩٤٨م حيث أحبطها الشعب بثورته ومزّق اتفاقيتها، وامتدت اعوام الجهاد حتى عام ١٩٥٦م عندما قام العدوان الثلاثي البريطاني والفرنسي

والاسرائيلي، على الشقيقة مصر، فكان الشعب العراقي يقف بالمرصاد لحكومة العراق فتظاهر مستنكراً، وسقط الضحايا في رصاص نوري السعيد.

ويقول السيد عدنان ابراهيم السراج: «قاوم العراقيون الاحتلال الإنكَليزي مع القوات العثمانية وكانت القوات المساعدة للعثمانيين من العشائر بقيادة علماء النجف[٤٤] الأشرف وكربلاء والكاظمية ... الخ»[٤٥].

ويتابع قوله: «في احداث ١٩٥٦م المتمثل بالعدوان الثلاثي على مصر، كان للنجف موقف مشرّف شجب هذا الاعتداء، فخرجت تظاهرات في الشوارع والأسواق، واستمر الاضراب في النجف اسبوعاً كاملاً اتخذ العنف طابعاً له، فعمدت السلطة إلى القوة، واطلقت النار على بعض المتظاهرين في مرقد الإمام علي بن ابي طالب عليه السلام، فقتل اثنان»[٤٦].

في عام ١٩٥٩م وعندما كان المد الشيوعي في العراق قد تفاقمت تصرفاته (امتدت الهجمة الشيوعية لتطاول التيار الديني والمرجعية في النجف، وبدأت حالة من المواجهة في النجف بعد وضع علامة (لا) على دور علماء الدين بغية مهاجمتها ليلاً)[٤٧]. ان هذه النماذج من المواقف التي وقفتها النجف الأشرف بمراجعها العظام وعلمائها الأعلام وشعبها المتفاني، جعلتها تكون غرفة عمليات للمجاهدين للانطلاقة الأولى للثورة ابتداءاً من سنة ١٩١٧م بدء الحركة الجماهيرية ضد الاستعمار الإنكَليزي وامتداداً واستمراراً بجميع الأحداث والانتفاضات والحركات التي مرت على عراقنا الحبيب حتى يومنا هذا.

ونتيجة لهذا الموقف العلماني تجاه المستعمر الأجنبي يحدثنا الأستاذ عبد الكريم الأزري فيقول: «فان جميع المطلعين على تاريخ العراق الحديث، ولاسيّما بعد قيام الثورة الكبرى سنة ١٩٢٠م يعرفون جيداً ان الشيعة كانوا ضحية الانتقام الإنكَليزي لمواقفهم الوطنية الصلبة العنيدة ضد الإنكليز الذين وجدوا انه من الصعب التفاهم مع زعماء الشيعة واعتبروهم حملة لواء

التطرف في الوطنية، واستبعدوهم عن جميع المناصب، وهضموا حقوقهم، بل وهدروها هدراً، وقاوموهم بكل شدة وقسوة، وقربوا عوضاً عنهم، مَن سموهم «بالمعتدلين» وسلموهم مقاليد الحكم[٤٨].

كان الملك فيصل الأول واعياً لموضوع استبعاد الشيعة عن الحكم وقد رفضه ووضح ذلك في مذكرته التي اصبحت وصية من بعده مؤكداً فيها ضرورة مشاركة الأغلبية السكانية في العراق في اتخاذ القرار السياسي[٤٩]

الحقد القديم يطال الشيعة:

ان ثورة العشرين كانت نتيجة ضراع طويل بين قوى الاستعمار البريطاني وبين الشعب العراقي المتمثل في مراجعه العظام ومسيرة العلماء الذي وقفوا صفاً واحداً لتحريره فأوقعوا بالمستعمر ضربات موجعة لم تكن بحسبانه ... وأخيراً استسلم لما ألم به من الخسائر فقرر مكرهاً ترك العراق بعد أن يعطى البلد استقلاله. فهل ترك العراق؟ وترك شيعة العراق الذين طردوه ؟!

لقد ترك الاستعمار البريطاني للشيعة ما يعانونه حتى يومنا هذا مروراً بكل الأدوار التي جاءت لتحكمه باسم استقلال العراق، حيث يعيش الشيعة في غليان ثورات وحركات ونتفاضات لمطالبتهم بحقوقهم السياسية التب فقدوها ولم يحصلوا عليها. ان شعب العراق يعاني في كل دقيقة من قمع وارهاب واضطهاد، وهناك مَن يعاني الغربة القاتلة، وفراق الوطن المذبوح بمدية الدكتاتورية، ويعاني كل شبر من رماله المضجرة بدماء الشهداء الأبرار، ومن أنين آلاف المسجونين، وتضور المعتقلين الذين لا يُعدّون، انها مأساة امة هي الغالبية الساحة .. كل صور المعاناة المرهقة، وعلى مسمع من العالم الحر، ومرأى منه، وقد غفا الصمت المثقل بالهموم على شفاهه، وباتت الكلمة الجريئة مشنوقة على لسانه.

انهم يؤسسون جمعيات لحقوق الحيوان، ويدافعون عن مظلومية الحيوان وكيف يذبح الخروف، في الوقت الذي

يُذبح فيه آلاف من البشر في العراق، وما من مؤسسة تدافع عن حقوقه المهدورة.

منذ ثورة العشرين والإنكَليز عرفوا ان الشيعة بالتحديد يشكلون غالبية العراق - في أكثر الاحصائيات الرسمية - في النسبة السكانية في العراق، فعمدوا إلى وضع دستور لتصعيد الأقلية إلى حكم البلاد وحرمان الأغلبية السيعية من حقّها الوطني ويضعون التبرير السخيف لتحقيق مآربهم، لأنهم تكبدوا الخسائر من اولئك الشيعة الذي اذاقوهم العذاب في ثورتهم وحطموا شوكة الامبراطورية البريطانية وألحقوا بها خزياً وعاراً ... فأصبحوا للشيعة أعداءاً.

وبعد أن خرج الإنكَليز مكرهين من العراق تركوا دستوراً ينفذ ارادتهم الحاقدة ويمنع الشيعة من الحصول على حقوقهم الوطنية فالشيعة لا تتمتع:

أ) بحق المشاركة في الحكم بالشكل العادل كما يتمتع به الآخرون، ولا يحق لهم صياغة القرار السياسي في وطنهم.

ب) كما لا يحق لهم اقامة شعائرهم وطقوسهم بحرية كسائر الأديان والمذاهب.

ج) ولا يتمتعون بحق اقامتهم في بلدهم الذي ولدوا فيه، وبمناطق عيشهم التي قضوا فيها السنين الطوال.

د) ولا يتمتعون بحق المواطنة المتساوية، وممارسة حقهم في التعبير عن رأيهم إلى جانب المواطن الآخر.

هـ) وكذلك لا تمتعون بحق كونهم الأغلبية السكانية والتي تشكل الهوية الوطنية والقومية والثقافية للبلاد.

إذ يجري تمييز صارخ ضدهم - أي الشيعة - من أجل تغيير هذه الهوية بل في سحقها، ويجري على مر السنين ترحيل الكثير منهم إلى الخارج الوطن بحجة واخرى والتشكيك بمواطنتهم، وتصفيتهم جسدياً والابادة الجماعية، ومحاولة مسخ التراث الثقافي والحضاري، وتدمير بنيتهم الروحية والعلمية، وتشتيت جامعتهم الدينية ومعاهدهم العلمية، كجامعة النجف، وحوزتها العلمية، والاعتداء على مرجعيتهم الدينية، وقتل علمائهم وتدمير

وهدم مساجدهم، وحرق نفائس مكتباتهم، والاعتداء على مراقد أئمتهم المقدسة، وتغيير معالم مدنهم التاريخية.

هذه السياسة الطائفية الهوجاء هي جزء من الطائفية السياسية التي تمارسها الأنظمة المتعاقبة على الحكم في العراق على مر السنين، وفي جميع مراحل الحكام بين الصعود والنزول حسب متطلبات الظروف وطائفية الحاكمين. وفي الوقت الذي يقوم الشعب العراقي بانتفاضاته ورفضه للاستعمار وأذنابه ومعاهداته فمن ثورة العشرين إلى انقلاب بكر صدقي ١٩٣٦م إلى انقلاب رشيد عالي الكَيلاني ١٩٤١م إلى وثبة بورتسموث ١٩٤٨م إلى انقلاب محمد نجيب في مصر ١٩٥٥م، ومأساة النجف واستئزار نور الدين محمود في ١٩٥٥م، إلى المعارضة في حلف بغداد عام ١٩٥٥م والعدوان الثلاثي على مصر ١٩٥٦م، إلى الإنقلاب الجمهوري في ١٩٥٨م ومنه إلى الوحدة بين مصر وسوريا من نفس العام، إلى الانقلاب الدموي البعثي الأسود في ١٩٦٣م والانقلاب البعثي الأخير في ١٩٦٨م وحتى يومنا هذا، تعطي النجف خاصة والشيعة عامة قرابين من الدماء بعلمائها وبمراجعها وشبابها وشيوخها نساءً ورجالاً وحتى اطفالاً.

وتحاول السياسة الطائفية هذه الظهور بمظهر الضحية لتبرير انتهاكاتها الصارخة لحقوق الانسان، وممارساتها الارهابية والقمعية ذد أبناء البلد الأصليين، وبالطبع فان السياسة تلك مرتبطة بطبيعة النظام السياسي، ونهجه وبعموم التقاليد الموروثة في المجتمع العربي، بغض النظر عن حجمها كماً أو كيفاً.

جذور المشكلة الطائفية:

ورجوعاً إلى تاريخ جذور هذه المشكلة المؤلمة ودافعها الحقيقي، فقد كان هناك اتجاه سياسي تغلب على جميع الاتجاهات الأُخرى، وشكل بداية جديدة لظهور عرب المسلمين الشيعة على المسرح السياسي العراقي، فبعد انتهاء اضطهادهم من قبل الدولة العثمانية، بدأ جهاد علماء الشيعة ضد المستعمر

البريطاني من جل الاستقلال، واقامة الدولة العراقية، ونهضوا بالقسط الأكبر من هذا الجهاد وبالكفاح الكبير من خلال تفجيرهم وقيادتهم لـ«ثورة العشرين» أولاً، ثم من خلال مناداتهم بملك عربي انسجاماً مع عروبتهم ثانياً[٥٠].

وقد اتضح بعد تقديم الضحايا والاستقرار على استقلاليتهم من خلال المرجعية الدينية في النجف، وفتاواها التي تجد صدى التنفيذ المباشر من قبل جماهير الأغلبية الشيعية في جميع انحاء العالم الإسلامي. ومن جراء هذا الشعور الرافض للمستعمر البريطاني كرست سياسة تقديم الأقلية المؤيدة لقبول الأمر الواقع، على الأغلبية، وعوملت هذه الغالبية كأقلية مضطهدة عاشت أوضاعاً تعرضت فيها لا للتمييز في المعاملة - الذي لا تقرّه مواثيق حقوق الانسان - فحسب، بل لحملات تصفية جماعية وابادة شاملة.

ورغم ان العهد الملكي الذي جيء به بعد ثورة العشرين حتى عام ١٩٥٨م، لم يشهد تصفيات جسدية لهذه الأغلبية كما حدث في الأزمنة من بعده، إلاّ ان سياسة التمييز الطائفي كانت قائمة - حينذاك - وكانت أحد اسس النظام السياسي الذي قام على أساس من هذا التمييز الذي لم يغيره عهد في هذه الوزارة أو تلك، وتميزت بشكل واضح في المناصب الحكومية، حيث شكلت من عام ١٩٢٠م وحتى تاريخنا الحالي وزارات ورئاسات كان نصيب الأغلبية الشيعية اشبه بالانعدام. كما تمثلت هذه الطائفية في البرلمانات أيضاً، واستمراراً في سائر مرافق الدولة، ومجالاتها الواسعة.

أما مركز سلطة الجيش والقوات المسلحة، فلم يكن للشيعة إلاّ العدد الرمزي القليل جداً وذلك على هامش القوات المسلحة، وهو في الواقع ستاراً للتغطية الطائفية السياسية السائدة، والتي وضع اساسها القانوني (قانون الجنسية) الذي صاغه البريطانيون، حيث وزعوا السكان العراقيين إلى فئتين في تبعيتها هما «فئة عثمانية» في

تبعيتها و (فئة ايرانية) في تبعيتها. مما يلغي أصلاً الأصل العراقي لسكان العراق، وقد أصبحت الفئة العثمانية تمثل السكان الأصليين للبلاد، وتُحد من بغداد إلى الشمال والغرب، أما الفئة الأخرى فتشملها مناطق بغداد إلى الجنوب والشرق، واستناداً إلى هذا التقسيم البريطاني كان يتم نفي المعارضة السياسية والدينية الشيعية إلى إيران، للتخلص من نفوذهم، وتأثيرهم في العراق، وهو الأساس الذي اتبعه بحذافيره نظام صدام منذ عام ١٩٦٩م، في تهجير السكان العراقيين العرب الذين كان الكثير منهم يعمل حتى في القطاعات العسكرية والتجارية والدينية، والثقافية الاجتماعية. وحتى الاكراد شملهم هذا التقسيم ولحقهم أخيراً التركمان والآشوريون، وجرد هذا القطاع الكبير من حقوق المواطنة، ومصادرة مستمسكاتهم وأموالهم للتخلص من ثقلهم الاجتماعي والسياسي والديني، ومن ارتباط العراق بتاريخهم الطويل وبتشكيلهم الهوية الوطنية والقومية والثقافية للبلاد.

وقد حاول صدام بعد حملات التهجير القسرية للعراقيين فتح الباب لبعض مواطني الدول العربية لأستيطانهم مناطق الجنوب لتغيير الخارطة العراقية ولرفع نسبة الطائفية بعد منحهم الجنسية العراقية على حساب العراقيين الأصليين.

نماذج من معاناة الشعب العراقي في عهد صدام:

وسأتعرض إلى بعض النماذج من آلام ومعاناة الأغلبية السكانية الشيعية على يد الحكم الصدامي وبمرأى من العالم الحر وجمعيات حقوق الإنسان ومجلس الأمن الدولي وغيرهم:

١ـ اقادام صدام على تدمير وابادة قرى ومدن الأهوار في جنوب العراق بالسلاح الكيمياوي، والحرق الشامل، والذي اودي بحياة الآلاف من أبناء القبائل الشيعية العربية وتشريد الآلاف منهم والقضاء على حياة تلك البيئة الفريدة التي تتمتع بعمق حضاري وانساني يعود إلى آلاف السنين.

٢ــ انتفاضة الجماهير العراقية ١٩٩١م، ورد فعل صدام ونظامه عليها وهو خاسر ومهان في حرب الخليج مع الكويت. انه قمعها بابشع الأساليب وراح ضحيتها أكثر من نصف مليون عراقي.

٣ـ حرب صادم مع الجارة المسلمة ـ الجمهورية الإسلامية الإيرانية ـ والتي راح ضحيتها ما يزيد على مليون قتيل ومعوق وجريح، والتي استمرت ثمان سنوات، اضافة إلى دمار البيئة، والبنية التحتية.

٤ــ فاذا ما اضفنا رقم الخسائر البشرية وغيرها إلى حصيلة خسارة حرب الخليج الثانية، تتكشف الحقيقة المروعة وهي ان قرابة اكثر من ملبونين من عرب الشيعة طحنتهم سياسة النظام العدوانية خلال عقد من الزمن بسلاح ودعم اوربي امريكي للقضاء على الشيعة في البلدين وفي العراق خصوصاً انتقاماً من موقف الشيعة في ثورة العشرين. وإذا ما دقّقنا في نسبة العرب الشيعة المشردين، والذين يعيش البعض منهم في المخيمات على الحدود في ايران وفي داخلها وفي سوريا اضافة إلى اولئك المهجرين والمهاجرين الفارين من ضيم النظام وفتكه، وحماية لحياتهم من قمعه واضطهاده، والمنتشرين في أرجاء العالم، تتضح لنا أبعاد المأساة المروعة التي لحقت بالشيعة العراقيين.

٥ـ نضيف إلى هذا انتهاك صدام وبشكل سافر ومنذ منتصف السبعينات لحرمة علماء المسلمين الشيعة وتشريع مبدأ اغتيالهم ومطاردتهم واعتقالهم وفقدانهم في سجونه، إلى انتهاك حرمة الجامعات العلمية، والمساجد، واحراق المكتبات، وبكل وقاحة واستهتار وبمرأى من العالم الإسلامي والعرب والغربي. وقد أعدم الكصير من علماء الدين وكبارهم حتى طالت يداه المراجع العظام، ولا زال الكثير منهم لا يُعرف عن مصير بعد اعتقالهم ومنذ أكثر من عشر سنوات.

٦ــ كما ان صداماً شتت جامعة النجف العلمية وحوزتها الدينية، ذات الألف عام من العمر، وهي احدى أربع جامعات عالمية اسلامية: جامعة القرويين في المغرب، والزيتونة في تونس، والأزهر

في القاهرة، والنجف الأشرف في العراق، هذه الجامعات التي أنمت الفكر العربي والإسلامي طوال سنوات عمرها الزاهر.

٧. ولم يكتف صدام بهذا بل اعتدى على المراقد المقدسة للإمامين علي بن ابي طالب عليه السلام في النجف الأشرف وابنيه الإمام الحسين وأخيه العباس عليهما السلام في كربلاء، حيث دكت صواريخه هذه المراقد المقدسة، وعمد إلى تغيير المعالم الحضارية والتراثية في المدينتين النجف الأشرف وكربلاء.

٨ ـ ولو تابعنا تلك الروح الطائفية البغيضة في نفس صدام لرأينا ابان الانتفاضة الشعبية في عام ١٩٩١م، والتي عبر فيها الشعب العراقي البطل عن رفضه القاطع لنظام صدام الدكتاتوري، كيف ان النظام ألغم ودمر أكثر من ١٢٠ مسجداً، في مدينة كربلاء، و١٣ مدرسة ومعهداً علمياً في النجف الأشرف، واحرقت أكثر من خمس مكتبات عامة في النجف الأشرف كانت تحوي نفائس المخطوطات والكتب الإسلامية، كما تمَّ هدم قبور المسلمين في المقبرة العامة في النجف الأشرف، وتدمير المعالم والرموز الشيعية في هذه المدن المقدسة. جاء كل ذلك منسجماً مع شعار النظام الصدامي، الذي رفعته قوات الحرس الجمهوري ابان دكها وقصفها لهاتين المدينتين النجف الأشرف وكربلاء المقدستين «لا شيعة بعد اليوم». ان رفع هذا الشعار على دبابات ومصفحات جيش صدام ودخوله المدينتين المقدستين وقصف المراقد المقدسة وقتل الآلاف من الأبرياء إلى جانب قتل الأبرياء في مناطق الجنوب الأخرى، وما هو إلاَّ بدافع الانتقام الطائفي وتحقيق المخطط الاستعماري البغيض، في حين لم تعترض أية دولة عربية أو اسلامية ـ عدا الجمهورية الإسلامية في ايران ـ أو اية دولة في عالمنا الحاضر، اضافة إلى اعتقاله المرجع الديني الأعلى للطائفة الإسلامية الشيعية الإمام الخوئي قدس سره ونقله إلى بغداد.

وكان العالم كلّه يشهاد تلك

العنجهية الصدامية واللامبالاة والاستهانة بالبشرية ترتسم على شفتيه! فماذا كان رد الدول الكبرى وغيرها، في الوقت الذي كانت النجف الأشرف أول من يسجل موقفاً في استنكارها واحتجاجاتها الدينية والوطنية في مناصرة شعوب العالم في كل مكان؟

الخاتمة:

ان النجف الأشرف شارك بجامعته العلمية وحوزته الدينية، وبكل ثقله وامكاناته الفكرية، المحن التي مرت بها شعوبنا العربية الإسلامية، وسجل في كل قضية مصيرية لهذه الأمة، طوال العقود المنصرمة موقفاً مشرفاً أملاه عليه الواجب الأخوي، والغيرة العربية، بداية من القضية الفلسطينية، ومروراً بالجزائرية، والتونسية، والمغربية، والسورية، والمصرية، وأخيراً الكويتية.

وسجل كل ذلك - بكل فخر واعتزا - في صفحات تاريخ هذا البلد العربي العراقي جهاداً، وفكراً ... ولكن - ويا للأسف - لم تعكس هذه المواقف المبدئية رد فعل مناسب وحجم هذه المأساة. فلم تنعكس صدى هذه المحنة لدى أخواننا العرب بما ينسجم وعمق المأساة، بل العكس فقد تركوا شعبنا المظلوم للحاكم ينفذ فيه مؤامراته دون رحمة أو رأفة، وبقي الأشقاء، والاصدقاء يرقبون العملية المأساوية وما من متحرك للإنقاذ.

ان الشيعة في عراقنا الحبيب عندما ثاروا قبل ثورة العشرين واستمروا في ثورة العشرين وما بعدها وطردوا المستعمر الانكليزي شرّ طردة من بلاد الرافدين فاشترك الشعب مع قيادته العلمائية المتمثلة بالمرجعية الرشيدة ... دفعوا ثمن ذلك العمل البطولي حيث نفذ ما سنّه الإنكليز من دستور طائفي بغيض مدركين ان كل حاكم يستلم زمام الحكم في العراق يسارع إلى تطبيق الدستور ليتجاهل الأغلبية السكانية في الوقت الذي يصرح الملك فيصل الأول مؤسس الدولة العراقية في مذكرته التي اصبحت وصية بعده بقوله: «ان الضرائب على الشيعي، والموت على الشيعي،

والمناصب للسني، ما الذي هو للشيعي؟»[٥١].

ان سياسة التمييز الطائفي، والتي هي اليوم تجسيد واقعي للطائفية السياسية لنظام الحكم في العراق منذ تشكيل الدولة العراقية في العشرينات من قرننا هذا والتي صورت الغالبية العربية من سكان العراق بمظهر «الأقلية» لتبرير اضطهادها سياسياً ودينياً وثقافياً، بالرغم من مساهمتها الفاعلة، والجادة في بناء العراق ... ادى ذلك إلى أن يعيش هؤلاء أوضاعاً شاذة واستثنائية.

وللتأكيد على ما يُعامل به جنوب العراق ووسطه امتداداً من مدينة النجف الأشرف وانتهاءً في مدينة البصرة مروراً على بغداد وضواحيها .. ما سمعنا ورأينا ما حلّ بأهوار العراق واستنهضنا همم المجتمعات الدولية بالاضافة للعربية والإسلامية واستغثنا لمساعدتهم، وكأن شيئاً لم يكن، قتل ابناء الأهوار بأفتك الأسلحة المحرمة، وشرّد آلاف ... فلا عين رأت، ولا أذن سمعت!!

ان قرارات الأمم المتحدة منها ما يُنفذ فور اقرارها ومنها ما يوضع على الرف رغم اهميتها وضرورتها. منذ غزو صدام للكويت في ١٩٩٠/٨/٢م وقف المجتمع الدولي في وجه صدام، وظهر ذلك بجلاء في قرارات الأمم المتحدة التي وصلت قرابة الثلاثين قراراً، ومن أجل تحديد نقاط الخلل، وعدم التوازن في السياسة الدولية تجاه شعبنا المضطر نستدرج المفارقة التالية بين قرارين صدرا عن المجلس الدولي في فترة متقاربة واحدة وضمن اجراءات مماثلة كمثل بسيط عن حديثنا هذا:

الأول: قرار ٦٨٧ الصادر في ٢ نيسان ١٩٩١م والذي يُعتبر اطول قرار تصدره الأمم المتحدة منذ تأسيسها، تناول تدمير الأسلحة العراقية الكيمياوية والبايولوجية، والصواريخ، ومسألة العقوبات والتعويضات، كما تناول معالجة عواقب الحرب المدمرة. أما مرتكب الجريمة صدام التكريتي فيبقى طليق اليد، يقتل ويسجن ويشرد ويعبث في أرض الرافدين وجوارها فساداً، ويهدد المنطقة ويختلق بين فترة

واخرى حرباً، ويهدد كيان دول ... كل ذلك ولم يشر القرار إليه بشيء !! اوجد حاكماً منذ البداية لينفذ أوامر أسياده وبالذات مسخ الهوية العربية الشيعية، ويحقق لأسياده ما يصبون إليه.

ان الإدارة الدولية بذلت اهتماماً كبيراً في تنفيذ هذا القرار، وقد اسندت مهمة تنفيذه مبدئياً إلى السفير - رالف اكيوس - من ادارة الأمم المتحدة - بصفة الرئيس التنفيذي للجنة الخاصة التابعة للأمم المتحدة المكلفة بازالة الأسلحة العراقية المحظورة - ومنذ صدور القرار وحتى استقالته، وتعيين السفير بتلر محله زارت اللجنة العراق اكثر من سبعين بعثة من الأمم المتحدة لتنفيذ بنود القرار، وامتلكت تلك البعثات الصلاحيات الواسعة في الوصول وتفتيش أي منطقة في العراق دون أي مانع، ولم يستطع العراق من الوقوف امام هذا الموقف الدولي، والامتناع من الاستجابة إليه بل انصاع ممتثلاً اوامره بكل مذلة، رغم ما فيها من غمط لحقوق العراق إذ كان بالامكان الاستفادة من بعض هذه المؤسسات للصالح العام العراقي، بان تتحول إلى طاقة يستفاد منها في المجالات الإنسانية والعلمية، اضافة إلى ذلك فقد تكلف تنفيذ هذا القرار مليارات من الدولارات تحملها شعب العراق المظلوم.

الثاني: قرار ٦٨٨ الصادر في ٥ نيسان ١٩٩١م، وهو القرار الوحيد الذي انتصر لجانب الشعب العراقي، والذي ينص على ضمان حقوق الإنسان في العراق، ويدين القمع الذي يتعرض إليه من قبل النظام.

وفي صيف ١٩٩١م عُين «فن دير شتويل» وزير الخارجية الهولندي السابق مقرراً خاصاً لحقوق الإنسان في العراق، ومنفذاً للقرار ٦٨٨، وبذل جهداً في مهمته الإنسانمية محققاً وباحثاً عن انتهاكات حقوق الانسان في العراق. فمنذ صدور هذا القرار وحتى يومنا هذا زارت العراق بعثتان، ومثيلها لدراسة انتهاكات النظام للاجئين العراقيين في الجنوب والشمال، ويقدم تقريره المفصل عن انتهاكات حقوق الانسان في العراق، كلما سنحت له الفرصة في كل اجتماع

للأمم المتحدة مدعماً تقريره بالأدلة والوثائق مضيفاً توجيهاته وتوصياته العديدة لحماية حقوق الإنسان من قمع النظام وابادته، وكانت من أهم تلك التوصيات:

أ) ضرورة انتشار المراقبين الدوليين في كافة انحاء العراق، وقد اقتراحه في شباط ١٩٩٢م ووافقت الجمعية العمومية على الاقتراح بالأغلبية، وذلك للحد من اعتداءات السلطة على المواطنين.

ب) في نوفمبر ١٩٩٢م لفت المقرر الخاص انتباه العالم إلى الكارثة البيئية التي لحقت بالأهوار نتيجة استمرار النظام في عمليات التجفيف الواسعة، وتدمير حضارة قديمة يمتد عمرها إلى آلاف السنين، وتهجير سكانها المستوطنين منذ عشرات السنين أو اكثر إلى المناطق لم يألفوها ولم يتمكنوا من العيش فيها لأسباب بيئية.

ج) في شباط ١٩٩٤م حدد (فان دير شتويل) وشخص مسؤولية الجرائم التي ارتكبت تجاه الشعب العراقي برأس النظام، وطالب بمحاكمته كمجرم حرب. والغريب جداً ان الأمم المتحدة لم تنفذ أياً من الاقتراحات الخاصة بالحد من ارهاب وقمع النظام تجاه الشعب الذي يحمله قرار ٦٨٨.

سؤالنا وسؤال شعبنا الذي يرتسم على شفاه الملايين من العراقيين وغير العراقيين من اصحاب الضمائر الحية ! لماذا جندت الأمم المتحدة كل امكانياتها لتنفيذ قرار ٦٨٧، واهملت متابعة قرار ٦٨٨ الخاص بالشعب العراقي؟!! أو لماذا نفذ قرار ٦٧٨ بحذافيره وجندت له الأمم المتحدة كل الامكانيات؟! نستنتج من متابعة الأمور:

١ـ إن الأمم المتحدة وقفت مكتوفة اليدين في انتفاضة الشعب العراقي (آذار ١٩٩١م) والتي شجعها رئيس التحالف الدولي الرئيس جورج بوش، فلم تصدر الأمم المتحدة قراراً تحفظ به حقوق الإنسان في العراق من الكارثة المأساوية التي جابهها الثوار العراقيون من انقضاض النظام عليهم، في الوقت الذي يرى فيه جيش الحلفاء وبقيادة شوارزكوف آلاف المنتفضين يتساقطون

قتلى برصاص صدام وبطائراته التي أجازوا له استعمالها، وهي ترمي أنواع القنابل عليهم.

٢. خلو كل القرارت المتعددة الصادرة من المنظمة الدولية بعد الانتفاضة المجيدة، وخاصة قرار مجلس الأمن الدولي ٦٨٧ من تحديد مسؤولية مفجر الحربين الإيرانية والكويتية، ومحاكمة المعتدي، وأبقي مرتكب الجريمتين طليقاً حراً يمارس كل أساليب القمع والاضطهاد مع الشعب العراقي، وبكل حريته، دون رادع أو محاسب.

٣. لم تضع الأمم المتحدة آلية تطبيق الحظر الاقتصادي المفروض على العراق ليقصر ضرره على النظام دون الاضرار بالشعب، وتركته ليصبح ضرره على الشعب أكثر بكثير جداً من ضرره على النظام.

ومن هذا كله يتضح ان هناك تناقضاً واضحاً بين المصالح الدولية ومصالح الشعوب، مما يجعل سياسة المنظمة الدولية في ظروف الهيمنة (الأحادية) غير متوازنة، ويبدو ان احد أسباب ذلك هو «غربة الشعوب» وعدم وجود التضامن في وحدة الموقف العام لنصرة الشعوب المضطهدة.

وبهذا الجهد اليسير من البحث في أهمية النجف الأشرف ودورها المشرف في ثورة العشرين وما تلاها من الحركات والانتفاضات، أسال الله تعالى أن يأخذ بيد شعبنا العراقي البطل لما فيه خيره وصلاحه في اختياره حكومة شرعية وطنية ينتخبها ابناؤه البررة من بين رجالاته المجاهدين وان يعيد للنجف الأشرف وكربلاء والكاظمية وسامراء، المدن المقدسة في عراقنا الحبيب كرامتها وعزّتها بعد هذا الشوط الطويل من الجهاد وللمراجع العظام والعلماء الأعلام والشعب المجاهد عزتهم وحريتهم وكرامتهم، انه سميع مجيب.

الهوامش

(١) راجع محمد بحر العلوم: الدراسة وتاريخها في النجف / موسوعة العتبات المقدسة ـ جعفر الخليلي ـ قسم النجف، ج٢، طبع بيروت ـ دار التعارف ١٩٦٦م.

(٢) قد خفُت بريق النجف الأشرف بعد الطوسي وبزغ نجمها مرة أخرى في القرن التاسع والعاشر الهجري، وقد ذكر الكاتب ذلك في الصفحة ٢٢٨ بقوله: «وازدهرت النجف ثانية بعد ...» [اللجنة].

(٣) لا شك ان انتقال السيد بحر العلوم ﷺ إلى النجف الأشرف قد أعطاها زخماً قوياً وفتح عهدها الجديد غير ان ذلك لا يعني الإحكام التام حيث كانت مدرسة كربلاء بما فيها من أفذاذ منهم شريف العلماء المازندراني استاذ الشيخ الأنصاري ومن بعده من كبار الفقهاء والأعلام [اللجنة]

(٤) دائر المعارف الإسلامية الشيعية، ج٣/ ص: ٤١٥.

(٥) مصدر سابق، الدكتور السيد محمد بحر العلوم / موسوعة العتبات المقدسة، ج٢.

(٦) السيد مصطفى جمال الدين، مقدمة الديوان، ص: ١٣ ـ ٢٧.

(٧) ديوان علي الشرقي، ص١٥ ـ ١٦، طبع بغداد.

(٨) محمد جواد مغنية: امامة علي والعقل، ص: ٤٨.

(٩) ضياء الدين زين الدين: علي في التزام الحق، ص: ٣٣١.

(١٠) المستدرك (م . س)، ٣: ١٢: ١٢٨، والذهبي في تلخيص المستدرك، ج٣/ ص: ١٢١، وابن عساكر في الترجمة، ج٢/ ص: ١٨٨، ٢٦٦، ٢٦٨.

(١١) كنز العمال (م . س)، ج٦/ ص: ١٥٥ (حديث ٢٥٧٨)، وفي المنتخب، ج٥/ ص: ٣٢ والحاكم في المستدرك، ج٣/ ص: ١٢٨.

(١٢) السيد حسن الأمين: دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ج٣ / ص: ٤١٤. والدكتور السيد بحر العلوم في موسوعة العتبات المقدسة، قسم النجف، ج٢/ ص: ٢٨ ـ ٣٢.

(١٣) د. عبد الهادي الفضلي: تاريخ التشريع الإسلامي، ص: ٣٣٣ ـ ٣٣٤.

(١٤) المصدر السابق، ص: ٣٩٩.

(١٥) المصدر السابق، ص: ٤٠١.

(١٦) حسن شبر: العمل الحزبي في العراق، ج١ / ص: ٧٤.

(١٧) المصدر السابق، ج١ / ص: ٦١.

(١٨) المصدر السابق، ج١/ ص: ٦٣.

(١٩) مذكرات السيد محمد علي كمال الدين من رجال الثورة العراقية، ص: ١٠٠.

(٢٠) مذكرات السيد محمد علي كمال الدين من رجال الثورة العراقية، ص: ٢٨٤.

(٢١) المصدر السابق، ص: ٢٨٧.

(٢٢) المصدر السابق، ص: ٢٩٩.
(٢٣) عبد الرحيم الرهيمي: تاريخ الحركة الإسلامية في العراق، ص: ١٦٥.
(٢٤) مذكرات السيد محمد علي كمال الدين من رجال الثورة العراقية، ص: ٢٥ ـ ٢٧.
(٢٥) حليم أحمد: موجز تاريخ العراق الحديث، ص: ٦٢.
(٢٦) عبد الرزاق الحسني: الثورة العراقية الكبرى، ص: ٨٠.
(٢٧) عبد الرزاق الحسني: الثورة العراقية الكبرى، ص: ٨٤.
(٢٨) عبد الرزاق الحسني: الثورة العراقية الكبرى، ص: ٤٠.
(٢٩) عباس محمد كاظم: ثورة الخامس عشر من شعبان (ثورة العشرين)، ص: ١٩٦.
(٣٠) المصدر السابق، ص: ١٩٦.
(٣١) حسن العلوي: الشيعة والدولة القومية في العراق، ص: ٨٨.
(٣٢) المصدر السابق، ص: ٩٣.
(٣٣) حسن العلوي: الشيعة والدولة القومية في العراق، ص: ٩٤.
(٣٤) عبد الحليم الرهيمي: تاريخ الحركة الإسلامية في العراق، ص: ١٨٩.
(٣٥) المصدر السابق، ص: ١٩٠.
(٣٦) عبد الرزاق الحسني: الثورة العراقية الكبرى، ص: ٨٠.
(٣٧) د. علي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج٥/ ص: ٢٠٥.
(٣٨) عبد الرزاق الحسني: الثورة العراقية الكبرى، ص: ٢٦٤.
(٣٩) المصدر السابق، ص: ٢٤٩.
(٤٠) عبد الرزاق الحسني: الثورة العراقية الكبرى، ص: ٢٥١.
(٤١) ل. ن كونلوف: ثورة العشرين الوطنية التحررية في العراق، ص: ٢٦٧.
(٤٢) المصدر السابق، ص: ٢٧٠.
(٤٣) مرفق ميثاق النجف لحركة ١٩٣٥م. وللوقوف على نصه يراجع: ج٤/ ص: ١٠١ من تاريخ الوزارات العراقية لمؤلفه عبد الرزاق الحسني، الطبعة الخامسة الموسعة.
(٤٤) عدنان ابراهيم السراج، الإمام محسن الحكيم، ص: ٢٠٣.
(٤٥) المصدر السابق، ص: ٢٠٣.
(٤٦) المصدر السابق، ص: ٢٠٣.
(٤٧) المصدر السابق، ص: ٢١٩.
(٤٨) عبد الكريم الأزري: مشكلة الحكم في العراق، ص: ١٤٤.
(٤٩) المصدر السابق، مذكرة الملك فيصل الأول.
(٥٠) من محاضرة لسماحة الدكتور السيد محمد بحر العلوم
(٥١) عبد الكريم الأزري: مشكلة الحكم في العراق، ص: ٤.

د. عبد الهادي الحكيم
أكاديمي وأستاذ في جامعة الكوفة

حوزة النجف الأشرف
النظام ومشاريع الإصلاح

(القسم الأول)

تعدّ الحوزة العملية الوسط العلمي المنتج والحاضن معاً للساعين إلى الخروج من عهدة التكليف الإلهي بالنفر الوارد في قوله تبارك وتعالى في محكم كتابه المجيد: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1] من الباذلين جهدهم للتخلق بأخلاق الإسلام وآدابه سواء أكانوا علماء ومبلغين أم معلمين ومتعلمين أم مفسرين ومؤرخين أم من غيرهم من السالكين إلى الله والداعين إليه خطباء كانوا أم وكلاء أم مبلغين أم من حذا حذوهم واقتدى بسنتهم متفقها في الدين تارة ومنذرا ومبلغا أخرى، متأدبا بآداب الإسلام الكريمة وأخلاقه السامية.

المبحث الأول

مصطلح الحوزة العلمية

يحسن بي أن أبدأ حديثي بتحديد مصطلح (الحوزة العلمية) بعد أن تداولته وسائل الإعلام المختلفة وفسرته بعضها عن قصد أو بدونه على هواها، وبخاصة إثر بروز مدينة النجف الأشرف ومرجعيتها الدينية كصانعة لحدث كبير في العراق، وحاضرة حضوراً فعلياً خارجه مما لا يمكن تجاوزها أو تخطيها بحال من الأحوال.

تعدّ الحوزة العملية الوسط العلمي المنتج والحاضن معاً للساعين إلى الخروج من عهدة التكليف الإلهي بالنفر الوارد في قوله تبارك وتعالى في محكم كتابه المجيد: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1] من الباذلين جهدهم للتخلق بأخلاق الإسلام وآدابه سواء أكانوا علماء ومبلغين أم معلمين ومتعلمين أم مفسرين ومؤرخين أم من غيرهم من السالكين إلى الله والداعين إليه خطباء كانوا أم وكلاء أم مبلغين أم من حذا حذوهم واقتدى بسنتهم متفقها في الدين تارة ومنذرا ومبلغا أخرى، متأدبا بآداب الإسلام الكريمة وأخلاقه السامية.

والحوزة العلمية في الوقت نفسه ذراع المرجعية والوجود الرابط أو الحلقة الموصلة بين المرجع الديني المجتهد ومقلّده، والحكم الشرعي ومتبعه، والعالم بأصول الشريعة وفروعها والمتعلم.

وهي تعني أيضاً فيما تعنيه: مركز التعليم الديني الذي يتبع في طريقة تعليمه النهج الذي تربى عليه الفقهاء السابقون منذ العصور الإسلامية الزاهرة وحتى

العصر الحاضر، متخذة من نظام الحلقات في الغالب شكلاً لها، ومتبعة نظام الدراسة التامة بأن يبحث الموضوع ثم يعاد بحثه في كتب لاحقة متعاقبة مع توسعة متدرجة، متخذة من شرح عبارة الكتب المقرر وتحليلها والغوص في مداليلها ومعانيها طريقة التدريس، متيحة للطالب الحرية المطلقة في المناقشة، مانحة إياه الفرصة المثلى لأختيار الأستاذ الذي يشاء، وتحديد الزمان والمكان للدرس بالأتفاق بينهما عليه، ساعياً طالبها من وراء دراسته نيل رضا الله عز وجل في دنياه وآخرته، مبتغيا تحصيل المعارف الشرعية زاهدا بملذات الدنيا الفانية وزخارفها، أو هكذا هو المفترض بالحوزوي، بيد أن ذلك لا يعني بحال من الأحوال صدق انطباق عنوان نية الله عز وجل والإخلاص والواقعية والتجرد والزهد وإستفراغ الوسع في البحث والدراسة والعلم والعمل على جميع الحوزويين طلاباً وغير طلاب.

المبحث الثاني

موجز من تاريخ حوزة النجف الأشرف

لئن أختلف المؤرخون في تحديد أوائل العمر الزمني الناضج للحركة العلمية الدينية في النجف الأشرف، فإنهم يتفقون أيا كانت آراؤهم على أن مدينة النجف الجامعة كانت حاضرة للعلم وحاضنة له، يؤمها الطلاب ويقصدها المتعلمون للتزود بالعلم والمعرفة والبحث والتحقيق بعد عام (٤٤٨) هجرية زمن هجرة شيخ الطائفة وصاحب كرسي الكلام وأحد الرواد الأوائل لعلم الفقه المقارن ومؤلف الكتب الثمانين في الفقه والتفسير والأصول والرجال وغيرها الشيخ محمد بن الحسن الطوسي المتوفى عام[٣] (٤٦٠) هجرية وانتقاله شبه القسري من بغداد إلى النجف الأشرف إثر اقتحام داره وإحراق كتبه ابان فتنة طائفية بين المسلمين شيعة وسنة أشعلها وأورى زنادها ببغداد حاكمها طغرل بك السلجوقي أول دخوله لبغداد، فاختلطت جراء فتنته الطائفية دماء أبناء بغداد

ومداد حبرهم وعقلانية أفكارهم كلها في شوراعها وأزقتها ونهر دجلتها التي مزج ماؤها بين حمرة الدم القاني وسواد مداد الكتب مما ألقي فيها منها، وقد أدى التعصب الطائفي المقيت إلى إحراق أعظم مكتبة إسلامية شيعية يومها هي مكتبة (دار العلم) التي ضمت بين دفتيها وفوق رفوفها أكثر من عشرة آلاف مجلد في مختلف العلوم والآداب والفنون بعد جلبها بمشقة وتعب من مختلف الأقطار والبلدان حتى وصفها المؤرخ والجغرافي المعروف ياقوت الحموي بقوله «لم يكن في الدنيا أحسن كتبا منها، كانت كلها بخطوط الأئمة المعتبرة وأصولهم المحررة»[٣]، كما أدى الهجوم الوحشي الطائفي على دار الشيخ الطوسي ببغداد الى احراق كرسيه، كرسي الكلام الذي لا يتبوؤه في العادة إلاّ الباحث الأعلم من بين علماء عصره الكثر، ولم يكتف المتعصبون بذلك، ولم يشف غليلهم ما سفكوه من دماء ولا ما بعثره من أشلاء، بل عمدوا زيادة في الإيذاء إمعانا في محاربة الرأي الآخر إلى حرق ونهب تصانيف الشيخ الطوسي الكثيرة وإشعال النار في مكتبته العامرة.

إن هجرة الشيخ الطوسي القسرية من بيته العامر بكرخ بغداد إلى مثوى الإمام علي عليه السلام في النجف الأشرف وما تبعها من انتظام الدراسة على شكل حلقات للبحث والتدريس ومن إملاء شيخ الطائفة لدروسيه جوار قبر أمير المؤمنين عليه السلام وما نتج عن تلك الحلقات الدراسية من معارف جمة ثم ما ضمه كتاباه المهمان: (اختيار الرجال) في علم الرجال الذي بدأ بإملائه على تلامذته في النجف الأشرف ابتداء من سنة ٤٥٦ هجرية، و(شرح الشرح) في علم أصول الفقه وغير ذلك من إبداعات شيخ الطائفة العلمية والفكرية المتنوعة، شكلت بمجموعها البداية الأكثر نضجا لتأسيس جامعة النجف الأشرف الدينية[٤] حيث «أصبحت الحوزة العلمية الفتية في النجف تربو على المئات من رواد الفضيلة والعلم والطلبة الناشئين والمؤلفة على حد رأي بعض المصادر من أولاده

وبعض أصحابه ومجاري القبر الشريف وأبناء البلاد القريبة منها كالحلة ونحوها، وبرز فيها العنصر المشهدي نسبة إلى مشهد العلوي والعنصر الحلي وتسرب التيار العلمي منها إلى الحلة»[٥] كما «ذكر تاريخيا أن هذا الشيخ العظيم خرّج من تحت كرسي درسه أكثر من ثلاثمائة مجتهد»[٦].

ولم يترك شيخ الطائفة الطوسي حوزة نجفه إلاّ وعليها أبرز تلامذته ولده الشيخ أبو علي الحسن بن محمد بن الحسن الذي «خلف أباه على العلموالعمل والتقدم على العلماء في النجف وكانت الرحلة اليه والمعول عليه في التدريس والفتيا وإلقاء الحديث وغير ذلك وكان من مشاهير رجال العلم وكبار رواة الحديث وثقافتهم وقد بلغ من علوّ الشأن وسموّ المكانة أن لقب بالمفيد الثاني»[٧] يقول ابن حجر «ثم صار فقيه الشيعة وإمامهم بمشهد علي رضي الله عنه وهو في نفسه صدوق مات في حدود خمسمائة وكان متديناً»[٨] مشهودا له بالفقه والحديث والرجال اليه تنتهي أكثر الإجازات عن شيخ الطائفة الطوسي كما كان حريصا على إتمام المهمة أبيه الشيخ في رعاية حوزتها الناشئة وتنظيم مناهجها الدراسية وتنشئة جيل من العلماء والعاملين والمبلغين من الخاصة والعامة عدّ منهم «الشيخ منتجب الدين بن بابويه أربعة عشر رجلا وأضاف الشيخ أغا بزرك الطهراني ستة عشر شخصا كما ذكر ابن حجر العسقلاني في لسان الميزان ثلاثة أشخاص من العامة فيكون مجموع أربعة وثلاثين شخصاً»[٩] كما ترك كتابا نافعا أسماه «شرح النهاية» هو شرح لكتاب والده شيخ الطائفة الموسوم بـ «النهاية» في علم الفقه.

وما أن انتقل الشيخ ابن الشيخ إلى لقاء ربه راضيا مطمئنا حتى تولى الأمر من بعده ولده الشيخ محمد بن الحسن بن أبي علي بن أبي جعفر الطوسي[١٠] فكان في النجف الأشرف بعد أبيه وجده «شيخ الشيعة وعالمهم وابن شيخهم وعالمهم، رحلت اليه طوائف الشيعة من كل جانب الى العراق وحملوا اليه وكان ورعا عالما كثير الزهد أثنى عليه

السمعاني وقال العماد الطبري: لو جازت على غير الأنبياء صلاة صليت عليه»[11] فشهدت النجف وحوزتها بوجوده نشاطا علميا ملحوظا حيث تخرج على يديه كثير من حملة العلم الحديث من الفريقين ثم حين قيض له الله أن يرحل عن هذه الدنيا الفانية ليلتحق بجده وأبيه في سنة (٥٤٠) هجرية على الأغلب خلّف عليها الشيخ عماد الدين الطبري تلميذ أبيه وأحرص من الفقهاء الثقاة على حوزة النجف وأكثرهم قابلية وأكفؤهم قدرة على النهوض بمهامها وتحمل مشاق إدارتها.

وقد أرخ رئيس المجمع العلمي العراقي العلامة الشيخ محمد رضا الشبيبي المتوفى سنة (١٣٨٥)هجرية[12] للنجف الجامعة فقال: «مازالت النجف من أكبر عواصم العلم للشيعة وهي أكبرها منذ نحو قرنين، وما انفكت من أول ما خططت مأوى كثير من فقهاء الشيعة ومتصوفيهم وزهادهم، وما عبر عليها عصر خلت فيه من عالم أو أديب، غير أن لها عصورا معروفة حج اليها الناس فيها من أجل التعلم والتفقه، ورأس على رأس كل عصر منها إمام واحد أو أكثر من مشاهير أئمة الشيعة أقدمها عصر أبي جعفر الطوسي على أثر هجرته إلى النجف الأشرف وإقرائه فيها الناس وشدّهم الرحال إليه في منتصف القرن الخامس. ثم عصر عماد الدين الطبري النجفي تلميذ أبي علي الطوسي في منتصف القرن السادس[13]، وفي هذا العصر زاحمت الحلة السيفية النجف من الجهة العلمية وصارت اليها رحلة الشيعة نحو ثلاثة قرون، ففتر الناس عن الرحلة الى النجف من تلك الجهة مدة طويلة أي منتصف القرن السادس حيث عصر إبن إدريس[14] وسديد الدين الحمصي[15] في الحلة إلى منتصف القرن التاسع حيث عصر إبن فهد الحلي[16] فيها، وهو آخر عصورها المشرقة».

على أن حوزة النجف الأشرف لم تنتقل ولم تطفأ جذوتها وإن كانت فترت فتورا ملحوظا، «فقد ظهر فيها طوال هذه الفترة طائفة من العلماء المشاهير

سواء كانوا ممن خرّجتهم المدينة نفسها أو ممن جاوروا فيها حتى جاز لنا أن نطلق عليهم (علماء الفترة في النجف)[١٧]. ثم لمّا هرمت الحلة وانقضى عهدها العلمي عاودت حوزة النجف نشاطها من جديد فدارت فيها رحى العلم دورتها الحيوية بالعلم والعمل واتصلت أو كادت حلقات عصورها العلمية من اول القرن العاشر – أي منذ سنة ٩٠٠هـ تقريبا إلى الآن — فكان أولها عصر الشيخ علي بن عبد العالي الكركي المحقق المشهور ومعاصره الشيخ إبراهيم القطيفي .. ثمّ عصر الشيخ عبد النبيّ الجزائري .. ثمّ عصر الشيخ حسام الدين النجفي، فعصر الشيخ فخر الدين الطريحي .. ثمّ عصر أبي الحسن الشريف ومعاصريه، فعصر الفُتوي، فعصر الطباطبائي، فعصر الشيخ جعفر الكبير، فعصر ابن الشيخ، فعصر صاحب الجواهر، فعصر الشيخ مرتضى الأنصاري، فعصر تلامذة الأنصاري وغيرهم .. فهذه حلقات هذه السلسلة من العصور الآخِذِ بأطرافِ بعض. وقد تكونت في أثنائها أشهر الأُسَر المعروفة بالعلم والأدب، وكآل الخمائسي وآل الطريحي وآل الجزائري وآل محيي الدين وآل البلاغي وآل الطباطبائي وآل الشيخ جعفر وآل النحوي وآل الأعسم وآل الجواهر وآل القزويني وآل القفطان وآل الشيخ راضي، وسواهم من البيوتات المعروفة والمندرسة»[١٨]

وقد ترجم بعض الباحثين[١٩] لعلماء جامعة النجف الأشرف خلال القرون الماضية فكان الذين عثر على أسمائهم من علمائها ومؤلفيها خلال النصف الثاني من القرن السادس الهجري (٨٠) عالما تقريبا ثمن هذا العدد مؤلفين في التفسير والحديث والعشر. وقد انخفض هذا العدد الى (١٣) عالما في القرن السابع الهجري ثم عاد ليرتفع في القرن الثامن الى (١٩) عالما، حيث نشطت الحركة العلمية بعد الفتور السابق حيث كتب في هذا القرن حيدر بن علي بن حيدر الآملي الذي جاور أمير المؤمنين عليه السلام ثلاثين عاما كتابه الرائد في تفسير القرآن من وحي الفلسفة والعرفان وسماه (المحيط الأعظم) في سبع مجلدات إضافة إلى ما

تركه الآملي من كتب أخرى في الفلسفة والأخلاق والعرفان كما كتب في هذا القرن علي بن محمد بن علي الكاشي في علم الكلام والمنطق والفقه والجغرافيا وكتب الباحثان عبد الله بن محمد بن علي الأعرج الحسيني ومحمد بن علي الجصاني كتبا في علم أصول الفقه وألف الأخير أيضا في الفلسفة والفقه والكلام وصنف محمد بن علي الجرجاني الغروي كتبا كثيرة في معظم حقول المعرفة، وحبّر عبد الرحمن بن محمد العتائقي كتبه في الرياضيات والجغرافيا والطب فكانت كتبه (الإرشاد في معرفة الأبعاد) و(الرسالة الفريدة في الأدوية الفريدة) و(شرح حكمة الأشراف) و(التصريح في شرح التلويح) في الطب من الكتب المهمة التي ألفت في هذا العصر.

وما أن حل القرن التاسع الهجري حتى بلغ عدد العلماء والباحثين الذين تم إحصاؤهم فيه (٣٠) عالما وكاتبا ومؤلفا منهم الحسن بن محمد الإستراباذي مؤلف كتاب (معارج السؤل في تفسير خمسمائة آية من آيات الأحكام، والشيخ جعفر الحبلرودي المؤلف في علوم المنطق والعقائد والمقداد السيوري المصنف في الفقه والعقائد والحديث والسيد علي بن عبد الكريم الحسيني النجفي الكاتب في التفسير والعقائد والأخلاق والرجال.

وفي تطور ذي مغزى علمي واضح شيّد المقداد السيوري مدرسته الدينية لإيواء طلاب العلوم الدينية الوافدين على النجف الأشرف للدراسة.

أما في القرن العاشر الهجري فقد ارتفع عدد العلماء بشكل كبير لما للحركة العلمية التي أدارها الشيخ علي بن العلي الكركي من أثر ملحوظ في ذلك حيث تجاوز عدد علماء القرن العاشر في حوزة النجف الأشرف إلى (٧١) عالما منهم ابن بدر الدين الحسن الحسيني الغروي من أجلاء تلاميذ المحقق الكركي ومؤلف كتابي: (كدّ اليمين وعرق الجبين) و(ترجمة الرسالة الجعفرية) ومن هؤلاء العلماء أيضا الشيخ إبراهيم بن سليمان القطيفي

مؤلف كتاب (الهادي إلى الرشاد في شرح الإرشاد) والعديد من المؤلفات الأخرى وكذلك الشيخ أحمد أبي جامع العاملي من تلاميذ المحقق الكركي ومؤلف كتاب (الوجيز ف تفسير الكتاب العزيز) والشيخ أحمد بن محمد بن خاتون من تلاميذ المحقق الكركي أيضا وكذلك العالم حسن الفتال النجفي.

وفي القرن الحادي عشر الهجري نشطت حلقات البحث والتأليف والتحقيق في الفقه والأصول كما نشطت في ظلهما الحركة العلمية في علوم أخرى مصاحبة حيث صنف العديد من علماء حوزة النجف الأشرف التي تجاوز تعدادهم في هذا القرن (١٥٩) عالما كتبا في علوم الحساب والطب واللغة والرجال والتاريخ من ذلك مثلا ما كتبه إبراهيم بن نصير الدين الرضوي في (خلاصة الحساب) وما ألّفه الشيخ حسين أبي جامع في الطب وإبراهيم بن عبد الله في (مشيخة الاستبصار) وما خطه يراع السيد أبي طالب في كتابه (لوامع النجوم) في اللغة وما ديجه الشيخ حبيب إبراهيم النجفي في كتابه (أنيس الملوك) في التاريخ.

وهكذا بدأ أعداد علماء الحوزة النجف الأشرف تزيد باطّراد بمرور السنين والأعوام حتى بلغ عدد من أحصي منهم في القرن الثاني عشر الهجري (٢١١) عالما ثم ازداد عدد علمائها ثانية فبلغ من أحصي منهم في القرن الثالث عشر الهجري (٢٨١) عالما أما في القرن الرابع عشر الهجري فقد ارتفع عدد علمائها ارتفاعا ملحوظا حيث بلغ عددهم حدود (٥٣٤) عالما وفقيها ومفسرا ومحدثا ورجاليا وحكيما واصوليا وغيرهم من الباحثين والمؤلفين في شتى صنوف علوم الشريعة والعلوم المصاحبة الأخرى.[٢٠]

إن إلقاء نظرة فاحصة على أدوار تقدم البحث المعرفي في حوزة النجف الأشرف منذ سنة ٩٠٠ هجرية إلى اليوم توحي للناظر إليها أنها مرت بأدوار ثلاثة هي:

الدور الأول: دور تقدم البحث المعرفي في حوزة النجف الأشرف

تعاقبت على جامعة النجف الأشرف العلمية - أسوة بالجامعات والمعاهد العلمية العريقة الأخرى. فترات تقدم علمي وأزدهار، أعقبتها – لظروف خاصة – فترات تباطؤ معرفي وفتور علمي سرعان ما تلتها أدوار رقي وانبعاث بفعل فتح باب الأجتهاد على مصراعيه في مدرسة النجف الأشرف العلمية. ولعل ما قدمته آنذاك زعامة الشيخ علي بن عبد العالي الكركي – المعروف بالمحقق الثاني المتوفى في يوم الغدير من عام ٩٤٠ هجرية كما أسلفت، صاحب كتاب (جامع المقاصد في شرح القواعد) – للحوزة العلمية النجفية بخاصة، وللحوزة العلمية بعامة من نهوض فكري واعد يعدّ بحق ملمحا من ملامح تطور معرفي قادم وتباشير نهوض فكري منتظر.

ويعد كتابه (جامع المقاصد) وهو شرح استدلالي كبير لكتاب (القواعد) للعلامة الحلي[٢١] المتوفى عام (٧٢٦) هجرية من أهم ما ألف في تلك الفترة، وقد وصل عدد أجزائه حديثا حتى نهاية كتاب الوصايا ثلاثة عشر مجلدا مما يكشف عن سعة الكتاب وكثرة مباحثه، وقد نقل المحدث النوري وصاحب الكتاب الموسوعي في الفقه (جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام) قوله: «إن من كان عنده كتب: كتاب المقاصد، والوسائل، والجواهر، لا يحتاج بعدها إلى كتاب آخر للخروج من عهدة الفحص الواجب على الفقيه في آحاد المسائل الشرعية» ولعل أهم ما يتقدم به كتاب جامع المقاصد عما سبقه مما ألف في علم الفقه قوة استدلاله العلمي وعمق مباحثه، ولا زال لكتاب جامع المقاصد دوره العلمي المرموق عند الفقهاء والباحثين منذ تأليفه وحتى يوم الناس هذا وإن كان جامع المقاصد لا يشكل دورة فقهية كاملة فقد وصل إلى مبحث تفويض البضع من كتاب النكاح وانتهى ليكمله الفاضل الهندي بعد وفاته.

ثم ما قدمته من بعده زعامة الشيخ

أحمد بن محمد المعروف بالمقدس الأردبيلي المتوفى عام (٩٩٣) هجرية[٢٢] صاحب كتاب (مجمع البرهان) للحوزة العلمية النجفية من أثر فاعل أهّل جامعة النجف الأشرف العلمية لأن تحظى بأهمية علمية ملحوظة في عصره، ودور رائد في بناء حاضرة علمية رصينة مستقبلا، حيث يعد كتابا: (جامع المقاصد للشيخ الكركي) و (مجمع البرهان للمقدس الأردبيلي) المتقدم ذكرهما من أمهات المراجع في الفقه الاستدلالي في الوسط العلمي الإمامي.

وكتاب (مجمع البرهان) كتاب استدلالي كبير استعرض الأردبيلي آراء الفقهاء السابقين عليه في ثوب تحقيقي متين مشغول بإضافات بحثية جديدة أعطته نكهة علمية متميزة وأهّلته ليحتل دورا رائدا في صدارة الحوزة العلمية النجفية.

وبما انتهى اليه الكتابان القيّمان المتقدم ذكرهما من تطور ـ بعدما تكاملت في الوسط العلمي النجفي أدوات البحث الفنية ووسائله العلمية في التحليل والتعليل والاستقراء والاستنتاج والموازنة والنقد والمناقشة وما إلى هذا من أمور ـ استقر ووضح الخط العام للتأليف في الفقه الاستدلالي في المادة والمنهج وأسلوب العرض.[٢٣]

ثم ما قدمه زعماء الحوزة العلمية اللاحقون لهما من العلماء المجتهدين من أمثال السيد محمد بن السيد علي الموسوي الجبعي المتوفى عام (١٠٠٩) هجرية صاحب كتاب (مدارك الأحكام في شرح شرائع الإسلام) في الفقه، والشيخ حسن بن زيد الدين الشهيد الثاني المتوفى عام (١٠١١) هجرية صاحب كتاب (معالم الدين وملاذ المجتهدين)، من غنى فكري وأصالة قد خلّف أثره الكبير في ماضي هذه الحوزة العريقة بل وحاضرها.

فكتاب (مدارك الأحكام) «مشحون بالأقوال والتحقيقات المهمة التي فتحت المجال الواسع لكثير ممن تأخر عنه من الفقهاء في محاولة للوصول الى أعلى مراتب النضج، وعكف عليه جمع من طلاب الفقه لدراسته فكان الى فترة

قريبة يعتبر أحد المراجع التي لا بدّ أن يستوعبها الطالب في مراحل تحصيله العلمي»[٢٤].

وكتب (معالم الدين وملاذ المجتهدين) هو الآخر كسابقه من حيث العمق والدقة، بيد أن ما يؤسف له أن مؤلفه لم يكتب منه سوى كتاب الطهارة فقط، ولقد كان مقصود مؤلفه (قدس) «أن يؤلف في الفقه كتابا يعكس آرائه العلمية وما يمتار به من دقة النظر (...) فشرع في تأليف هذا الكتاب وابتدأه بالحديث عن فضل العلم والحث على طلبه ثم بمقدمة تضمنت جملة من آرائه في أصول الفقه وهي التي أصبحت بعد ذلك الكتاب الدراسي المشهور في هذا العلم حتى عصورنا المتأخرة وتصدى جملة من الأعلام لشرحه والتعليق عليه فأصبح السبب الرئيس لشهرة مؤلفه وصار علما له يغني عن ذكر أسمه أو نسبه الشريف مع أنه كتبه مقدمة للفقه إلاّ أنه لم يبرز من قلمه غير كتاب الطهارة فكأنه مصداق للقول المشهور : ما اقصد لم يقع وما وقع لم يقصد، إذ أنه إنما كتب في الأصول مقدمة الدخول في الفقه لكنه لم يكمل ما أراده من الفقه ولم يلق ما كتبه منه ـ وهو كتاب الطهارة ـ الاهتمام اللائق به في حين أن مقدمته الأصولية التي كتبها مدخلا للفقه حظيت بالنصيب الأوفر من الأهتمام»[٢٥].

لقد حاول مؤلف كتاب المعالم أن يستقصي الآراء في كل مسألة من المسائل التي بحثها مع أدلتها ثم ناقشها منهيا الى رأي فيما عرض وناقش موليا اهتمامه الواضح لرأي العلمين الجليلين السيد المرتضى المتوفى عام (٤٣٦) هجرية[٢٦] وتلميذه الشيخ الطوسي المتوفى عام (٤٦٠) هجرية[٢٧] كما أسلفت مقتصر في كتابه على أساسيات المطالب الأصولية حاذفا منها ما لا ضرورة له حسب تشخصيه مع جمال في الصياغة ودقة في التحليل وتعديل في المنهجة ولعل ذلك هو ما حدا بالوحيد البهبهائي إلى تدريسه مرارا وأعاد كتابة تعليقاته عليه في كل دورة تدريسية جديدة.

ولا يفوتني أن اذكر ما أضافه عبد الله بن محمد البشروي الخراساني المعروف بالفاضل التوني[٢٨] المتوفى عام (١٠٧١) هجرية من تجديد في علم الأصول تمثل في إعادة تبويه للمنهج المعمول به لدى من سبقه من الأصوليين من خلال مبادرته لفصل المباحث العقلية عن مباحث الألفاظ وتقسيمه الأدلة الى شرعية وعقلية، ثم تقسيمه للأدلة العقلية الى ما يستقل العقل بحكمه وما لا يستقل في كتابه (الوافية) في أصول الفقه. ومن يقارن بين المعالم والوافية يدرك النقلة العلمية التي أحدثها كتاب الوافية في «المنهجية، وفي نمط التفكير، وصياغة المطالب، والدخول الى البحث من مسلك لم يعهد من قبل»[٢٩] من خلال معايير علمية لم يسبقه اليها سابق.

ولم يقتصر تلك الفترة الغنية من عمر مدرسة النجف العلمية على ما ذكرت من كتب وأبحاث في علمي الفقه وأصوله فقط، بل تعدت ذلك إلى التأليف في العلوم الأخرى الرئيسية والمساعدة، كتلك التي تقع في طريق استنباط الأحكام الشرعية، أو تلك التي تعين عليها او تزكي النفوس وتهذبها من أدران الدنيا وزخارفها أو تلك التي تعين الجسد على الوقاية والعلاج كي يستمر في أداء دوره في هذه الحياة الدنيا.

فقد حبّر المفسّر جلال الدين الدواني المتوفى سنة (٩٠٧) هجرية[٣٠] جوار المرقد العلوي المطهر «كتابه (الزوراء) هناك الذي جمع فيه بين الحكمة البحتة والذوقية في طريق إثبات الواجب»[٣١] كما كتب «حاشيته» على «الزوراء» جوار مرقد أمير المؤمنين في منامه.[٣٢]

وصنّف الملا عبد الله بن شهاب الدين اليزدي المتوفى عام (٩٨١) هجرية[٣٣] كتبه المتعددة في علم المنطق التي اشتهر منها كتابه (الحاشية) في علم المنطق الذي صنّفه في النجف الجامعة سنة (٩٦٧) هجرية، والكتاب وإن كان معقد العبارة مستعصيها، إلّا أنه رغم ذلك استطاع أن يفرض نفسه

ككتاب دراسي معتمد لمادة علم المنطق في الحوزة العلمية النجفية حتى وقت قريب، ولقد بلغ من تضلع مؤلفه الشيخ في علم المنطق أن قال: «إني لو شئت أن اقيم على كل مسألة شرعية برهانا من أدلة المعقول بحيث لم يكن لأحد ردّه لفعلت» .

كما ألف الشيخ أحمد بن محمد المعروف بالمقدس الأردبيلي المتوفى عام (٩٣٣) هجرية[٣٤] كتابه (زبدة البيان في شرح آيات القرآن)، وصنَّف هو نفسه كذلك كتاب (شرح إلهيات التجريد) في علم الكلام.

وكتب الشيخ عبد النبي سعد الدين الأسدي الغروي الحائري المتوفى سنة (١٠٢١) هجرية[٣٥] كتابه (حاوي الأقوال في معرفة الرجال) مرتبا فيه «الرجال على أربعة أقسام على حسب القسمة الأصلية للحديث: الصحيح والموثق والحسن والضعيف، وترك المجاهيل. وقيل إنه أول من فعل ذلك»[٣٦].

وسطّر الأمير السيد فيض الله الحسيني النجفي المتوفى سنة (١٠٥٢) هجرية كما قبل[٣٧] كتابيه (تعليقات على إلهيات شرح التجريد) و (التعليقات على آيات الأحكام).

وصنّف الأمير السيد علي الطباطبائي الحكيم المتوفى بعد سنة (١٠٥٢هـ)[٣٨] كتابه في الطب والصيدلة المسمى (المجربات الطيبة). وتوجد نسخة مخطوط منه في مكتبة الإمام الحكيم العامة في النجف الأشرف.

وبرع الشيخ فخر الدين الطريحي المتوفى عام (١٠٨٥) هجرية[٣٩] في تصنيف كتابيه (مجمع البحرين) في شرح مفردات القرآن الكريم والحديث الشريف وبخاصة الغريب منهما، وقد اهتم هذا الأثر العلمي بإبراز الدلالات اللغوية لمفردات القآن الكريم والسنة المطهرة وما يمكن توظيفه منهما في مجال استنباط الأحكام الشرعية. و(جامع المقال في تميز المشترك من الرجال) الذي قال عنه الشيخ جعفر محبوبه بأنه «كتاب نافع جدا لم يعمل مثله»[٤٠].

ودوّن الشيخ عبد اللطيف ابن الشيخ

نور الدين بن أبي جامع المتوفى عام (١٠٥٠) هجرية[٤١] كتابا في الرجال بمنهجية جديدة وهو كتاب «صغير الحجم كثير الفائدة اقتصر فيه على خصوص رجال الكتب الأربعة (...) وهو أول من اشار الى طبقات الرواة في أصحابنا قال﵀ وحيث أن معرفة الراوي ضرورية جعلت الطبقات ستة:

١ـ الشيخ المفيد.

٢ـ الصدوق.

٣ـ الكليني.

٤ـ سعد بن عبد الله.

٥ـ أحمد بن محمد بن عيسى.

٦ـ ابن أبي عمير.

ليتضح الحال في وهلة، وأشير في الأغلب الى طبقة الراوي أما بروايته عن الإمام أو بنسبته الى أحد المشاهير من اعلى واسفل او بكونه من إحدى الطبقات المذكورة»[٤٢].

ودبج يراع الباحث محمد حسين بن محمد علي الكتابدار النجفي المتوفى سنة (١٩٠٥) هجرية[٤٣] كتابه (تعليقة على كتاب عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب) لإبن عنبة في علم الأنساب.

وكتب الشيخ أبو الحسن بن محمد طاهر الفتوني المتوفى عام (١١٣٨) هجرية[٤٤] كتابه (ضياء العالمين) في الإمامة وهو من الكتب النفسية في بابه، يقول صاحب ماضي النجف وحاضرها عنه أنه «يقع في ثلاث مجلدات ضخام لم يكتب أوسع منه»[٤٥] في موضوعه. توجد نسخة منه بخطه في مكتبة آل الجواهري في النجف الأشرف، كما كتب في التفسير كتابه (مرآة الأنوار) أيضا.

وألّف الشيخ أحمد بن إسماعيل بن عبد النبي الجزائري المتوفى عام (١١٥١) هجرية[٤٦] كتابيه (قلائد الدرر في بيان آيات الأحكام بالأثر) في تفسير وفقه القرآن الكريم. و (آداب المناظرة).

وسطّر الشيخ محمد علي ابن الشيخ بشارة المتوفى عام (١١٦٠) هجرية[٤٧] كتابه (نشوة السلافة) وهي ذيل على كتاب سلافة العصر، وقد أثنى على نشوة السلافة كثير من معاصريه ولاحقيهم من اهل الفن، واستفاد منها الشيخ جعفر محبوبه في تأليف كتابه:

ماضي النجف وحاضرها فائدة ملحوظة.

وصنّف الشيخ محمد مهدي بن أبي ذر النراقي المتوفى سنة (١٢٠٩) هجرية كتابة القيم (جامع السعادات) في علم الأخلاف وتربية النفس في محاولة منه لبناء منظومة للقيم الأخلاقية مبنية على أساس متوازن يجمع بين الدين والدنيا في آن.

كما أولى الشيخ النراقي على الأديان اهتمامه الخاص فحرص على تعلم اللغتين العبرية واللاتينية على يد مجموعة من اليهود والنصارى لتسهيل أمر رجوعه الى كتبهم والإطلاع على مبادئهم وأفكارهم من مصادرها الأصلية.

وقد كتب إضافة لذلك كتابيه (المستقصى) و(المحصل) في علم البيئة، وكتابه (توضيح الإشكال) في شرح تحرير إقليدس الصوري، وكتابه (رسالة الحساب) وكتابه (محرق القلوب) في السيرة[٤٨].

كما أن ما خلفته تلك الحقبة الزمنية الغنية جدا بفنون القول من شعر ونثر، وما ضمته بين دفتيها من دواوين وكتب كان لها دور كبير في صون اللغة العربية من حملات التتريك والحفاظ على عمود الشعر العربي بخصائصه الفنية وجماله الأخاذ ولغته المترفة وصوره المبدعة من كل محاولات العبث بجماله الآسر. وقد طبعت أغلب هذه الكتاب وتداولتها أيدي الباحثين بإهتمام كبير.

إن هذه التصانيف القيمة في علوم مختلفة متعاضدة إضافة إلى ما صُنّف في تلك الحقبة الزمنية من كتب ورسائل في مجالات أخرى عديدة كالحديث والتاريخ والتراجم والسير والفلسفة والحكمة والفلك والرياضيات وغيرها مما لا يسع المجال للتنويه بها في هذا الموجز قد ساهمت جميعها بشكل فاعل في تقدم البحث المعرفي في حاضرة النجف الأشرف العلمية تلك الآونة.

الدور الثاني: دور نضج البحث المعرفي في حوزة النجف الأشرف

لقد أستمرت مدرسة النجف الأشرف الفكرية وحوزتها العلمية تحت

الخطى في مقدمات علوم الشريعة وآدابها وعلوم الشريعة وآدابها بيد اني سأتناول في حديثي اللاحق ما يتعلق بدور النضج المعرفي في النجف الأشرف من خلال علمي الفقه وأصول الفقه دون غيرهما محيلا الحديث عن بقية العلوم الأخرى إلى مجال آخر.

لقد توسّع مسار البحث المعرفي في علمي الفقه وأصوله في النجف الأشرف الجامعة نتيجة فتح باب الاجتهاد على مصراعيه فيها حتى وصلت جامعة النجف لما يمكن أن نسميه بدور نضج البحث المعرفي فيها على يد الفقيه الشيخ محمد باقر البهباني المعروف بالوحيد البهبهاني[٤٩] المتوفى عام (١٢٠٨) هجرية الذي أعطى علمي الفقه والأصول دفعة قوية من خلال تصديه القوي للمد الأخباري في وقته، وتهذيبه لهذين العلمين الجليلين الفقه والأصول مما علق بهما من آراء ومبان غريبة قد يكون بعضها من الشواذ، وربما كان أطلق عليه لقب (الوحيد) بسبب ذلك.

وقد يعزى بروز المد الإخباري تلك الآونة من بين أسباب أخرى الى قلق علمي من ابتعاد تدريجي عن النص الشرعي في عملية الاجتهاد والغوص أكثر فأكثر في تغليب العنصر العقلي عليه. من دون استبعاد لوجود عامل سياسي بسبب توجس ملوك الدولة الصفوية من اتساع دائرة نفوذ العلماء في خطرا محتملا على سلطتهم المحتاجة الى العلماء والمعتمدة عليهم ولكن ضمن سقف محدد لا يسمح لهم بتخطيه.

اشتهر الشيخ الوحيد البهبهاني قدس سره بدقة تحقيقه للمسائل والفتاوى والآراء والنظريات العلمية في علوم الرجال والحديث والفقه واصول الفقه وتكثيره للأدلة وتبديهها وهو ما أودعه في كتبه ورسائله وتعليقاته التي بلغ مجموعها (١٠٩)، بينها (٥٠) في علم الفقه وحده، و (٢٨) في علم الأصول.

«ولا ريب في أن الجذور المهمة للمدرسة الأصولية الحديثة في يومنا هذا تعود الى جملة من النظريات التي جاء بها الوحيد وانعكست في كتب تلامذة مدرسته بشكل واضح إذ نلمس اصولها

وركائزها في أحد أهم كتبه الأصولية الذي عرف بـ(الفوائد الحائرية).

إن أهم النظريات التي طرحت في مدرسة الوحيد البهبهاني هي:

١. التفريق بين الامارات والأصول، فإن الجذور الاولى لهذا التفريق كانت من الوحيد على ما ذكره الشيخ الأنصاري في بداية المقصد الثالث من رسائله حينما تعرّض للأدلة الاجتهادية (الأمارات) والأدلة الفقاهتية (الأصول العملية).

٢. التنظير والتقسيم للشك الذي اعتمده الشيخ الأنصاري في منهجيته الحديثة لمباحث علم الأصول، فإنه يعود الى تقسيم الوحيد للشك الى قسمين: الشك في التكليف، والشك في المكلف به. وتعيين الوظيفة العملية المترتبة على كل منهما.

٣. الصياغة الفقهية المتينة لقاعدة البراءة العقلية التي استقرت في الفكر الاصولي المعاصر، فإنها تعود الى الوحيد البهباني (قدس)»[٥٠].

إضافة الى الجدة الملفتة في نظرياته الأخرى من أمثال: تنجيز العلم الإجمالي، ودوران الأمر بين الأطراف المتباينة أو الأقل والاكثر، الوظيفة العقلية لدى الشك في التكليف وغيرها وما تضمنتها (فوائده) العديدة كالفائدة الثانية التي بيّنت تحديد مواضع الرجوع الى العقل والعرف ومواضع الرجوع الى النص الشرعي وتحديد دائرة الاجتهاد فيما لا نص صريح فيه والفائدة الرابعة في مدى جواز أخذ الموضوع الحكم من العرف إذ كان من المعاملات مادام لم يكن للشرع بيان خاص ومصطلح واضح، وكالفائدة الحادية والعشرين الخاصة في المرجحات المنصوص عليها وتعارضها فيما بينها والثانية والعشرين الخاصة في المرجحات غير المنصوصة والفائدة الثالثة والعشرين الخاصة في كيفية الجمع والقبول بين الخبرين المتعارضين. وكالفائدة السادسة والثلاثين الخاصة في شرائط الاجتهاد والعلوم التي يتوقف عليها الاجتهاد واستنباط الأحكام إضافة الى الخاتمة المهمة التي تناولت خطورة ووعورة السير

في طريق الاجتهاد، والأهمية القصوى لتهذيب النفوس من أدران الدنيا وزخارفها وتنظيف الباطن من شوائبه المادية ووساوسه لتحصيل القوة القدسية، ومجاهدة النفس بمكارم الأخلاق، وهو ما نحتاجه كثيرا في زمننا[٥١].

وتأتي في مقدمة كتب الوحيد البهبهاني ورسائله وحواشيه من حيث الأهمية عدا الفوائد الحائرية حاشيته على (المدارك) و(المفاتيح).

ولعل من أهم إنجازاته العلمية الأخرى اللافتة للنظر والمؤثرة في طور نضج البحث العلمي في حوزة النجف الأشرف ما تم على يديه من تنشئة جيل باحث متعمق من الفقهاء المجتهدين يأتي في مقدمتهم المرجع العارف السيد محمد مهدي بحر العلوم[٥٢] المتوفى عام (١٢١٢) هجرية وغيره. وقد خلّف لنا السيد بحر العلوم كتابه (المصابيح) في الفقه، وكتابه (الفوائد الرجالية) في علم الرجال، وشرحاً للوافية في علم أصول الفقه، ومنظومة أصولية أسماها (الدرة البهية في نظم رؤوس المسائل الأصولية).

والسيد بحر العلوم الى جانب الفقه وأصوله وعرفانه وزعامته صاحب ذوق أدبي وشعري رفيع، بل هو شاعر يحتكم اليه الشعراء لتمييز نتاجهم الشعري، ولقد بلغ من اهتمامه بالشعر والأدب إدراكا منه لمدى علاقة اللغة آدابها بالفقه واستنباط أحكامه أنه كان يقّبل يدي تلميذه في الدراسات الفقهية الشاعر السيد صادق الفحام وفاء لحق تتلمذه عليه في الشعر والأدب وفنون الكلام.

ومثله في الاهتمام بالأدب وفنونه والشعر ونسجه كان الشيخ جعفر الكبير[٥٣] آل كاسف الغطاء[٥٤] المتوفى عام (١٢٢٨) هجرية صاحب كتاب (كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء)، وهو من التصانيف المهمة التي أسهمت في تطوير علوم عديدة في مقدمتها علوم: أصول العقائد، وأصول الفقه، والفقه، تطويرا مشهودا له بما اشتمل عليه كتابه القيم من مقدمتين مهمتين: أولاهما في أصول العقائد، والثانية في أصول الفقه، ثم بما

استعرضه الشيخ في كتابه من بحوث عميقة في أبواب الفقه ابتداء من باب العبادات وحتى آخر كتاب الجهاد، وكذلك ما الحقه به بعد ذلك من كتاب الوقف وتوابعه، وقد عرف عن الشيخ كاشف الغطاء (قدس) دقة تفريعه في المسائل الفقهية، وجمال شمّه الفقاهتي المميز، وحسن فهمه وتطبيقه الالفاظ الكتاب والسنة على طريقة الفهم العربي السليم، وبراعة طرحه لقواعد حديثة لم يسبقه اليها أحد، حتى قال عنه الشيخ الانصاري قولته المهمة: «في اعتقادي أن من يتقن قواعد الأصول التي أوردها الشيخ في أول كشف الغطاء يكون قد بلغ الأجتهاد، كما أن الأهمية الخاصة التي يتعامل بها الشيخ الانصاري في مكاسبه مع المباني الاجتهادية للشيخ جعفر لم يتعامل بها أي شخص آخر حتى أساتذته مثل صاحب الجواهر وغيره. ومن ثم نرى في المكاسب عبارة (بعض الأساطين) إشارة الى الشيخ جعفر، وعبارة (بعض المعاصرين) إشارة الى صاحب الجواهر، وكان الشيخ الأنصاري يتعامل مع آراء كاشف الغطاء بغاية الاحتياط، ويحاول أن يخلص الى تأييدها»[٥٥] في رأيه المختار.

وقد عرف عن الشيخ كاشف الغطاء رهافة حسه الأدبي الرفيع وبراعة وجزالة نظمه للشعر الرقيق ثم «حفظه على خاطره جميع الكتب السماوية من إنجيل وزبور وتوراة وجميع ذلك بآياتها وفصولها وينبئك على ذلك ما ذكره في كتابه كشف الغطاء من الاستدلال على نبوة نبينا ﷺ فقد سرد منها هناك ثلاث أوراق أو أكثر من عباراتها باللسان التي نزلت به ثم ترجمها الى العربية وبيّن تناقض بعضها مع بعض وأنها محرفة عمّا أنزلت به، ويذكرهم الأصل»[٥٦] الذي كانت عليه.

وهكذا استمرت الحوزة العلمية النجفية في طور النضج والتكامل شيئا فشيئا، فقد أبدعت موهبة الأصولي الشاعر الملا مهدي النراقي الكاشاني[٥٧] المتوفى عام (١٢٠٩) هجرية كتابه القيم (تجريد الأصول) وكان لما صنفه يراع السيد جواد العاملي[٥٨] المتوفى

عام (١٢٢٦) هجرية في كتابه (مفتاح الكرامة) من عمق وإحاطة بآراء وأقوال المجتهدين أثر مهم في النضج المعرفي، وما جادت به قريحة الشيخ أسد الله الدزفولي المعروف بالكاظمي[٥٩] المتوفى عام (١٢٣٤) هجرية من شمول واستيعاب لمسائل وفروع مبحث الاجماع في كتابه الاصولي المهم (كشف القناع عن وجوه حجية الاجماع)، ثم ما حققه السيد علي السيد محمد الطباطبائي[٦٠] المتوفى عام (١٢٣١) هجرية في دفتي كتابه (رياض المسائل في بيان الأحكام بالدلائل) من غنى معرفي أسهم هو ما تقدم من كتب وأبحاث ودروس وتصنيفات في دفع الحركة العلمية في حوزة النجف دفعة مؤثرة الى الأمام.

فكتاب (الرياض) كما يطلق عليه الحوزويون أختصارا «هو أكبر شرح منشور ومشهور لكتاب المختصر النافع للمحقق الحلي[٦١] (...) ومن محاسن الرياض كونه دورة فقهية استدلالية كاملة ابتداء من كتاب الطهارة وانتهاء بكتاب الديات والظاهر من حاله متابعته لشرح اللمعة الدمشقية، ومن ثم قد ينفع في حل بعض غوامضها، بل قد ينقل فقرة منها أحيانا مضيفا اليها ما يراه ضروريا ولو لتوضيح المراد من دون أن يشير الى المصدر.

قال بعض أعلام تلامذته عنه: هو في غاية الجودة جدا، لم يسبق بمثله، ذكر فيه جميع ما وصل اليه من الأدلة والأقوال على نهج عسر على من سواه، بل استحال. والمنقول عن صاحب (الجواهر)رحمه الله أنه عندما ألفّ جواهره لم يقصد في قصد المصنفين من التفتن والتأنق في العبارة، وإلاّ لانتهج نهج صاحب الرياض»[٦٢].

هذا وهناك العديد من المجتهدين ممن أسهم في تطور البحث العلمي في الحوزة النجفية من غير هؤلاء الأعلام والفقهاء، من أمثال الميرزا أبو قاسم الكيلاني الرشتي المعروف بالميرزا القمي[٦٣] المتوفى عام (١٢٣١) هجرية صاحب كتاب (القوانين) في أصول الفقه المعروف بكونه الجامع الدقيق لمطالب علم الأصول عند من سبقه من

العلماء خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، لوما أضافه لمباحث علم الأصول حتى عصره من عمق وتوسعة وتفصيل ولا سيما في المباحث العقلية، وبخاصة ما يتعلق منها بما يطلق عليه الأصوليون بـ(دليل الانسداد)، ذاهبا الى حجية مطلق الظن لانسداد باب العلم الذي عرضه كتاب المعالم السابق ذكره وقد أبطله المحققون الأصليون فيما بعد. وقد أصبح القوانين كتابا دراسيا من مناهج كتب علم الأصول في الحوزة العلمية حتى وقت ليس بالبعيد.

ثم بعد ذلك ما أتقن تحقيقه السيد محسن الأعرجي[٦٤] المتوفى عام (١٢٤٠) هجرية من بحوث في علمي الأصول والفقه وبخاصة تصنيفه لكتابيه في شرح كتابه الوافية في الاصول لعبد الله بن محمد البشروي الخراساني المعروف بالتوني المتقدم ذكره وهما: (المحصول في شرح وافية الأصول) وهو مختصر، و(الوافي) وهو مفصل.

ومن العلماء الذين أسهموا في دفع عجلة علم الأصول الى الامام الشيخ محمد تقي بن عبد الرحيم الحائري[٦٥] المتوفى عام (١٢٤٨) هجرية مؤلف كتاب (هداية المسترشدين في شرح أصول معالم الدين) أفضل حاشية كتبت على كتاب المعالم وكانت لحاشيته التي اشتهر بها دور مثمر في ترسيخ بحوث علم الاصول وتوسيع وتعميق مبانيه ومطالبه «ويكفي في أهميتها قول الشيخ الانصاري حين سئل: لماذا لا تؤلف كتابا في مباحث الألفاظ؟ أجاب: تكفي مباحث الألفاظ في هداية المسترشدين للشيخ محمد تقي»[٦٦].

والشيخ تقي ابن الشيخ محمد ملاّ كتاب[٦٧] المتوفى قبل عام (١٢٥١) هجرية مؤلف الكتاب الواسع في الأصول (الدلائل الباهرة في فقه العترة الطاهرة) الذي أمتاز بمنهجية لعلم الأصول ظاهرة، حيث «رتبه على مقدمة وخمسة أصناف وخاتمة وحصر المقدمة في مطلبين، الأول في بيان ما يدل على وجوب التفقه في الدين والثاني في بيان مباديه. والصنف الأول في مطالب أصول

الفقه ورتبه على مقدمة وثمانية أبواب وخاتمة، وجعل الباب الأول من الصنف الأول من الكتاب المبادئ اللغوية، وهنا يشبع البحث في ذكر عدة أدلة تتضمن مباحث الألفاظ من حيث الكلام والكلمة والحقيقة والمجاز وغيرها مما يتعلق بالوضع والموضوع له وما يناسبه، والباب الثاني في الكتاب والسنة وهو المجلد الثاني من الكتاب، وهنا يستوحي البحث عمّا يخص الكتاب والسنة من نزوله وحفظه وثرائه وطبقاتهم وعدم وقوع التحريف فيه، وفي السنة يستغرق البحث عن المعنى الخبر ولفظه وعدالة الراوي وكل ما يتعلق بالسنة، قرظ هذه الكتاب الشيخ جعفر صاحب كاشف الغطاء وولده الشيخ موسى، رأيت خط الشيخ الكبير وخاتمه وهذا نص عبارته: قد نظرته نظر أعتبار ونقدته نقد الدرهم والدينار فوجدته قد جمع فيه من الشوارد والنوادر ما حقّ أن يقال فيه: كم ترك الأول للآخر واحتوى على كثير من غريب الأشياء وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[٦٨].

وكذا الشيخ محمد حسين بن عبد الرحيم الرازي[٦٩] المتوفى عام (١٢٦١) هجرية صاحب كتاب (الفصول) في أصول الفقه وهو شقيق الشيخ محمد تقي الحائري المتقدم ذكره، وقد بقي كتابه الفصول حتى وقت قريب كتابا دراسيا يدرسه الطالب الحوزوي وهو يرتقي سلم هذا العلم درجة درجة، بل لازالت مسائله الأصولية حتى يوم الناس هذا محور بحث ومناقشة ونقد وتقييم.

والفقيه الشيخ حسن آل كاسف الغطاء المتوفى عام (١٢٦٢) هجرية[٧٠] مؤلف كتاب (أنوار الفقاهة) في علم الفقه والمعروف بدقة شمّه الفقاهتي وبراعة استقامة آرائه على طريق الاستدلال، وتسلطه على المباحث الشائكة، والمشهود له بملكه التفريع والتصوير في الفقه.

والشيخ جواد ابن الشيخ تقي ملّا كتاب[٧١] المتوفى عام (١٢٦٤) هجرية مؤلف كتاب (الأنوار الغروية) وهو «كتاب كبير الحجم أجاد فيه كل الإجادة، جمع فيه بين الأدلة والأقوال

والأخبار بأوجز عبارة إلاّ أنه غير تام الحصون وهو عشرة مجلدات»ما يكشف عن سعته رغم حرص مؤلفه على ضغط عبارته وأختصار كتابته.

وكذلك الباحث الموسوعي والأديب والفقيه الضليع الشيخ محمد حسن النجفي[٧٣] المتوفى عام (١٢٦٦) هجرية رأس الأسرة العلمية الأدبية المبدعة وصاحب كتاب (جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام) في (٤٣) مجلدا لهذا فهو أضخم موسوعة فقهية كاملة صنفت في الفقه الجعفري حتى نهاية عصره والعقود اللاحقة له، أقول كاملة لأن تلميذه العالم الزاهد الشيخ محمد حسين الكاظمي المتوفى سنة (١٣٠٨) هجرية ألّف كتابه المسمى (هداية الأنام في شرح شرائع الإسلام) بما «يزيد على الجواهر (....) وصل فيه الى كتاب القضاء والشهادات وكان لا يترك فيه قولا لقائل إلاّ ونقل دليله وتكلم فيه واستقصى كلمات الفقهاء كلها فيه»[٧٤] بيد أنه لم يتم.

وينفرد كتاب (الجواهر) من بين كتب الفقه الأخرى «باشتماله على خلاصة أفكار الفقهاء المتقدمين والمتأخرين مع غاية التحقيق والتدقيق والفهم الجيد للروايات الشريفة ولسائر مدارك الأحكام، المنبئ عن سليقة عرفية سليمة وذوق فقهي عال وقد استكمل﵀ شرح أبواب الشرائع من كتاب الطهارة الى آخر الحدود والديات ويمتاز عن أكثر المؤلفات الموسوعية التي تستغرق وقتا طويلا لإنجازها بأن أواخره كأوائله وهي مثل أواسطه في الجودة والدقة والاستيعاب بنفس واحد مبني على الاستقصاء والتحقيق من دون أن يعرف الكل والملل اليه سبيلا (....) وقد سمعت من بعض أساتذتي ﵀ أن سيدنا الأعظم الإمام الحكيم﵀ في بداية رجوع الناس اليه في التقليد، ويفتي حسب ما يتوصل اليه نظره الشريف بمعونته. وما ذلك إلاّ ثقة منه ﵀ بأشتمال الجواهر على عمدة ما يحتاجه الفقيه في مقام الاستنباط»[٧٥] وقد تقدمت الإشارة الى أن من أتم مراجعة كتب: الوسائل للحر العاملي وجامع المقاصد للكركي والجواهر فقد خرج

عن عهدة وجوب الفحص.

وقد صدر معجم بأسم (معجم فقه الجواهر) في ستة مجلدات من القطع الكبير متضمنا عددا كبيرا من المصطلحات والعناوين الفقهية ابتداء من حرف الألف وحتى حرف الياء، كما صدر بعده فهرست تحليلي بأسم (جواهر الكلام في ثوبه الجديد) «والهدف منه تفكيك وتحليل أبحاث الكتاب وأستخراج آراء ومتبينات المؤلف على حدة، ثم تليها الأستدلالات والمناقشات والأقوال مرتبة ومرقمة مع الإشارة الى النكات الدقيقة فيها حتى يكون ذلك ضوء كاشفا ينير الطريق أمام المحققين والباحثين في معرفة مسائل هذا الكتاب»[٧٦].

ثم كان أن حان دور بزوغ نجم مجدد على الأصول الشيخ مرتضى الأنصاري[٧٧] المتوفى عام (١٢٨١) هجرية صاحب كتابي: (المكاسب المحرمة) في الفقه، و(فرائد الاصول) في أصول الفقه، اللذين حظيا ولا زالا بعناية واهتمام الفقهاء والشراح والدارسين.

ففي كتاب المكاسب أو المتاجر كما يطلق عليه الحوزويون تتعاضد مباحث ثلاثة أولها: المكاسب المحرمة وقد بحث في الكثير من الأمور التي يحرم التكسب بها، وثانيهما: كتاب البيع، وثالثهما: كتاب الخيارات، ثم أن الشيخ الأنصاري خطط لكتابه منهجا يقوم على أساس تقسيم موضوعه محل البحث الى أقسامه المحتملة، ثم يشرع في بحث أقسامه المحددة واحدا بعد الآخر بتسلسل منهجي ملحوظ. ذلك أنك لا تكاد تجده يخوض غمار بحث موضوع ما من دون تقديم له بمقدمة تلقي الضوء على ما سيبحثه فيه دون أن يعود ثانية الى نقطة تجاوزها سابقا.

نعم قد يكرّ الشيخ الأنصاري راجعا في بحثه الى نقطة تجاوزها قبل ذلك مع مراعاة المبحث الواحد الذي هو فيه، وهو ما شكل صعوبة على دارس الكتاب أو مباحثه.

«إن الفقه وإن كان قد قطع شوطا في القرن الثالث عشر الهجري بيد شيخ الفقهاء صاحب الجواهر ﷺ حيث أن

كتابه أحتوى من التحقيقات القيمة ما لا يستغني عنه فقيه حتى في اليوم الحاضر، إلاّ أن ما أتى به الشيخ الأنصاري ﷺ في خصوص الفقه المعاملي لم يأت به فقيه قبله، ولسنا نريد أن نقول: إن كل ما أتى به جديد فإن ذلك غير صحيح، كيف وقد استفاد ممن تقدمه من الفقهاء، وهذه سنة العلم يأخذ المتأخر من المتقدم ويبني عليه، إلاّ اننا نقول: إن مجموع ما دونه في خصوص الفقه المعاملي من حيث المجموع وبهذه الكيفية والسعة والعمق، لم يأت به من سبقه»[٧٨].

إما في كتاب الشيخ الأنصاري الثاني (فرائد الأصول) أو ما يصطلح عليه الحوزويون بالرسائل فقد «جاء بمنهجة جديدة أصبحت هي منهج الأصول في المباحث العقلية من بعده، ولم يتفق لأحد من قبله هذا الكشف والفتح الذي فتحه الله على يديه. وهذا المنهج آية في الاستحكام والقوة والمتانة العلمية والتنظيم المنهجي، وأمارة هذا الاستحكام والقوة والمتانة في المنهج والتصوير والمحتوى أن الفقهاء الذين جاءوا بعد الشيخ وهم كثيرون لم يغيّروا لحدّ اليوم الخطوط الأساسية لهذا المنهج»[٧٩]. كما أنهم رغم علو قدرهم لم يتجاوزوا منهجه العلمي بل يعتبرون أنفسهم وهم الأساتذة المشهود لهم بالكفاءة المتميزة طلاب مدرسته العلمية التجديدية.

ولا زال كتابا المكاسب والرسائل حتى يوم الناس هذا من مناهج الدراسية الأساسية المعتمدة في الحوزات العلمية التي لا يمكن علميا لطالب ينوي الأستمرار في دراسته العليا وحضور بحث الخارج إلاّ بدراستهما دراسة متأنية فاحصة سواء أكان من طلبة حوزة النجف الأشرف أم من طلبة غيرها من الحوزات العلمية الأخرى المنتشرة اليوم في شرق الأرض وغربها.

ثم جاء من بعده الثائر والمنظر في الفقه الدستوري والأصولي المحقق الشيخ محمد كاظم الخراساني[٨٠] المتوفى عام (١٣٢٩) هجرية صاحب كتاب (كفاية الأصول)، الذي هو من كتب أصول الفقه الدراسية المعتمدة للآن في الحوزات

العلمية كافة ومنها الحوزة العلمية في النجف الأشرف.

ففي كتاب كفاية الأصول التي هي خلاصة مركزة لبحوثه في علم الأصول، عمد المؤلف الضليع الى الضغط العبارة واختصارها وأيجازها حد الغموض أحيانا، موشيا عباراته بالمحسنات البديعية ما أمكنه، وقد عرفت دروس الشيخ الخراساني وكتاباته في كتابة الكفاية بدقة مطالبها وعمقها وتركيز مباحثها وأختصارها وقد وصف السيد محسن الأمين﵀ هذه الخصائص في مباحث الشيخ الخراساني بقوله: «وتميز عن جميع المتأخرين بحب الأيجاز والاختصار وتهذيب الأصول والاقتصار على لباب المسائل وحذف الزوائد مع تجديد في النظر وإمعان في التحقيق»[٨١] مزاوجا في مباحثه بين المسائل الفلسفية والمسائل الأصولية أكثر ممن سبقه من مؤلفي الكتب الأصولية المعروفة المتداولة التي مرّ ذكرها من أمثال الرسائل والفصول والقوانين، ولذلك وغيره كثرت على متن الكفاية الحواشي والشروح منذ عصر مؤلفه عصرنا الحالي «وقد أحصى الأستاذ المرحوم عبد الرحيم محمد علي (٦٠) منها في كتابه المصلح المجاهد»[٨٢] الخراساني. فضلا عما لم يشمله الحصاء أو كتب أو حشي عليها بعد استشهاد المرحوم عبد الرحيم محمد علي.

ثم ما تلا ذلك الدور من دخول النجف الجامعة مرحلة النضج المعرفي التفصيلي اللاحقة.

الدور الثالث: دور نضج البحث المعرفي في التفصيلي في بحوث حوزة النجف الأشرف

دخلت النجف الجامعة مرحلة أكثر عمقا وتفصيلا وتخصصا ودقة في بحوثها الرصينة وبخاصة في علم أصول الفقه وذلك على أيدي المحققين الثلاثة الكبار وهم:

أولا: المحقق الشيخ ميرزا حسين النائيني المتوفى[٨٣] عام (١٣٥٥) هجرية الذي أبدع في التفكيك بين الأمارات والأصول، وتساءل عن الفرق بين المجعول في أدلة حجية الأمارات وأدلة حجية

الأصول ومراتب الحكم التكليفي وتقسيم الأحكام الشرعية والمعنى الحرفي والعلل الشرعية واستصحاب العدم الأزلي وغير ذلك كثير وبخاصة تحقيقاته في مباحث الصحيح والأعم ودلالة صيغة الأمر والواجب المشروط ومقدمة الواجب والتعبدي والتوصلي والنفسي والغيري وأجتماع الأمر والنهي والفرق بين شرائط الجعل وشرائط المجعول والتخصص والتخصيص والحكومة والورود[٨٤] وكان النائيني في عصره «يشار اليه بالبنان لما كان يتسم به من القدرة الفائقة على النقد والتحقيق وسلاسة البيان وعمق النظر والمنهجية في البحث».

أما بخصوص تضلعه في علم الأصول «فأمر عظيم لأنه أحاط بكلياته ودققه تدقيقا مدهشا وأتقنه إتقانا غريبا، وقد رنّ الفضاء بإقواله ونظرياته العميقة، كما انطبقت أفكار المعاصرين بطابع خاص من آرائه حتى عد مجددا في هذا العلم، كما عدت نظرياته مماثلة لنظريات الآخند الخرساني وكان لبحثه ميزة خاصة لدقة مسلكه وغموض تحقيقاته فلا يحضره إلاّ ذوو الكفاءة من أهل النظر»[٨٦].

وقد أجاد كتابة تقريرات بحثه عديديون في مقدمتهم تلميذه الشيخ محمد علي الكاظمي في كتاب أسماه (فوائد الاصول) في أربعة أجزاء، وتلميذه السيد أبو قاسم الموسوي الخوئي المرجع الأعلى لاحقا في كتابه أسماه (أجود التقريرات) في جزئين.

ثانيا: المحقق الشيخ أغا ضياء العراقي[٨٧] المتوفى عام (١٣٦١) هجرية. درّس السطوح العليا وخارج الفقه والأصول ستين سنة، منها أكثر من ثلاثين سنة في تدريس البحث الخارج، وعرف بكتابة محاضراته بنفسه وإن كان بلغة معقدة في كل مرة يعود فيها لإلقاء محاضراته، خلافا لعذوبة بيانه وطلاقة لسانه في التدريس، كما عرف عنه إفساحه المجال الواسع لمناقشات طلابه فيستثمرون سعة صدره ودعابته في إغناء معلوماتهم، وقد ترك لعلماء الأصول وطلاب العلم من معاصريه

واللاحقين له كتابا أصوليا كاملا في أصول الفقه أسماه (مقالات الأصول) ضمنه دورة أصولية كاملة.

وقد أحسن عرض آرائه بعض تلامذته يأتي في مقدمتهم الشيخ محمد تقي البروجردي في كتابه الذي أسماه (نهاية الأفكار) وقد تطرق فيه الى آراء أساتذه مستوعبا البحث في القطع والحجج والأصول العملية، وكذا الشيخ هاشم الآملي في كتابه (بدائع الأفكار) مستوعبا البحث في مباحث الأصول اللفظية والملازمات العقلية.

ثالثا: المحقق الشيخ محمد حسين الأصفهاني[٨٨] المتوفى عام (١٣٦١) هجرية، واضع المنهجية الشاملة لمباحث علم الأصول، وهي المنهجية التي اعتمدها وتبناها تلميذه الشيخ محمد رضا المظفر في كتابه (أصول الفقه) كما سيأتي ذكرها تفصيلا في فصل لاحق.

ويعرف عن الشيخ الأصفهاني أنه وظف علم الفلسفة - وهو الفيلسوف المشهود له - في الأصول توظيفا واسعا بحيث تظهر آراؤه وتحقيقاته الفلسفية على جميع آثاره ودروسه حتى ليكاد المتلمذ له في الأصول خاصة يجد من نفسه أنه ألمّ بأكثر الابحاث الفلسفية من حيث يدري أو لا يدري، ومن قرأ حاشيته على الكفاية بالخصوص من يجد كيف تطغى المصطلحات الفلسفية على تعبيره حتى ليظن أحيانا أنه يقرأ كتابا في الفلسفة، وقد طغت روحه الفلسفية حتى على أراجيزه في مدح النبي وآله الأطهار[٨٩].

ولقد بلغت دقة البحث الأصولي والقدرة على الأستدلال بالمنطق والقابلية الفذة على الإقناع بالدليل أوجها الرفيع عند المحققين الثلاثة حتى قال أحد الفضلاء من تلاميذ المحقق النائيني لقد «كنت أسمع من أستاذنا النائيني رأيا يختلف عن رأي زميله المحقق العراقي فأقتنع برأي شيخنا النائيني بشكل كامل، فإذا بصحة رأيه وعدم صحة رأي أستاذنا الشيخ النائيني، فأرجع الى المحقق النائيني فيعيد اليّ قناعتي الأولى القائمة على أسس متينة، فلما أعود الى المحقق العراقي وأناقشه في المباني

والأساس الذي سمعته من أستاذي زلزل قناعتي من جديد ووجدتني من جديد في حيرة من امري»[٩٠]. ولا تتأتى قوة الحجة هذه إلاّ للقلة القليلة من أهل الرأي والحكمة والمعرفة.

وقد أعقب هؤلاء العلماء الكبار بعض من أقرانهم والعديد من فحول تلامذتهم وتلامذة تلامذتهم مما لا يسعني الوقوف عندهم جميعا لكثرتهم بيد أن ذلك لا يعفيني من الإشارة على نحو الإجمال الى بعضهم حسب تواريخ وفيات الأقدم فالأقدم منهم على سبيل المثال لا الحصر:

١. السيد محمد كاظم اليزدي[٩١] المتوفى عام (١٣٣٦) هجرية الفقيه والمرجع الأعلى في عصره والمفتي بالجهاد ضد الإيطاليين والبريطانيين والروس بعد أحتلالهم لبلاد المسلمين وصاحب كتاب (العروة الوثقى) المعروف في أوساط الحوزات العلمية بجمال عبارته وحسن سبكه واستيعابه للمسائل بم فيها المستحدثة منها في عصره وقد تناولته أيدي الفقهاء والعلماء بالشرح والتبيين والاستدلال والتحشية.

٢. السيد أبو الحسن الأصفهاني[٩٢] المتوفى عام (١٣٦٥) هجرية المرجع الأعلى في عصره والمعروف بدقة التحليل والمجاهدة والتحمل والزهد والصبر وصاحب المواقف الصلبة التي ضاق بها حكام العراق ذرعا فأمروا بنفيه الى خارج العراق فأصدر بيانه المهم الذي ورد فيه ما نصه: «من الواجبات الدينية على جميع المسلمين هي الدفاع عن الإسلام والبلاد الإسلامية، وبالخصوص العراق، بلد المقدّسات، وبلد الأئمّة الأطهار عليهم السلام، ضد تسلّط قوّات الأجانب».

٣. الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء[٩٣] المتوفى عام (١٣٧٣) هجرية المرجع الكبير في عصره والمؤلف لكتاب (تحرير المجلة) في خمسة أجزاء وهو شرح مزجي على «مجلة الأحكام العدلية» ذلك الكتاب الذي يمثل تقنين أحكام الشريعة الإسلامية على شكل مواد قانونية حيث جرى تطبيق أحكام هذه (المجلة) في المحاكم المدنية في كافة البلدان التابعة للحكم العثماني

آنذاك، وقد شرح الشيخ بعض البنود (مجلة الأحكام العدلية) وأوضح قواعدها وفروعها في ضوء الفقه الجعفري مناقشا الكثير مما جاء في (مجلة الأحكام العدلية) بما ينبيء بوضوح عن مدى تقدم البحث الفقهي الأصولي في حوزة النجف الأشرف عن غيره من المدارس الفقهية الأخرى التي أغلقت على نفسها أبواب الإجتهاد.

٤. الشيخ محمد رضا المظفر[٩٤] المتوفى عام (١٣٨٣) هجرية المفكر المجدد وأول عميد لكلية الفقه في النجف الأشرف والمؤلف لكتابي: (المنطق) الذي أغنى أو كاد عما قبله من كتب المنطق الدراسية في الحوزات العلمية، و(أصول الفقه) الجديد في طرحه، والواضح في عبارته، المنهجي في تبويبه كما سيأتي ذلك لاحقا.

٥. السيد محسن الحكيم[٩٥] المتوفى عام (١٣٩٠) هجرية المرجع الأعلى في عصره ومؤلف كتاب (المستمسك في شرح العروة الوثقى) في (١٤) جزء والزاخر بمجلداته بآخر ما توصلت اليه حوزة النجف الأشرف العلمية حتى عهده من آراء ونظريات في علوم الفقه وأصوله وكل ما يمت الى علوم الشريعة بصلة مما حدا ببعض الكتاب لأن يصف المستمسك بأنه «الموسوعة الفقهية القيّمة التي لم يسمع بمثلها في هذا الدور من حيث الترتيب والتنظيم والتحقيق والدقة وقوة الاستدلال والتلخيص. هو أول كتاب فقهي ظهر للملأ العلمي بهذا الشكل الكامل في جميع الأبعاد ولم يسبقه أحد من فقهائنا الأفذاذ في هذا الدور وأحرز مؤلفه (قدس) بهذا التأليف مقام القيادة الكبرى لركب المحققين حيث أنه يرجع كل تحقيق في شرح العروة الوثقى من بعد صدور هذا الكتاب (المستمسك) الى ما حققه المؤلف فيه. وكل ما جاء بعده من شروح العروة الوثقى فقد جاء طريقا معبّدا فسار عليه بسهولة»[٩٦].

٦. الشيخ حسين الحلي المتوفى[٩٧] عام (١٣٩٤) هجرية أستاذ العديد من المراجع والعلماء والمتعق في بحث المسائل الفقهية والأصولية الشائكة والمتصدي مبكرا

للبحث في المسائل المستحدثة المستجدة في عالم اليوم تلك التي تحتاج الى بحث وتأصيل فقهي وأصولي لتحديد الموقف الشرعي منها، وقد دون تقريراته تلك سماحة الشهيد السيد عز الدين بحر العلوم في كتابه الموسوم (بحوث فقهية) من محاضرات أستاذه الشيخ الحلي ﷺ.

٧. السيد محمد باقر الصدر[٩٨] المستشهد عام (١٤٠٠) هجرية المرجع المجدد والمؤلف لكتابي: (دروس في علم الأصول) الذي سيأتي الحديث عنه لاحقا، و(الأسس المنطقية للاستقراء) من خلال «صياغة مذهب جديد في تفسير كيفية نمو المعرفة البشرية وتوالدها، عبر عن أتجاه آخر في تفسير المعرفة البشرية غير ما كان معروفا بين المذهبين التجريبي والعقلي وهو ما اصطلح عليه بالمذهب الذاتي للمعرفة»[٩٩].

٨. السيد أبو قاسم الموسوي الخوئي[١٠٠] المتوفى عام (١٤١٣) هجرية المرجع الأعلى في عصره وواضع منهجية تألفت من خصائص متعددة قسم من خلالها المباحث الأصولية أسوة بأستاذه الشيخ النائيني الى اقسام أربعة:

أولها: ما يثبت الحكم الشرعي بعلم وجداني.

وثانيها: ما يثبت الحكم الشرعي بعلم جعلي تعبّدي وهو يتضمن مباحث الألفاظ وحجية الظواهر.

وثالثها: ما يعيّن الوظيفة العملية الشرعية.

ورابعها: ما يعيّن الوظيفة الشرعية بحسب حكم العقل. ثم قال: فهذا كله فهرس المسائل الأصولية وترتيبها الطبيعي[١٠١].

كما ألّف سماحته (قدس) كتاب (معجم رجال الحديث) في أربعة وعشرين مجلدا وهو المصنف المهم في استيعابه وحسن تبويبه وجدته في الطرح والمعالجة: «بما وضع من أسس علمية رصينة في علم الحديث والرواية من جهة وفن علم الرجال وسنن الجرح والتعديل من جهة أخرى وما اضافه من نظام القبول والرفض والروايات وما بينه من توثيق الرواة أو ردّهم وما سجله من عدد الروايات وأماكنها من الكتب ومظانّها

في الموسوعات الحديثية»[١٠٢].

٩. السيد محمد تقي الحكيم[١٠٣] المتوفى عام (١٤٢٣) هجرية المفكر المجدد والعميد الثاني لكلية الفقه في النجف الأشرف والمؤلف لكتابي: (الأصول العامة في الفقه المقارن) الرائد والمرجع الأهم في الدراسات الأصولية المقارنة كما سيأتي، و(عبد الله بن عباس: حياته وآثاره) الكتاب التحليلي لخلفيات ما جرى قبل وبعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله من تداعيات مؤسفة أدت فيما أدت اليه من خروج على النص.

وهناك عدد كبير من هؤلاء العلماء الأعلام والمجتهدين المجددين ممن خرجتهم حوزة النجف الأشرف أصبح غالبيتهم مراجع تقليد للمؤمنين لا يمكنني تبيان أدوارهم وأسمائهم (ينظر الملحق الأول) جزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خيرا وحشرهم بما قدموه لفقه محمد وآل محمد مع محمد وآل محمد في أعلى عليين ..

هذا وقد استعرض الشيخ محمد مهدي الآصفي الحلقات المتعاقبة لتكامل المنهج العلمي لعلم الأصول خلال هذه الأطوار الثلاثة ابتداء من كتاب (فرائد الأصول) للشيخ الأنصاري الى كتاب (الأصول العامة للفقه المقارن) للسيد محمد تقي المقارن) للسيد محمد تقي الحكيم في سبع حلقات فكانت كالتالي:

- **الحلقة الأولى**: منهجية المحقق الشيخ مرتضى الأنصاري قدس سره.
- **الحلقة الثانية في المنهجية**: تعديل المحقق الشيخ محمد كاظم الخراساني قدس سره.
- **الحلقة الثالثة**: دور المحقق الشيخ محمد حسين النائيني في التفكيك بين الإمارات والأصول قدس سره.
- **الحلقة الرابعة**: منهجية المحقق الشيخ محمد حسين الأصفهاني قدس سره.
- **الحلقة الخامسة**: منهجية المحقق السيد أبو قاسم الموسوي الخوئي قدس سره.
- **الحلقة السادسة**: منهجية المحقق السيد محمد باقر الصدر قدس سره.
- **الحلقة السابعة وهي الأخيرة**: منهجية المحقق السيد محمد تقي الحكيم قدس سره[١٠٤].

ثم من أعقب هؤلاء المصلحين والفقهاء من مراجع التقليد اليوم وزعماء حوزتها العلمية الحالية في النجف الأشرف المتصدين للبحث والتحصيل والعلم ولهموم العراق والأمة في آن واحد والحاضرين في عقول وقلوب وأفئدة المؤمنين بما يغني عن التعريف، وهم كل من: أصحاب السماحة المرجع الديني الأعلى السيد علي الحسيني السيستاني ، والمرجع الديني الكبير السيد محمد سعيد الحكيم، والمرجع الديني الشيخ محمد أسحاق الفياض، والمرجع الديني الشيخ بشير النجفي (دام ظلهم) (ينظر المحلق الثاني).

ثم من أعقبهم من أساتذة البحث الخارج والسطوح العالية المعاصرين في حوزة النجف الأشرف اليوم ممن يرجى لهم التقدم في مضمار البحث العلمي والتحصيل وصولا الى المراتب العالية مستقبلا (ينظر المحلق الثالث) أخذ الله بأيديهم جميعا لما يحبه ويرضاه.

ولا يفوتني وأنا في ختام حديثي عن حوزة النجف الأشرف أن اشير الى غنى وعمق وثراء وجدة وأصالة ما قدمته الحوزة العلمية في النجف الأشرف في غير مجالي علم الفقه وأصوله من كتب ورسائل وبحوث وتصانيف وآراء ونظريات في مجالات علمية وأدبية عديدة أخرى كالتفسير والحديث والتأريخ والتراجم والسير والفلسفة والحكمة والكلام والأخلاق واللغة والأدب العربي بشعره الغزير ونثره وغير ذلك من المعارف والعلوم الإنسانية الأخرى مما لا يسع المجال للتنويه بها في هذا الموجز قد ساهمت جميعها بشكل فاعل في تقدم البحث المعرفي في حضارة النجف الأشرف العلمية رغم حملات التصفية والإلغاء والحصار والكبت والتضييق والمطاردة والخنق بما لا يلم بأطرافه كتاب مختصر ككتابي هذا.

إن كل هذا الغنى الفكري والتنوع المعرفي والتراكم العلمي قد ترك بصماته واضحة على حاضر هذه الجامعة العلمية العريقة ومستقبلها الواعد المنتظر.

الهوامش

(١)سورة التوبة: آية ١٢٢.

(٢) الشيخ الطوسي (٣٥٠ ـ ٤٦٠) تلميذ الشريف المرتضى وفقيه الشيعة ومتكلمها وشيخها في عصره. درّس في داره بالمحلة المعروفة بمحلة المشراق اليوم في النجف وتوفي ودفن فيها بعد أن تولى غسله وتكفينه ودفنه تلميذه الشيخ حسن بن مهدي السليقي والشيخ الحسن بن عبد الواحد العين زربي والشيخ اللؤلؤي، وقد حولت داره وبعد دفنه فيها مسجدا يسمى بأسمه في الشارع الذي يسمى اليوم بأسمه أيضا قرب باب الصحن العلوي المسماة بأسمه كذلك. له من الكتب المطبوعة غير ما تقدم كثير منها: التهذيب في ١٠ أجزاء، والاستبصار في ٤ أجزاء والتبيان في تفسير القرآن في ١٢ جزء، تلخيص الشافي في ٤ أجزاء. الفهرست. الخلاف. المبسوط. الاقتصاد. مصباح المجتهد. النهاية. الغيبة.

(٣) معجم البلدان ٢ص٣٤٢.

(٤)ينظر: تاريخ التشريع الإسلامي.د. الشيخ عبد الهادي الفضلي: ٤٠٣.

(٥) الدور الأول لجامعة النجف. بحث للشيخ محمد جواد الفقيه. موسوعة النجف الأشرف: ٦ص١١٠.

(٦) التدريس في النجف.د. الشيخ عبد الهادي الفضلي. دائرة المعارف الإسلامية الشيعية: سابق ١٠ص٣٧٤.

(٧) الشيخ إغا بزرك الطهراني في مقدمة تفسير التبيان.

(٨) لسان الميزان: ٢ص٣٥٠.

(٩) الشيخ إغا بزرك الطهراني في مقدمة تفسير التبيان.

(١٠) تدل كلمات رجال العلم وأهل التاريخ على علو شأنه وسمو مكانه وقد أحيى ذكر أبيه وحاز المرجعية والثقة عند الطائفين فهو إمام ابن إمام واستمر العلم والحديث في بيته عشرات من الأعوام، روى عن والده وجماعة من معاصريه وقد روى عنه كثيرون (بنظر: ماضي النجف وحاضرها. سابق: ٢ص ٤٧٤ـ ٤٧٥.

(١١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب ابن العماد الحنبلي: ٤ص١٢٦.

(١٢) سياسي بارز وثائر من كبار الثوار ضد الاحتلال الانكليزي للعراق سنة ١٩١٤م وبعدها ومن مشاهير الأدباء والشعراء والمؤرخين العراقيين، ولد في النجف الأشرف وتتلمذ على يد المرجع الشيخ محمد كاظم الخرساني صاحب الكفاية، شغل عدة مناصب تشريعية وتنفيذية متقدمة في البرلمان العراقي والحكومة. من كتبه المطبوعة: مؤرخ العراق ابن الفوطي، ابن خلكان وفن الترجمة، أصول ألفاظ اللهجة العراقية، بين

مصر والعراق، تراثنا الفلسفي، لهجات الجنوب، التربية في الإسلام، ديوان شعر كبير، مذكرات مهمة تؤرخ لثورات النجف وثورة العشرين وغيرها نشر قسم منها في دورية عراقية.

(١٣) محمد بن أبي القاسم الطبري المعروف بعماد الدين الطبري ترعرع في أسرة علمية تضم العلماء والمجتهدين، فوالده أبو القاسم محمد بن علي من علماء الشيعة الكبار وكذلك جده يعد من أعلام الشيعة ووجهائها. كان على قيد الحياة إل سنة ٥٥٣ هجرية بدأ دراسته في الحوزة العلمية في مدينة النجف الأشرف فحضر دروس كبار العلماء من أمثال أبي علي الطوسي ابن الشيخ الطوسي وتلقى منهم العلماء والمعارف الإلهية حتى وصل إلى إعلى درجات العلم والاجتهاد ثم شرع بالتدريس وتربية الطلاب من الناحية العلمية والأخلاقية يأتي في مقدمتهم سعيد بن هبة الله الراوندي المعروف بقطب الدين الراوندي ومحمد بن جعفر المشهدي مؤلف كتاب المزار المعروف. من أهم مؤلفاته: بشارة المصطفى ﷺ لشيعة المرتضى عليه السلام وهو أشهر كتاب للطبري ويقع في ١٧ جزءا ولكن الذي وصل إلينا منها ١٠ اجزاء وضاع الباقي. وله ايضا كتاب: الزهد والتقوى. وشرح مسائل الذريعة الذي هو من تأليف السيد المرتضى علم الهدى المتوفي سنة ٤٣٦هـ وغيرها.

(١٤) محمد بن منصور بن أحمد بن أدريس الحلي المتوفي سنة ٥٩٨هـ الفقيه الجريء الذي استطاع أن يتخطى النظر إلى ما قيل بدلا عن النظر إلى من قال كاسرا هيبة النقد العلمي لآراء الشيخ الطوسي التي بقيت مسيطرة حتى جاء ابن إدريس ففتح باب النقاش العلمي وإن معها مجددا رافضا العمل بخبر الواحد غير المحفوف بالقرينة حاذيا حذو الشيخ المفيد والسيد المرتضى بيد أن مذهب الشيخ الطوسي العامل بخبر الواحد المعتبر وإ لم يكن محفوفا بالقرينة هو المذهب المعتمد عليه إلى اليوم . ومن أهم كتبه: السرائر.

(١٥) هو الشيخ سديد الدين محمود بن علي بن الحسن الحمصي الحلّي الرازي. كان على قيد الحياة سنة ٦٠٠هـ أصولي فقيه ومناظر قوي الحجة والبيان وشاعر وأديب، وروى عند عدد من المشايخ منهم: الشيخ ورّام بن أبي فراس. له مؤلفات كثيرة منها: (المصادر في أصول الفقه)، و(نقض الموجز)، و(التبين والتنقيح)، و(بداية الهداية)، و(الأمالي العراقية) و(التعليق الكبير)، و(التعليق الصغير).

(١٦) ولد سنة ٧٥٧ في الحلة وتتلمذ علي يد أكابر العلماء أمثال الشيخ علي بن الخازن الحائري والشيخ أبي الحسن علي بن الشهيد الأول، وروى إجازة وقراءة عن الفاضل المقداد السيوري وابن المتوج البحراني

وغيرهما. بقي فترة مدرسا في المدرسة الزينبية في الحلة السيفية، ثم انتقل إلى كربلاء فأزدهرت بأنتقاله الحركة العلمية فيها، عرفت عنه رياضته وعبادته ومناظراته ومن أهمها تلك التي وقعت في زمان الميرزا أسبند التركماني الذي كان واليا على العراق حيث تصدى ابن فهد لإثبات مذهبه وإبطال مذهب غيره من المناظرين له في مجالس الميزرا التركماني المذكور فغلب جميع علماء العراق، فأنتقل الميرزا المذكور إلى مذهبه وجعل السكة والخطبة بأسم أمير المؤمنين وأولاده الأئمة الأحد عشر عليهم السلام ويبدو أن المناظرة فقدت حيث لم يعثر لها على أثر إلى الآن حسب علمي، تتلمذ على يدي ابن فهد العديد من العلماء أبرزهم الشيخ علي بن هلال الجزائري: وهو من أجلة تلامذته وأستاذ الشيخ الكركي، ودفن ابن فهد بكربلاء، وبجنبه شارع بأسمه، وقبره اليوم مدرسة علمية.

(١٧) شاع في كتابات العديد من الباحثين الذين أرخوا للحوزة العلمية أنها انتقلت عن مدينة النجف الأشرف إلى غيرها ثم عادت مجددا إلى النجف بيد أن عملية الانتقال هذه والعودة منها إلى النجف ثانية والأدلة التي تساق للتدليل عليها تبدو لي غير مقنعة، فأنا ميّال إلى أن فتورا علميا كان يعتري الحوزة العلمية النجفية لأسباب عديدة مترافقا مع نشاط علمي ملحوظ في حوزات علمية في مدن أخرى في الفترة نفسها هو ما كان يوحي للباحثين بأنتقال الحوزة العلمية عن النجف وعودتها اليها مجددا. ولعلي أوفق للتدليل على ما ذهبت اليه في مجال آخر.

(١٨) دائرة المعارف الإسلامية الشيعية. السيد حسن الأمين: ١٠ص٣٧١ـ٣٧٢.

(١٩) ينظر: مع علماء النجف الأشرف. السيد محمد الغروي ١ص١٠٨. و١ص١٦٢ و١ ص١٧٦ ـ ١٧٧ و١ص١٩٥ و١ ص٢١٧ و١ص٢٥٧.

(٢٠) ينظر المصدر السابق: ١ص٣٤٩ و١ص٤٦٦ـ٧٤٧ و٢ص٤٩ـ٥٨٣.

(٢١) الحسن بن يوسف من كبار علماء الإمامية وبخاصة في الفقه حيث ألف العديد منها ما بين موسع ومتوسط ومختصر أشهرها المختلف والتذكرة والمنتهى والقواعد والتحرير وتبصرة المتعلمين، ألف في الفقه المقارن كما فعل الشيخ الطوسي والمحقق الحلي، كان له باع مشهور في علم الأصول حيث ألف فيه كتبا متدرجة من أهمها نهاية الوصول إلى علم الاصول وتهذيب الوصول إلى علم الأصول ومبادئ الوصول إلى علم الأصول، وقد برع إضافة لذلك في العلوم العقلية والفلسفية فناقش معاصره الشهير في العلوم العقلية الشيخ نصير الدين الطوسي بل والرئيس ابن سينا وله في فن المناظرة

والجدل وعلم الكلام كتب عديدةً وقد أوصل بعض المحققين تآليفه ورسائله إلى ما أربى على المائة. وقد اشتهر بتشيع السلطان محمد خدابنده على يديه.

(٢٢) توفي في النجف ودفن في الحجرة المتصلة بالرواق في الصحن العلوي الشريف. درس العلوم العقلية بشيراز ثم اقتصر في دراسته على النقليات من أواسط عمره حتى توفي. له من الكتب: آيات الأحكام. أصول الدين. إثبات الواجب. حاشية شرح التجريد. حديقة الشيعة. مجمع الفائدة والبرهان في شرح أرشاد الأذهان وقد يسمى بحاشية الإرشاد أو مجمع الفائدة أو البرهان. وللشيخ هالة قدسية خاصة مكنته من أحتلال قلوب المؤمنين وفرضت له احتراما بالغا وتبجلا في قلوب سلاطين عصره.

(٢٣) ينظر: تاريخ التشريع الإسلامي. الدكتور عبد الهادي الفضلي: ٨٩ وكذلك: تاريخ وتطور الفقه والأصول في حوزة النجف الأشرف العلمية. السيد محمد جعفر الحكيم: ١٣ وما بعدها.

(٢٤) تاريخ وتطور الفقه والأصول في حوزة النجف الأشرف.سابق: ١١٥.

(٢٥) المصدر السابق: ١١٥ ـ ١١٦.

(٢٦) علي بن الحسين بن موسى، ولد سنة ٣٥٥هـ تلميذ الشيخ مفيد والمتأثر بمنهجه الفكري. تولى نقابة الطالبيين وإمارة الحاج والمظالم بعد أخيه الشريف الرضي وأبيه. برع في علوم عدة أهمها الفقه والكلام وأصول الفقه والشعر والأدب، نشّط نوادي العلم وأوقف قرية على تأمين الورق للفقهاء للكتابة والاستنساخ. من مؤلفاته الكثيرة: الانتصار فيما اختلف فيه الإمامية وغيرهم. الذريعة إلى اصول الشيعة في علم أصول الفقه. الناصريات. رسائل السيد المرتضى. وله ديوان شعر مطبوع.

(٢٧) تقدم التعريف به في متن الكتاب.

(٢٨) يرتفع نسبه إلى مدينة تون قرب مدينة قائن، وهي في مقاطعة خراسان جنوب شرق مشهد الإمام الرضا عليه السلام، سكن اصفهان أول الأمر ثم استقر في مشهد الإمام الرضا بخراسان ومنها قصد العراق للزيارة. اهم كتبه: الوافية وهو من كتب الأصول المهمة، وقد شرحه السيد صدر الدين القمي المتوفي سنة ١١٧٠ هجرية ورغم أن هذا الكتاب قد ألف بعد كتاب المعالم وحوى تقسيما ملفتا للنظر مضيفا فيه جديدا على من سبقه من الاصوليين كالعلامة الحلي والمحقق والطوسي والمرتضى إلاّ أنه لم يحظ بالاهتمام بمثل ما حظي به كتاب المعالم. وكان الشيخ زاهدا عابدا، توفي في كرمنشاه ودفن فيه.

(٢٩) مقدمة تحقيق كتاب الوافية في أصول الفقه. السيد محمد حسين الرضوي الكشميري: ٢٧.

(٣٠) ولد بقرية دوان سنة ٨٢٠ هجرية وسكن مدينة شيراز وقد استطاع بفضل نبوغه المبكر الي الترقي في مدارج العلم والحكمة سريعا فنال احترام الاربين والأبعدين. عين قاضي القضاة في مملكة فارس وجال البلدان العربية واستوطن النجف الأشرف فترة من الزمن. توفي في مسقط رأسه دوان ودفن بها وقد علت قبرة قبة إلى جانبها منارة. من كتبه: التوحيد. حل مغالطة ابن كمونة. استكاكات الحروف.

(٣١) لمحة مسيرة من مدرسة النجف الفلسفية. الشيخ عبد الجبار الرفاعي. بحث. مجلة الفكر الإسلامي. العدد ١٢ لسنة ١٤١٦ هجرية ص ١٣٩ نقلا عن الضياء اللامع في القرن التاسع للشيخ أغا بزرك الطهراني: ٣٣ والذريعة إلى تصانيف الشيعة له أيضا: ١٢ص٦٣.

(٣٢)ينظر: معجم الرجال الفكر والأدب في النجف خلال ألغ عام.د. الشيخ محمد هادي الأميني: ٢ص٥٧٧.

(٣٣) أحد أبرز اساتذة الفلسفة والحكمة في النجف في القرن العاشر وأستاذ صاحب المعالم وصاحب المدارك في المعقول، من أشهر كتبه العديدة كتاب (الحاشية ملا عبد الله) على كتاب التهذيب في علم المنطق للتفتازاني الذي انتهى من تأليفه في سنة ٩٦٧ هجرية جوار الحضرة العلوية المشرفة، فقد استحوذ هذا المؤلف على حلقات درس هذا العلم وتدريسه في حوزة النجف والحوزات العلمية الأخرى منذ عصر مؤلفه واشتهاره وحتى ظهةر وانتشار كتاب المنطق للشيخ محمد رضا المظفر له من المؤلفات الأخرى: حاشية على شرح الشمسية، حاشية على مبحث الجواهر من شرح التجريد وشرح العجالة وهو حاشية حاشية الدواني.

(٣٤) مجتهد معروف، بالفضل والعلم والتقوى والزهد والورع حتى لقب بالمقدس، قرأ العلوم الشرعية على أكابر علماء عصره وقرأ العلوم العقلية على يد المولى جمال الدين محمود تلميذ جلال الدين الدواني المعروف بالدقة العقلية، تخرج على يديه العديد من العلماء والباحثين وقد اقتصر في أواسط عمره على النقليات إلى ان توفى بعد أن عزف عن العلوم العقلية التي برع فيها قبل ذلك. توفي في النجف الأشرف ودفن بالرواق العلوي المطهر. له من التصانيف: غير ما تقدم: أصول الدين. استيناس المعنوية، حاشية شرح التجريد للقوشجي، حديقة الشيعة، حاشية مختصر الاصول، الخراجية، وغيرها.

(٣٥) ولد الشيخ في الجزائر وهي ناحية قرب محافظة الجزائر ونشأ نشأة علمية في النجف الأشرف حيث تلقى علومه على أبرز علمائها وفقائها ومدرسيها ثم توجه إلى كربلاء المقدسة ليعيش فيها بقية عمره الشريف.

عرف بأهتمامه الكبير بعلم الرجال والحديث والفقه. له من الكتب إضافة لما تقدم مؤلفات في الفقه.

(٣٦) كتابة التاريخ في النجف الأشرف في العصر العثماني. د.عماد عبد السلام رؤوف. بحث ضمن بحوث كتاب النجف الأشرف ودورها في إثراء المعارف الإسلامية: ١٤٤.

(٣٧) من تلاميذ المقدس الاردبيلي ومن أسرة علمية معروفة فقد كان والده من اكابر العلماء كذلك. تصدى الأمير فيض الله للتدريس فتخرج على يديه ثلة من العلماء والفقهاء والمتكلمين، حاز قصب السبق في علوم عديدة في مقدمتها الفقه والحكمة وعرف بالصلاح والتقوى ولين العريكة ودماثة الخلق والسبق إلى الفضيلة له من الكتب غير مكا تقدم: حاشية المختلف، فوائد متفرقة في تحقيق مسائل أصول الفقه، أصول الأحوال القمرية في شرح الإثني عشرية وغيرها.

(٣٨) ينتهي نسبه إلى الحسن المثنى ابن الإمام السبط الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام. جد الأسرة العلمية (آل الحكيم) وكان معروفا بالعلم والحكمة والفضل والموسوعية إلّا أنه تميز بعلم الطب والأدوية وتمرس بهما فطارت شهرته في البلدان فأختير طبيبا خاصا للشاه عباس الصفوي، وحين غادر الشاه عباس النجف الأشرف بعد زيارته لها بقي السيد علي الحكيم في النجف الأشرف يعالج مرضى المدينة المقدسة حتى توفي فيها ودفن في ترابها الطاهر.

(٣٩) من الفقهاء والمجتهدين العاملين، عني بالحديث وبالرجال واللغة والشعر إضافة إلى الفقه وأصوله وعرف بالزهد والعبادة. ويعد كتابه مجمع البحرين ومطلع النيرين من الكتب الفريدة في بابها، ويقع في خمسة أجزاء، وله من الكتب المطبوعة غيره من اهمها: جامع المقال فيما يتعلق بأحوال الحديث والرجال. وضوابط الأسماء. ومنتخب المراثي والخطب. ونزهة الخاطر وسرور الناظر وتحفة الحاضر. وله العديد من المخطوطات التي لم تطبع. توفي عن مكتبة عامرة فقد الكثير من كتبها المخطوطة والمطبوعة بعد وفاته.

(٤٠) ماضي النجف وحاضرها. سابق: ٢ص٤٥٦. وينظر: كتابة التاريخ في النجف في العصر العثماني. سابق: ١٤٥ـ١٤٧.

(٤١) من كبار تلامذة السيد صاحب المدارك والشيخ البهائي والشيخ حسب صاحب المعالم، ومن أهل الفضيلة والعلم والتحقيق المعروفين في عصره سافر سنة ١٠٠٤ هجرية إلى المشعشعيين ليحيطهم علما بمذهب أهل البيت عليهم السلام من مؤلفاته الأخرى عدا ما ذكر: جامع الاخبار في إيضاح الاستبصار، وكتاب في علم المنطق، وحاشية على كتاب معالم الدين، ورسالة صغيرة في مسألة الاجتهاد

والتقليد.

(٤٢) ماضي النجف وحاضرها. سابق: ٣ص٣٢١.

(٤٣) من علماء الأنساب المشهورين بالإحاطة والدقة، تولى أمر خزانة المكتبة الحيدرية في النجف الأشرف فعمل على تنظيمها وترتيبها وصيانتها وحفظها كما استفاد بدوره من غناها بالكتب العلمية وبخاصة التاريخية منها.

(٤٤) من الفقهاء المحقّين والمحدثين، كتب له العلامة المجلسي إجازتين، كتب في علوم عديدة منها: التفسير والفقه والرجال وعلم الكلام وأصول الفقه وغيرها فأجاد فيها، له من الكتب غير ما تقدم: مرآة الأنوار في التفسير. الصحيفة السجادية. شرح على كفاية السبزواري. شريعة الشيعة: وهو شرح على مفاتيح الملا محسن الفيض. رسالة في حقيقة مذهب الإمامية وبيان أساسه. وغيرها.

(٤٥) يقول الشيخ محبوبة: توجد نسخة نفسية تمتاز بالضبط والإتقان عند الشيخ محمد حسن ابن الشيخ محسن الجواهري (ماضي النجف وحاضرها. سابق: ٣ص٤٦).

(٤٦) من الفقهاء والمحققين ومن أساتذة الحديث والتفسير في النجف الأشرف ويعد من مشايخ الإجازة المعروفين. جمع في حياته مكتبة عامرة بالمخطوطات النادرة تفرقت بعد وفاته بين ورثتهم ولم يعد لها أثر. له العديد من المؤلفات غير ما تقدم منها: ارتداد الزوجة. شرح تهذيب العلامة الحلي. آداب المناظرة.

(٤٧) أديب شاعر وكاتب من معاصري السيد نصر الله الحائري وقد مدحه معاصره الشيخ أحمد النحوي بقصيدة، له من الكتب: بحر الأنساب، وشرح نهج البلاغة، والريحانة في النحو، وديوان شعر وغيرها.

(٤٨) ولد الشيخ النراقي في حدود عام ١١٢٨ هجرية في مدينة نراق وهاجر إلى العراق فتلقى علومه على عدد من العلماء في مقدمتهم الوحيد البهبهاني. ثم رجع إلى كاشان فكتب فيها كتابه (جامع الافكار وناقد الأنظار) في الفلسفة ثم هاجر إلى العراق ثانية ليتوفى في النجف الأشرف وليدفن خلف الحرم العلوي المطهر.

(٤٩) من أبرز مراجع التقليد في القرن الثالث عشر. عدت مرجعيته الدينية نقطة انعطاف في تطور الحوزة العلمية في النجف الأشرف فقد انتجت دراسته التحليلية للرجال الحديث تصحيح الكثير من الروايات التي كانت فيما بعد أساساً أدى إلى تحول واضح في مجال الاستنباط خلق روحا جديدة فيه أدت فيما بعد إلى ما أدت اليه بعده إلى اليوم وفيما بعد من ثمارغاية في الأهمية في مستقبل حوزة النجف. درّس المعالم عشرين دورة وكان

يدون حاشية جديدة في كل مرة. يقول محمد حسين الكرهرودي: شاهدت في مدينة برجرود ١٩ نوعاً منها. من مؤلفاته: الاجتهاد والأخبار، شرح مفاتيح الفيض، حاشية على المعالم . دفن في الرواق الحسيني من حضرة الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء المقدسة بعد أن عمرّ قرابة مائة عام.

(٥٠) تطور الدرس الاصولي في مدرسة النجف الأشرف. السيد منذر الحكيم. بحث مجلة الفكر الاسلامي: العدد ١٦ص١١٦ ـ ١١٧.

(٥١) ينظر: مقدمة الشيخ مهدس الآصفي الواسعة لكتاب الفوائد الحائرية الصادر عن مجمع الفقه الإسلامي في قم المقدسة المعنونة «دور الوحيد البهبهاني في تجديد علم الاصول».

(٥٢) يرتفع نسبه إلى السيد إبراهيم طباطبا بن إسماعيل الديباج بن إبراهيم الغمر بن الحسن المثنى ابن الإمام الحسن السبط عليه السلام ابن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. من كبار الفقهاء والمجتهدين المحققين لقب ببحر العلوم لغزارة علمه وعمق تفقهه في علوم الشريعة. له العديد من المؤلفات غير ما تقدم منها: الدرة النجفية، ومشكاة الهداية، تحفة الكرام، الفرق والملل، شرح باب الحقيقة والمجاز. له أيضاً ديوان شعر كبير.

(٥٣) في الأدب النجفي قضايا ورجال. محمد رضا القاموسي: ١٥٥ـ١٥٦.

(٥٤) من زعماء الحوزة العلمية المشهورين الذين امتدت زعامتهم الدينية إلى الأقطار المختلفة. ولد في النجف الأشرف وتوفي فيها. دافع عن مدينة النجف الأشرف دفاعا مستميتا ضد الغزاة وكانت داره مشجيا للأسلحة وثكنة للجنود والمتطوعين ضد غارات الوهابيين التي حاولت مرارا اقتحام النجف والفتك بها وبأهلها، فأعد العدة للدفاع بحمل أهل العلم والنجفيين على التدريب على حمل السلاح، وقد باشر ذلك بنفسه ومعه أولاده. له العديد من الكتب غير ما تقدم منها: منهج الرشاد لمن أراد السداد في الرد على الوهابية جوابا على رسالة وردته من الأمير الشيخ عبد العزيز بن سعود أمير آل سعود في دولتهم الأولى والمتوفي سنة ١١٧٩ هجرية. إثبات الفرقة الناجية من بين الفرق الأسلامية. بغية الطالب في معرفة المفروض والواجب. أحكام الأموات. العقائد الجعفرية. غاية المأمول في علم الأصول. مشكاة المصابيح. مناسك الحج.

(٥٥) مرجعية التقليد٣. محمد أبراهيم جناتي. دائرة المعارف الإسلامية الشيعية المجلد: ١٠ص ١٣٣.

(٥٦) العبقات العنبرية في الطبقات الجعفرية. الشيخ محمد حسين آل كاسف الغطاء: ٥٧.

(٥٧) من طلاب المجتهدين الكبيرين الوحيد

البهباني المتقدم ذكره والشيخ يوسف البحراني صاحب كتاب الحدائق الناضرة في فقه العترة الطاهرة. جمع فأحسن الجمع بين الفقه وأصوله والأدب والشعر. طبع له ديوانا شعر رائق.

(٥٨) من طلاب الشيخ الوحيد البهبهاني. بذل جهودا كبيرة في تطوير البحوث الأجتهادية وتميز بذاكرة قوية وشجاعة في صد هجمات الوهابيين واصدر رسالة في ذلك. له من الكتب غير ما تقدم: شرح لوافية الأصول للفاضل التوني. حاشية على تهذيب الأصول للعلامة الحلي. تعليقة على كتاب معالم الأصول.

(٥٩) أصولي بارع غير أنه مقل في التصنيف. عرف بشدة ذكائه وسعة علمه وكثرة تتبعه حتى عده البعض من نوابغ الحوزة. من خيار تلامذته: الشيخ علي كاشف الغطاء أستاذ الشيخ مرتضى الأنصاري.

(٦٠) من خريجي مدرسة الوحيد البهبهاني أيضا. تخرج على يديه العديد من الفقهاء. نال قسطا من المرجعية بعد وفاة خاله الوحيد البهبهاني. ترك ثورة علمية كبيرة من الكتب والمؤلفات أحصى السيد محسن الأمين منها في كتابه القيم أعيان الشيعة ١٩ مؤلفا اشهرها كتابه رياض المسائل المتقدم ذكره. دفن في مشهد الإمام الحسين عليه السلام إلى جوار خاله وحيد البهبهاني.

(٦١) من كبار مشاهير الفقهاء والمجددين في أبحاث الفقه عند الإمامية وصاحب التقسيم الرباعي لعلم الفقه حيث بوب علم الفقه الى: العبادات والعقود والإيقاعات والأحكام كما سعى إلى تجديد تبني طريقة الشيخ الطوسي بعد أن تعرضت للنقد على يد إبن إدريس الحلي. تولى الزعامة العلمية والدينية للشيعة الإمامية في الحلة الفيحاء حضارة الحوزة العلمية في عصره له من الكتب الكثير من أهمها عدا المختصر النافع الذي أشرت اليه في المتن كتاب: شرائع الأسلام في مسائل الحلال والحرام، والمعتبر ومعارج الأصول ونهج الوصول إلى المعرفة الأصول ونكت النهاية.

(٦٢) تاريخ وتطور الفقه والأصول في حوزة النجف الأشرف العلمية. سابق: ١٢٤.

(٦٣) من وجوه تلاميذ الوحيد البهبهاني أيضا والمقصود بدليل الانسداد الذي تبناه في كتابه القوانين هو: حكم العقل بلزوم العمل بالظن في الأحكام الشرعية معتمدا على مقدمات ساقها في كتابه. بيد أن المحققين وفي مقدمتهم الشيخ الأنصاري ناقشوه وفندوه.

(٦٤) من طلاب مدرسة الوحيد البهبهاني والمعروفين بالتحقيق في مضمار علم الأصول. اشتهر بحسن بيانه وإعداده لدروسه ومحاضراته في الفقه. من أشهر تلامذته السيد عبد الله شبر. والشيخ محمد تقي الأصفهاني وغيرهم.

(٦٥) من المحققين البارعين في علم الأصول أيضا ومن طلاب السيد محسن الأعرجي والسيد محمد مهدي بحر العلوم وغيرهما. كان مقررا لبحوث السيد بحر العلوم. خصه الشيخ جعفر كاشف الغطاء بعلاقة خاصة حيث زوجه إبنته. عاد من النجف إلى أصفهان فكان أستاذها الأكبر في عصره.

(٦٦) مرجعية التقليد ص ٣. سابق: ١٣٦.

(٦٧) ولد في النجف الأشرف وتلقى علومه فيها على يد السيد بحر العلوم حتى بلغ مرتبة الأجتهاد وهو دون الخامسة والعشرين من العمر وصنف بعض كتبه وهو دون هذه السن وبعد في علمه من طبقة الشيخ محسن الأعسم والشيخ علي آل كاشف الغطاء له في ما تقدم من الكتب: الدلائل في الفقه ورسالة في الأراضي الخراجية، دفن في محلة العمارة وكان الناس يزورون مرقده لقراءة الفاتحة والترحم عليه قبل تهديم دور العلماء وآثارهم ومدارس الحوزات العلمية ومكتباتها القيمة زمن النظام الصدامي البائد.

(٦٨) ماضي النجف وحاضرها: ٣ص ٢٢٥ـ ٢٢٦.

(٦٩) من المحققين البارعين في علم الأصول. تلقى دروسه العليا في حوزة النجف الأشرف على يد أفاضل أساتذتها المحققين. خص صاحب الكفاية مباحث كتابه الفصول بالمناقشة والنقد وبخاصة ما يتعلق منها مباحث الألفاظ سافر إلى أصفهان بعد ذلك. وأكب على الدروس والتحصيل والتدريس فيها أيضا.

(٧٠) أحد أنجال الشيخ جعفر آل كاشف الغطاء المتقدم ذكره، وأحد أكابر الفقهاء ومراجع التقليد في النجف الأشرف بعد وفاة والده الشيخ المرجع، ولد سنة ١٢٠١ هجرية وتولى التدريس بحث الخارج في بيته العامر اقام فترة في الحلة الفيحاء ثم هاجر إلى النجف الاشرف فكان مرجعا للتقليد ومصلحا استطاع بحزمه رد كيد نجيب باشا السفاك الذي استباح دماء أهالي كربلاء الطاهرة حتى عدت واقعته بأهل الطف الواقعة الثانية بعد واقعة كربلاء الحسين عليه السلام كما استطاع الشيخ المرجع إخماد نار الفتنة بين قبيلتي الشمرت والزكرت التي اشتعلت وأشعلت النجف معها وقد تخرج على يديه جملة من العلماء منهم السيد مهدي القزويني والشيخ الأنصاري والشيخ مشكور الحولاوي. من مؤلفاته الأخرى: رسالة في الإمامة. كتاب في الزكاة وغيرها.

(٧١) ولد في النجف الأشرف سنة ١٢٠٠ هجرية واجتهد في الفروع والأصول مشيدا لما بناه أسلافه من والده والسابقين. وقد أمتاز بتعبيره الجميل وبيانه الحسن، تضلع في الفقه والأصول وهو دون العشرين من سنيّ عمره ما لفت نظر الفقيه السيد جواد صاحب

مفتاح الكرامة في إجازته التي منحها إياه حيث قال فيها «ولعمر الله لإن بقي على هذا الحال من الجد والاشتغال لضربت إليه أعناق الفحول من الرجال. كيف لا وقد بلغ قبل العشرين مبالغ قد تقاصر عنها من بلغ الثمانين» (ماضي النجف وحاضرها: ٣ص٢٢٧).

(٧٢) ماضي النجف وحاضرها. سابق: ٣ ص٢٢٧.

(٧٣) من أكابر فقهاء الشيعة في القرن الثالث عشر. أنتهت اليه المرجعية العليا داخل العراق وخارجه وتخرج على يديه العديد من الفقهاء والباحثين وفي مقدمتهم أبناؤه وأهل بيته. له من الكتب غير ما تقدم: تجاه العباد. هداية الناسكين. رسالة في المواريث.

(٧٤) ماضي النجف وحاضرها. سابق: ٣ص٢٢١ وما بعدها.

(٧٥) تاريخ التطور الفقه والأصول في حوزة النجف الأشرف العلمية. سابق: ١٢٦.

(٧٦) جواهر الكلام في ثوبه الجديد. الشيخ خالد الغفوري. مجلة فقه أهل البيت عليهم السلام. العدد ١٨. السنة الخامسة. دائرة معارف الفقه الإسلامي طبقا لمذهب أهل البيت عليهم السلام. قم إيران. ١٤٢١ هجرية ص ٢٠٠٠م. ص: ١٨٣. ومعجم فقه الجواهر وجواهر الكلام في ثوبه الجديد من إصدار دائرة معارف الفقه الإسلامي.

(٧٧) من كبار الفقهاء المجددين في علمي الفقه والأصولومن المعروفين بالزهد والعبادة، مرجع من كبار مراجع الشيعة في العراق وخارجه في وقته. ومن كبار مجددي علمي الأصول والفقه في القرن الثالث عشر. تتلمذ على يديه العديد من الفقهاء والأصوليين الذين كان لهم دور مشهود في تطوير منهجه العلمي في الفقه والأصول. له من الكتب ٢٩ كتابا أو تزيد، منها من غير ما تقدم : إثبات التسامح في أدلة السنن. رسالة في الإرث. التقية. الخمس. الزكاة. الصلاة. تقليد الميت. حاشية القوانين. الاستصحاب. قاعدة لا ضرر ولا ضرار. مناسك الحج. حاشية نجاة العباد. قاعدة ملك شيئا. وغيرها.

(٧٨) من مقدمة كتاب المكاسب للشيخ الأنصاري بقلم الشيخ محمد علي الأنصاري. من تراث الشيخ الأنصاري. إعداد لجنة تحقيق تراث الشيخ الأعظم: ١ص ١٦.

(٧٩) المنهج العلمي لكتاب الأصول العامة للفقه المقارن. سابق: ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٨٠) من كبار علماء الحوزة العلمية النجفية المحققين وأساتذتها وزعيم الحركة الدستورية في النجف الأشرف والمدافع القوي عن أنصارها في تركيا وإيران برسائله وكتبه إلى السلاطين والحكام من جهة والى العلماء يدعم موقفهم منها من جهة ثانية، عمر مجلس بحثه بمئات الباحثين والطلاب

والمجتهدين، وكان حسن البيان. قوي الحجة. صلبا. شجاعا. مهذبا. درس على الشيخ مرتضى الأنصاري والشيخ راضي. تميزت مدرسته الأصولية بالإيجاز والتهذيب، كان في مقدمة مناهضي دعاة الاستبداد، ومن الداعين بحزم إلى الجهاد ضد الغزاة. عزم على السفر إلى خارج العراق للمشاركة في الجهاد إلاّ أنه توفي فجأة بمعسكره بأسباب غامضة..

(٨١) أعيان الشيعة. السيد محسن الأمين: ٩ص٥ـ٦.

(٨٢) مقدمة كتاب كفاية الأصول للشيخ الآخوند الخراساني. السيد جواد الشهرستاني: ٢٦.

(٨٣) سليل أسرة معروفة في بلده وهو ابن شيخ الإسلام فيها. من أكابر المحققين في الأصول، والأخلاق والفلسفة والحكمة، ومن أئمة التقليد والفتيا والمرجعية في النجف الأشرف ومن مشاهير اساتذة بحث الخارج فيها. ومن الجيدين إطلاعا على آداب وشعر شعراء اللغتين العربية والفارسية، إضافة لإجادته الكتابة باللغتين العربية والفارسية. إنشاء وخطا. درس عند الشيخ الآخوند الخراساني زعيم الحركة الدستورية وكان من خاصته وخلص أنصاره. وساهم في أكثر الحركات الإصلاحية في عصره، تبنى الدعوة، بل التنظير ضد الاستبداد داعما تقييد الصلاحية الحكام بشروط محددة ودساتير وقوانين لا يسمح لهم بتجاوزها، وقد أودع نظرياته التنويرية تلك في كتابه القيم: (تنبيه الأمة وتنزيه الملة) المؤلف سنة ١٩٠٩م وهو كتاب رائد في بابه قياسا بزمن تألفه، وقد حضى بأهتمام متزايد بعد تأليفه بعقود من قبل المفكرين المحدثين لسبق تنظيره وعمق مطالبه ومبانيه في طرح مسائل حديثة في الفقه الدستوري من وجهة نظر إسلامية معاصرة، له من الكتب غير ما تقدم: رسالة في المعاني الحرفية. حاشية على العروة الوثقى. حاشية نجاة العباد. رسالة في التزاحم والترتيب، سؤال وجواب عن الأسئلة التي وردته وأجاب عليها وغيرها.

(٨٤) ينظر: ابتكارات الأستاذ الإمام الميرزا النائيني ﷺ في علم الأصول.د.الشيخ محمد حسين الصغير. بحث ضمن بحوث: مدرسة النجف الأشرف ودورها في إثراء المعارف الإسلامية. كلية الفقه ٧ـ١٨.

(٨٥) تطور البحث الأصولي في مدرسة النجف الأشرف. سابق: ١٣٠.

(٨٦) طبقات أعلام الشيعة، نقباء البشر في القرن الرابع عشر. الشيخ أغا بزرك الطهراني. ٢ص٥٩٤.

(٨٧) من أكابر المحققين في الأصول، ومن أئمة التقليد والفتيا والمرجعية في النجف الأشرف. درس عند الشيخ الآخوند الخراساني والسيد محمد كاظم اليزدي وشيخ الشريعة

الأصفهاني وكان زاهدا، له من الكتب: بدائع الأفكار في الأصول. مقالات الأصول. روائع الأمالي في فروع العلم الإجمالي. حاشية موسعة على العروة الوثقى. شرح التبصرة . استصحاب العدم الأزلي. حاشية جواهر الكلام. وغيرها.

(٨٨) من أكابر المحققين في الأصول والفلسفة، ومن أساتذة البحث المشهورين ببراعتهم في علوم عدة إضافة إلى الفقه وأصوله كالتاريخ والتفسير والعرفان والأدب. وقد نظم الشعر باللغتين العربية والفارسية. درس عند الشيخ الآخوند الخراساني. وغيره. له آراء خاصة تتميز بالعمق والجدة والدقة في أصول الفقه والحكمة والعرفان. من مؤلفاته: الأنوار القدسية. الحقيقة الشرعية. الطلب والإرادة، نهاية الدراية في شرح الكفاية.

(٨٩) الشيخ محمد رضا المظفر، نقلا عن تطور الدرس الأصولي في مدرسة النجف الأشرف. سابق: ١٣٣.

(٩٠) من مقالات الأصول للمحقق الشيخ ضياء الدين العراقي. بقلم الشيخ محمد مهدي الآصفي: ١ص٢٠.

(٩١) ولد سنة ١٢٤٧ هجرية وحضر الأبحاث العالية على يد الشيخ مهدي كاشف الغطاء والشيخ راضي النجفي وغيرها ثم استقل بالتدريس فتخرج على يديه عدد كبير من علماء الحوزة العلمية ومجتهديها. أفتى بالجهاد ضد التدخل الإيطالي في ليبيا وكذلك ضد الاحتلالين البريطاني لجنوب إيران والروسي لشمالها وله مواقف مشهودة ضد الاحتلال البريطاني للعراق في قيادة حركة المقاومة ضد الهجوم الإنكليزي على النجف الأشرف. أسس مدرسة علمية من أهم مدارس النجف الأشرف من حيث السعة وجمال العمارة له من الكتب عديدة منها غير ما ذكر: حاشية على المكاسب الصحيفة الفاطمية. رسالة في التعادل والتراجيح وغيرها.

(٩٢) ولد سنة ١٢٨٤ هجرية أكمل دراسته العليا على يد الشيخ حبيب الله الرشتي والشيخ محمد كاظم الخراساني وغيرهما من المراجع والعلماء تخرج على يديه المئات من الفقهاء والمحصلين يأتي في مقدمتهم مراجع التقليد: أصحاب السماحة السيد محسن الحكيم والسيد محمد هادي الميلاني والشيخ محمد تقي بهجت والسيد عبد الله الشيرازي (قدس الله أسرارهم) وغيرهم.

(٩٣) ولد في النجف عام ١٢٩٤ هجرية تتلمذ علي يد الشيخ محمد كاظم الخراساني والسيد محمد كاظم اليزدي والشيخ أغا رضا الهمداني وغيرهم من فطاحل العلماء وقد انقادت له الخطابة والبلاغة كانقياد العلم والتحقيق فحضر العديد من المؤتمرات الإسلامية العربي في فلسطين ومصر والشام والهند وباكستان أشهرها المؤتمر الإسلامي العربي في

القدس سنة ١٣٥٠ هجرية فقدمه الحاضرون للصلاة إماما في المسجد الأقصى الشريف حيث ألقى خطبته العصماء في شارك في الجهاد ضد الإنكليز استجابة لدعوة المجتهد السيد محمد سعيد الحبوبي﵀ كما كان له القدح المعلى في المطالبة بحقوق الشيعة المضطهدين في عصره. أسس مدرسة علمية حاول فيها تنظيم الدراسة الدينية كما سيأتي له من الكتب الكثير منها أصل وأصولها الآيات البينات التعليق على ديوان السيد محمد سعيد الحبوبي.

(٩٤) من أسرة عرفت في أواسط القرن الثاني عشر الهجري بالعلم فكان أبوه وأخواه وهو من المجتهدين. تضلع بالأصول والفلسفة والعقائد والأدب. أحد أعضاء جماعة العلماء التي تصدت بمباركة المرجع الأعلى السيد محسن الحكيم لمقاومة الانحرافات الفكرية والسياسية في العراق فأبلت بلاء حسنا. من رواد الاصلاح الكبار العاملبن في الحوزة العلمية النجفية. أسس مع إخوانه جمعية منتدى النشر وتولى رئاستها. ثم كلية الفقه في النجف الأشرف وتولى عمادتها. انتخب عضوا في المجمع العلمي العراقي. أديب روائع وشاعر مجيد ولغوي مميز وأصولي وفيلسوف. غزير النتاج. له من المؤلفات غير ما تقدم: السقيفة. محاضرات في الفلسفة. كتاب في تفسير القرآن. كتاب في المورايث. مذكراته الشخصية. ديوان شعر.

(٩٥) من أسرة علمية معروفة. يرتفع نسبها إلى السيد إبراهيم طباطبا بن إسماعيل الديباج بن إبراهيم الغمر بن الحسن المثنى ابن الامام الحسن السبط عليه السلام ابن الأمام علي ابن ابي طالب عليه السلام. توفي والده وهو ابن ست سنوات. جاهد مع المرجع السيد محمد سعيد الحبوبي ضد الإنكليز خلال غزوة العراق سنو ١٩١٤م وكان ساعده الأيمن في ساحة المعركة. امتدت مرجعيته إلى أنحاء العالم في شرق الأرض وغربها. كان له حضور فعلي في الشأن الأجتماعي ـ السياسي في العراق والعالم الإسلامي. قاوم الأفكار المنحرفة والحكومات الطائفية في العراق بضراوة فأستشهد له من أبنائه وأحفاده وأسرته العشرات. له عدة مؤلفات منها غير ما تقدم: حقائق الأصول. نهج الفقاهة. منهاج الصالحين. دليل الناسك.

(٩٦) أدوار الفقه الإسلامي الشيعي. الشيخ محمد إبراهيم الجنّاتي. بحث. مجلة الفكر الإسلامي. العدد الثامن من السنة الثانية ١٤١٥ هجرية: ١٣٢ـ١٣٣.

(٩٧) ولد في النجف الأشرف عام ١٣٠٩ هجرية حضر الأبحاث العالية في الفقه والأصول على يد أكابر المحققين كالشيخ النائيني والشيخ العراقي وغيرهما كما تخرج على يديه العديد من فطاحل العلماء من أمثال

المرجع الأعلى اليوم السيد علي السيستاني والمرجع الكبير السيد محمد سعيد الحكيم وغيرهما من العلماء والأعلام الكثيراً وقد كان المرجع الأعلى في عصره الإمام السيد محسن الحكيم يجعله كثيرا ويبجله. جاهد مع من جاهد من العملاء ضد الأحتلال البريطاني للعراق ضمن قاطع البصرة. وكان محبا للأدب متواضعا. من بعض كتبه: رسالة في معاملة اليانصيب، الأوضاع اللفظية وأقسامها.

(٩٨) من مراجع التقليد في النجف بعد وفاة الإمام الحكيم. ومن المنظرين ورواد الحركة الإسلامية في العراق. ولد في ظل أسرة علمية في الكاظمية ودرس في مدراس منتدى النشر فيها ثم انتقل إلى النجف ليواصل دراسته الحوزوية فيها. جاهد ضد النظام البعثي الطائفي في العراق وأفتى بتحريم الانتماء اليه فأعتقل أكثر من مرة ثم أستشهد مع أخته الفاضلة بنت الهدى. كتب دستورا لدولة إسلامية وأرسله إلى الإمام بعد انتصار الثورة الإسلامية فيها. له العديد من المؤلفات غير ما ذكرما تقدم منها: فلسفتنا، اقتصادنا، البنك اللاربوي في الإسلام، الفتاوى الواضحة، بحوث حول الولاية، بحوث حول المهدي، فدك في التاريخ.

(٩٩) منهج التاصيل النظري في فكر الإمام الصدر. بحث. الأستاذ عبد الجبار الرفاعي. منشور ضمن كتاب: محمد باقر الصدر دراسات في حياته وفكره: ١٤٤.

(١٠٠) امتدت مرجعيته بعد وفاة الإمام الحكيم إلى أنحاء العالم في شرق الأرض وغربها. عكف على البحث والتدريس طيلة عمره الشريف منذ عام ١٩٤٠ـ ١٩٩٢م فتخرج على يديه المئات من الفقهاء والمجتهدين ومراجع التقليد اللاحقين. له تصدى لترشيد الانتفاضة الشعبانية ضد نظام صدام الظالم سنة ١٩٩١م فتعرض للأعتقال مع العشرات من العلماء والمحققين في حوزة النجف الأشرف جراء موقفه وموقفهم القوي. هذا له عدة مؤلفات منها غير ما تقدم: البيان في تفسير القرآن. مباني تكملة منهاج الصالحين. أجود التقريرات. مستحدثات المسائل. تكملة منهاج الصالحين المسائل المنتخبة. تعليقة على العروة الوثقى. وغيرها.

(١٠١) ينظر: تطور الدرس الأصولي في مدرسة النجف الأشرف. سابق: ١٣٤.

(١٠٢) أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف. الدكتور الشيخ محمد حسين الصغير: ٢٩٥.

(١٠٣) من مجتهدي الحوزة العلمية في النجف ومن أساتذة البحث الخارج فيها. رفض التصدي للمرجعية رغم محاولات العديدين. منظّر. ومنهجي واديب وشاعر

ورائد من رواد الإصلاح في الحوزة النجفية، وعمد من أعمدة منتدى النشر وعميد لكلية الفقه بعد الشيخ المظفر. رائد انفتاح الحوزة العلمية النجفية على الجامعات الإكاديمية، وأول حوزوي منح درجة (الأستاذية) من جامعة بغداد من دون الوصول اليها عبر دراسة نظامية ليلقي المحاضرات على طلبة الدراسات العليا ويشرف ويناقش أطروحات طلاب الدراسات العليا فيها. انتخب عضوا في المجامع العلمية واللغوية العربية في بغداد ومصر وسورية والأدرن.

رائد في معالجة الأبحاث اللغوية الأصولية بروح لغوية ، وأبرز من تصدى من الأصوليين للبحث المستقل عن المسائل اللغوية الأصولية. له من المؤلفات غير ما تقدم منها: القواعد العامة في الفقه المقارن. من تجارب الأصوليين في المجالات اللغوية: مالك الأشتر، شاعر العقيدة، التشيع في ندوات القاهرة.

(١٠٤) ينظر: المنهج العلمي لكتاب الأصول العامة للفقه المقارن للسيد محمد تقي الحكيم، بقلم الشيخ محمد مهدي الآصفي: ١٣١ـ١٤٩.

عمار البغدادي
باحث وكاتب إسلامي من العراق

مبادئ الدولة والقيادة

مقاربة في رؤى الميرزا النائيني ـ والإمام السيستاني

لم تتسنَّ للسيّد السيستاني الظروف التي توفرت للنائيني ومكنته من التعبير عن صياغة أفكاره بالشكل المكتمل الذي ظهرت فيه في كتاب (تنزيه الملة)، لذلك لا نجد رؤية مفصّلة وموثقة بعنوان الدولة لسماحته، وعلينا البحث والتمحيص والاستقراء في آراء الإمام التي تمتلك أهمية استثنائية، لكونها تصدت لواقع دولتي على أرض العراق إثر انهيار النظام البائد، وقيام عراق جديد على أنقاضه، بكلّ ما يحمله وحمله من تحديات وأسئلة مصيرية يتوقف على صوابية الإجابة عنها مستقبل العراق وشعبه، لا بل وجوده (الجغرافي والإقليمي) كما عهدناه، أخذين بعين الاعتبار أنّ مكونات الشعب العراقي وأطيافه المتنوعة دخلت هذه الحقبة الجديدة وهي مثخنة بجراح المرحلة السابقة، من قتل وسفك دماء، وتهجير، وقمع عز نظيره، وتاريخ عقدين من الصراعات والحروب الإقليمية، وما تلاهما من حصار أصاب بنتائجه المدمرة الطبقات الشعبية الفقيرة، وجموع الأطفال والنساء والشيوخ، وانهيار المستوى الاقتصادي للناس إلى درجة مرعبة عز فيها الدواء والغذاء.

مقدّمة

لم تتسنَّ للسيّد السيستاني الظروف التي توفرت للنائيني ومكنته من التعبير عن صياغة أفكاره بالشكل المكتمل الذي ظهرت فيه في كتاب (تنزيه الملة)، لذلك لا نجد رؤية مفصّلة وموثقة بعنوان الدولة لسماحته، وعلينا البحث والتمحيص والاستقراء في آراء الإمام التي تمتلك أهمية استثنائية، لكونها تصدت لواقع دولتي على أرض العراق إثر انهيار النظام البائد، وقيام عراق جديد على أنقاضه، بكلّ ما يحمله وحمله من تحديات وأسئلة مصيرية يتوقف على صوابية الإجابة عنها مستقبل العراق وشعبه، لا بل وجوده (الجغرافي والإقليمي) كما عهدناه، أخذين بعين الاعتبار أنّ مكونات الشعب العراقي وأطيافه المتنوعة دخلت هذه الحقبة الجديدة وهي مثخنة بجراح المرحلة السابقة، من قتل وسفك دماء، وتهجير، وقمع عز نظيره، وتاريخ عقدين من الصراعات والحروب الإقليمية، وما تلاهما من حصار أصاب بنتائجه المدمرة الطبقات الشعبية الفقيرة، وجموع الأطفال والنساء والشيوخ، وانهيار المستوى الاقتصادي للناس إلى درجة مرعبة عز فيها الدواء والغذاء، في الوقت الذي استأثرت السلطة الغاشمة وبطانتها بمكانتها بالثروة الوطنية، وعملت على تبديدها أمام عيون ومرأى الجموع الجائعة للخبز والحرية والكرامة.

كان الإمام بحكمته يدرك ما يمكن أن تولده هذه الشروط المتطرفة على كل المستويات من مفاعيل جمعية نفسية لدى مكونات الشعب العراقي تدفع إلى اتجاهات شديدة التنوع والتناقض، من الثأرية إلى المذهبية، لا بل وتصل حتى إلى حدود المطالبة بتقسيم العراق أو انفصال أحد أجزائه عنه،

والعديد العديد من هذه المظاهر، وكل هذا بالترافق مع وجود قوات احتلال تهيمن على مقدرات البلد وتسعى إلى تسعير الصراعات والخلافات؛ ضماناً لاستمرار وجودها على أرض العراق وضمان مصالحها، وفي سبيل ذلك تؤيد طرفاً في مواجهة آخر، وتحرض الجميع، على الجميع وسبقت ذلك كله بسلسلة من الإجراءات فتحت العراق على أبواب الفراغ تمهيداً لفرض أجندتها الخاصة على العراق والشعب العراقي (حل الجيش المؤسسات الحكومة) على سبيل المثال لا الحصر.

إن إدراكه لهذا كله لا شك كان وراء مواقفه من موضوع (الدولة)، وبعيداً عن آرائه التي كان يمكن أن تكون لديه عن الدولة قبيل الانهيار إلّا أنه ولا شك وجد في رؤية النائيني أقرب وأصح الآراء التي تناسب والواقع العراقي بظروفه وشروطه وأطيافه المتنوعة وتاريخ القمع والمعاناة التي شهدها، كان يدرك الحاجة إلى إبراء الشعب العراقي من معاناته وإعادة صياغة وعيه بما يلائم الشروط والتحديات التي تضمن إقامة عراق سيد مستقل، يستعيد دوره ومكانته اللائقتين في محيطه العربي والإسلامي والدولي، وكان يدرك أن هذا لن يكون ممكناً إلا من خلال انصهار مجموع الأمة في بوتقة العراق على قاعدة الاختيار الحر الطوعي، ومن خلال مساواة كاملة حقيقية تتيح لكل مكون بشري واجتماعي التعبير بحرية وانفتاح وطوعية عن آماله وأحلامه وقيمه الدينية والمذهبية والإثنية والفكرية، وبما يطلق طاقات الجميع ويصبها في بناء العراق الواحد الموحد المنشود.

دولة المواطنة

لقد أدرك الإمام أنّ أفضل الحلول لواقع العراق الراهن هو الدولة المدنية، لا الدولة الدينية، وعندما سأل عن رأيه في إقامة دولة إسلامية في العراق أجاب: «إن من يكتب الدستور هم مسلمون، وبالتالي فإن مكونها الثقافي والحضاري الإسلامي سيجد صداه، وسينعكس في الدستور» ذلك أنّ رهانه كان على وعي

وثقافة الأمة الجمعي الإسلامي، وتوجه في ذلك إلى الإسلام ككل واحد، بل ذهب إلى أبعد من ذلك في إيراد الحقوق الكاملة للمواطنة لبقية الأديان والمذاهب وحقهم في الأمن والأمان والحماية، يقول الإمام في بيان صادر عن مكتبه مؤرخ (بـ١٤ محرم /١٤٢٨):

«.. تمر الأمة الإسلامية بظروف عصيبة، وتواجه أزمات كبرى وتحديات هائلة تمس حاضرها، وتهدد مستقبلها، ويدرك الجميع ـ والحال هذه ـ مدى الحاجة إلى رصّ الصفوف، ونبذ الفرقة، والابتعاد عن النعرات الطائفية، والتجنب عن إثارة الخلافات المذهبية، تلك الخلافات التي مضى عليها قرون متطاولة، ولا يبدو سبيل إلى حلها بما يكون مرضياً ومقبولاً لدى الجميع، فلا ينبغي إذن إثارة الجدل حولها خارج إطار البحث الرصين، لا سيما أنّها لا تمس أُصول الدين وأركان العقيدة، فإنّ الجميع يؤمنون بالله الواحد الأحد وبرسالة النبي المصطفى صلى الله عليه وآله والقرآن الكريم ـ الذي صانه الله تعالى من التحريف ـ مع السنة النبوية الشريفة مصدراً للأحكام الشرعية، وبمودة أهل البيت عليهم السلام، ونحو ذلك مما يشترك فيها المسلمون عامة، ومنها دعائم الإسلام: الصلاة والصيام والحج وغيرها.

فهذه المشتركات هي الأساس القويم للوحدة الإسلامية، فلا بد من التركيز عليها، لتوثيق أواصر المحبة والمودة بين أبناء هذه الأمة، ولا أقل من العمل على التعايش السلمي بينهم، مبنياً على الاحترام المتبادل، وبعيداً عن المشاحنات والمهاترات المذهبية والطائفية أياً كانت عناوينها.

فينبغي لكلّ حريص على رفعة الإسلام ورقي المسلمين أن يبذل ما في وسعه التقريب بينهم، والتقليل من حجم التوترات الناجمة عن بعض التجاذبات السياسية؛ لئلا تؤدي إلى مزيد من التفرق والتبعثر وتفسح المجال لتحقيق مآرب الأعداء الطامعين في الهيمنة على البلاد الإسلامية والاستيلاء على ثرواتها...»

ويمكن إجمال رأي الإمام في موضوع الدولة في العناوين التالية:

ـ تمكين الشعب العراقي من ممارسة حقه في اختيار دستوره ونوابه في إطار انتخابات عامة نزيهة بإشراف دولي.

ـ ضمان مشاركة أوسع قطاعات الشعب العراقي في هذه الانتخابات.

ـ التصدي لعوامل الفتنة المذهبية والطائفية والعرقية التي أججها الاحتلال والجماعات التكفيرية وبقايا النظام السابق، انطلاقاً من أنّها تهدد حاضر ومستقبل العراق شعباً ووطناً ودولة، والتصدي لكلّ المحاولات والأصوات التي تسعى إلى الانزلاق والتحريض على الفتنة تحت ذرائع الفعل ورد الفعل.

ـ تأكيد المشتركات الجامعة للإسلام الموحدة لمجموع المسلمين بمختلف مذاهبهم ورفض الاحتكام إلى ما يختلف عليه باعتباره جزئياً، وموروثاً تاريخياً لا يضر، ولا ينتقص من المشتركات التي تبقى جوهر وروح الإسلام الحنيف.

ـ تأكيد حماية الأقليات الدينية، وحقها في ممارسة شعائرها بحرية، وتمتعها الكامل بحقوق المواطنة، ورفض أيّ شكل من أشكال التمييز بحقها.

ـ تأكيد حق المرأة كاملاً في العمل، والوظائف، والحقوق والواجبات التي يكفلها الدستور لكلّ مواطن بغض النظر عن دينه أو جنسه أو عرقه.

ـ تأكيد المصير المشترك للعراق في إطاره العربي والإسلامي، من خلال دعمه لنضال الشعب الفلسطيني في مواجهة السياسات الاحتلالية العنصرية الإسرائيلية، ووقوفه إلى جانب شعب فلسطين في تقرير مصيره واستقلاله على أرضه، وإدانة السياسة العنصرية الإسرائيلية تجاه شعب فلسطين.

ـ تأكيد حسن الجوار مع المحيط العربي والإسلامي، مع تأكيد رفض التدخل في شؤون العراق الداخلية من أيّ جهة أتى.

ـ احترام المواثيق والشرعية الدولية، والهيئات الدولية وفي مقدمتها الأمم المتحدة، باعتبار العراق عضواً فاعلاً ومؤسساً لها.

ـ الانحياز إلى جماهير الفقراء

والمضطهدين والمهمشين، والدعوة إلى إنصافهم، ورفع الضيم عنهم.

الباب الثاني

السيد بين المرجعية والدولة

كانت بغداد تتهار بفعل دكتاتورية السلطة، ومن يمتلك أدنى بصيرة بأوضاع العراق في تلك الفترة يلحظ هذه الظاهرة، لكن إلى جانب الانهيارات التي كانت تجري كان يستهدف بنية المرجعية الدينية ومكانتها وحضورها العاطفي والوجداني والفكري والسياسي، فيما كانت النجف الأشرف غير مهيئة لهذا الحضور بحكم سطوة الأجهزة التي كانت تعمل على تهشيم كلّ شيء وتهميشه.

كان السيد الخوئي قدس سره المرجع القائد المتحصن بالنجف، المنفتح على المسألة العراقية، وكان يدرك أنّ لعبة السلطة تستهدف إحداث الاختراق الكبير في البنية وصولاً إلى تنفيذ هدف الإبادة الشاملة لعواطف الناس ووجدانها، بعد أن استطاع النظام آنذاك تكبيل العراقيين بقيود الخوف والقمع ومصادرة الحريات والحروب المجنونة وعسكرة المجتمع، ولم يكن الإمام الخوئي يمتلك الكثير من الأوراق؛ بسبب الحظر والقيود والمصادرة باستثناء الورقة الأخيرة، وهي النجف والحوزة وقرار المرجعية ومكانتها في النفوس.

في تلك الفترة عمل السيد الخوئي على حماية الحوزة العلمية ومدارس العلم ومكانة المرجعية في المجتمع، ونأى عن كافة الممارسات السياسية، فهل يمكن القول: إنّ اختيار نمط حماية الحوزة والحفاظ على حضور وقيم المرجعية العليا في أوساط المجتمع العراقي نأي عن ممارسة السياسة، وإنّ مرجعية الإمام الخوئي مرجعية ساكتة؟!

ما ينطبق على مرحلة السيد الخوئي قدس سره هو ذات ما ينطبق على مرجعية السيد السيستاني، مع الالتفات إلى الفارق السياسي الكبير والواضح بين الزمنين.

السيد الخوئي عالج المسألة في عهد النظام البائد - بحكم السطوة الأمنية

الشديدة ـ بحماية الدور العقائدي للحوزة في الأمة، والحفاظ على مكانة المرجعية الدينية على رغم الإجراءات التعسفية للنظام ضد العلماء والفقهاء، لكن الإمام السيستاني عالج المسألة عبر ترشيد (العملية السياسية) الجارية في البلاد مع تشديده على تحديد دور رجال الدين في السلطة السياسية، فهل التحديد صمت، أو للرجل استراتيجية سياسية تضع المرجعية الدينية في موقعها الأساسي من قيم الأمة، وتعطي للفاعليات السياسية فرصتها المهمة في صناعة الأدوات المحركة للسياسة والحكم وإدارة البلاد؟

ما يعنينا هنا هو أنّ المرجعية في النجف الأشرف مرت بأطوار كان التاريخ وتحولات البلاد الاجتماعية والسياسية وأوضاع المجتمع العراقي له تأثيرمهمّ في تطور حركتها وتوليف مواقفها السياسية، وإنّنا نلحظ أنّ هنالك نسقاً من المواقف والجهود الفكرية والسياسية بذلتها المرجعيات المتعاقبة على النجف ساهمت إلى حد كبير في توحيد التّوجهات واتّساقها، وولدت انفجارات وعي كبيرة لا يمكن تجاهلها في غمرة الكلام السياسي المثار اليوم حول سكوت بعض المرجعيات الدينية عما يجري في البلاد.

هنا لا بد من طرح الإشكالية التالية ونحن نستمع لبعض الأصوات التي تتهم المرجعية الدينية بالسكوت عمّا يجري في المجتمع العراقي، والإشكالية تقول: إنّ الأحزاب (الثورية) وتيارات ترفع شعار المقاومة من داخل الأوساط الشيعية التزمت الصمت في مراحل مهمة من تاريخ المجتمع العراقي، ولم يكن لها منعكس أو أثر في هذه التاريخ، وربما كان سكوتها في المراحل الغابرة من تاريخ السياسة في العراق أمضّ من سكوت المرجعية الدينية، فلماذا لا نشكل على سكوتها وصمتها ونأيها عن السياسة، ونتصدى بعنف لسكوت المرجعية الدينية، وهل سكوت هذه الأحزاب والتيارات في أيام النظام البائد والأنظمة التي سبقته مسوّغ، وسكوت المرجعية الدينية غير مسوّغ؟

إنّ هذه الإشكالية تحيلنا في الحقيقة إلى إثارة سؤال عمن يمتلك مقياس وضع إشكالية السكوت والثورة، وعما إذا كان أولئك الذين يصنفون المرجعيات الدينية يمتلكون الوعي التاريخي بتحولات المجتمع والدين ومرجعياته، أم لا.

وما ينبغي قوله هنا: إنّ المرجعية الدينية وفي الكثير من المراحل لا تمتلك العصا السحرية التي تستطيع من خلالها تحريك هذا المفصل من حركة الأمة وإثارة ذاك، تماماً كما يجري في الحزب السياسي والتنظيم الحركي الذي يواجه في مراحل حياته السياسية تحديات وعقبات وإشكاليات وضغوط محلية داخلية تجبره على إخلاء الساحة أو الانسحاب إلى إقليم آخر، أو السكوت وعدم إعلان المواقف.

ما حدث في الحقيقة أنّ ذات الأحزاب والكيانات السياسية التي كانت تجد في مرجعية السيد السيستاني مرجعية ساكتة، عادت إليه بوصفه يشكل ضمانة مهمة لتسديد العملية السياسية، بل يبدو السيد السيستاني اليوم ومن خلال إجمال المسألة السياسية (الدولة ـ القوى السياسية) الخيمة التي تجتمع قوى الدولة تحت أعمدتها، ولا مفر من أخذ رأيه والاستئناس بتوجيهاته ووصاياه وأقواله ورؤيته الفقهية والسياسية.

وبالعودة إلى السيد السيستاني أقول: إنّ الرجل ربما باغت متّهميه بقيمة الفكرة السياسية التي تناولها في موضوع إنتاج دولة ذات سيادة قادرة على منح العراقيين بقية حياة، بعد أن تم مصادرة الحياة ولقمة العيش وأرواح بريئة في حروب إبادة وفي ظل نظام اعتبر الموت نظرية عمل يومية.

وعنصر المباغتة لم يكن وليد ظروف هيأتها تحولات ٩ نيسان (٢٠٠٣) باحتلال البلاد، وما تلاها من صيغ ومشاريع سياسية كانت تتم تحت عيني القوات المحتلة ورقابتها، وفي كثير من الأحيان بإرادتها، إنّ عنصر المفاجأة في المباغتة هو في (الحرية) التي يملكها هذا المرجع وهامشها الذي يتسع لكل الفرقاء والنظريات والآراء، والإمكانية،

التي يتوفر عليها في ترتيب أجواء البديل (الدولة) دون أن يتحمل الإمام ضغوط أحد قد تجبره فيما بعد على إحاطة مواقفه بشأنها بشيء من (فقه المجاملة) ولو على حساب التشريع والنزاهة والصدق مع الله ومع النفس والأمة، وهو ما لم يتوفر لأحزاب وتيارات في السلطة العراقية الحالية كانت تعتبر في مراحل سابقة هامش الإمام صمتاً غير مسوّغ.

يقول الإعلامي العراقي حسن العلوي: (السيستاني ظاهرة في الفقه الشيعي تقترب من ظاهرة الشريف المرتضى والشريف الرضي بقدر ما يبتعد عن النمط العام للفقه الشيعي الثوري، وهو أيضاً يبتعد عن مدرسة الإمام الخميني التي تدعو إلى سلطة الفقيه المباشرة بقدر ما تقترب من فقه الإمام الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الرحمن الكواكبي في علاقة الدين بالدولة)، وهو بهذا يضع نهاية مجيدة لمقولات سادت الثقافة العربية المعاصرة التي نظرت إلى الفقه الشيعي بمنظار طائفي وأحادي متحيز في أحيان كثيرة بلحاظ المد الثوري في إيران وقيام دولة الولي الفقيه.

إنّ السيد السيستاني بدوره الدستوري في الدولة العراقية أبان عن ماهية الفقه الشيعي الذي لا يخضع لقواعد الاجتهاد الأحادي بقدر ما تحكمه أطر ومقتضيات الزمان والمكان وحاجة الإنسان في أقاليم الإسلام إلى دولة تتسع لأشواقه.

الباب الثالث

السيد السيستاني ودولة التسامح

ترتكز الدولة في فهم السيستاني على تراث الإسلام ومطلب الحرية، وتستدعي البنية التاريخية على أساس الاستلهام، وليس التوقف عند التراث، بما هو عقبة في طريق التجديد، وحافز لاستدعاء النصوص الناهضة.

ففي يقين مرجع عاش تحولات السياسة لعقود طويلة من موقع المراقب والمجتهد والعارف بأحوال الناس، تعتبر الدولة حاضنة للحريات، والقوانين محددات إجرائية لصيانة الأشواق الإنسانية؛ لذلك يولي المرجع أهمية

كبيرة لأهداف وتطلعات الإنسان في العراق، ويعمل ما أمكن الجهد على أن تكون الدولة بخدمة المجتمع لا العكس.

ولكي يعمل السيد على تنزيه الدولة وقواعدها ومؤسساتها القانونية من اختلالات الممارسة السياسية، يدعوها دائماً إلى تحويل القواعد القانونية إلى أحكام إجرائية؛ للإسراع ببسط العدالة الاجتماعية، وإقامة الدولة العادلة.

لكن السيد الذي يدعو إلى سيادة الدولة ونفوذ القانون ومحاربة الأفكار المسيئة لمكونات المجتمع العراق، يدعو في جانب كبير من بياناته وفتاواه إلى تسييج الشعب العرقي بأطر التسامح والتوادد والمحبة والألفة بين مكوناته؛ إذ هو شعب واحد بتنوعاته القومية والدينية والاجتماعية والسياسية، ويدعو إلى أن يكون مدركاً لما يخطط له في ظل ظروف اجتماعية وأمنية وسياسية غاية في التعقيد.

ولعل السيد السيستاني يواجه اليوم (جاهليات) موغلة في جرائم استئصال الإنسان وحريته، وهي في يقينها أنّها بهذا السلوك تستطيع تغيير توجهات المرجعية الدينية عبر حرفها عن مسار الدفاع عن الإنسان في العراق، إلى توجهات ومسارات لا علاقة لها بالمسألة الشرعية، كإصدار فتاوى تكفير الآخر وإهدار دمه، وقد عبر الإمام خلال السنوات الأربع الماضية عن قيمة التسامح وتحمل الآلام، تبعاً لمصالح العراقيين ورعاية مستقبلهم، ما لم تتحمله مرجعية سياسية ودينية، وهذا ناتج عن إيمان الإمام بصمود العراقيين أمام موجات العنف الماردة، ويقينه بإرادته الإسلامية والعربية الكبيرة، وفوق هذا وذاك يقينه التام بتوجهات مرجعيته الدينية.

ويبدو تالياً أنّ خيار التسامح الذي انتهجه السيد في تعاطي المسائل الاجتماعية والاحترابات المذهبية والطائفية والإثنية والسياسية، هو السبيل إلى قراءة ملف معقد وشائك ومهم كالملف العراقي.

والتسامح لا يعني بالضرورة التساهل مع الخصوم وقتلة الشعب العراقي

والمجـــرمين وقطـــاع الطـــرق وأمـــراء المجموعات المسلحة وزعماء خلايا الدم، بقدر ما هي نظرية قائمة على بناء الدولة العصـرية بـروح متوازنـة لا يغلـب عليهـا التطـرف الطـائفي ومقـاييس المحاصصـة وبرامج سياسات دولية.

إنّ السيَّد السيستاني يدرك أنّ الشيعة أغلبيـة عدديـة في المجتمـع العراقـي، وهـم أكثر عدداً وعدة من غيرهم، وبإمكانهم أن يفعلوا الكثير لو ترك جمهورهم العام يتصـرف لاسـترداد بعـض الهيبـة الـتي تعرضت للتقيص بفعل عمليات المجموعات الإرهابيـة، وكـان بإمكانـه أن يسـتخدم ردات الفعل الجماهيرية الغاضبة للانتقاص من تيارات مذهبية سكتت في الكثير من المحطات عن أفعال المجموعات الإرهابية هذه، إمّا بدافع الخوف منها أو التشفي بما يتعرض له الشعب العراقي.

إنّ رفض الإمام لردات الفعل العاطفية يعيـد إلى الأذهـان قيمـة الـدور الإنسـاني الكـبير لهذه المرجعيـة في تـاريخ المجتمـع العراقـي وتـاريخ قضـايا المنطقـة العربيـة والإسلامية، وهو دور ينسجم مع حكمة المرجعيـة الدينيـة الخاضـعة لشـروط محمدية لا سـفيانية، كالزهـد والمعرفة بأحوال الزمان والمكان، والإصرار على حمايـة المصـالح الوطنيـة والاسـتعداد للتضحية من أجل الإسلام وأمته ورسالته الكريمة.

ومـا نريـد تأكيـده هنـا أنّ المرجعيـة الدينيـة تقـف مـع الحريـات السياسـية والدينيـة، ومـع التطلعـات المشـروعة للتيارات والأفكار والأحزاب والجماعات السياسـية، شـريطة أن تكـون الـدعوة خاضـعة لمنطـق الحريـات والـدفاع عـن الأوطـان والسـيادة الوطنيـة، ومـا يتطـابق مع المصالح الوطنية العليا، وما يدرأ عن الإسـلام مخـاطر الانقسـامات الطائفيـة المتوحشة.

وهكـذا كـان الإمـام السيسـتاني في قلـب الحـدث السياسـي، يقـود القـرار الـديني الحكـيم، ويختـزن في حركتـه أخلاقيات المرجعيات الدينية الواقعية التي تعاقبت على النجف.

ولو لم تكن هذه الواقعية حاضرة في سـلوك المرجـع، لكـان العـراق اليـوم

يصطرع في غلواء الحروب الأهلية بعد أن شعر الإمام أنّ المخطط القادم سواءٌ الذي تقوده المجموعات المتطرفة أو السياسات الكبيرة يستهدف تفتيت الكتل المتجانسة من طريق إحداث انقسام دموي بين مكونات الأمة، مثال ذلك: صراع الشيعة والسنة، أو تفتيت الكتل الواحدة عبر تورطيط الطائفة الواحدة بحروب وانقسامات دموية مرة وسياسية مرة أخرى.

إنّ الدعوات إلى الوحدة، ونبذ الفرقة، وتجاوز الموبقات بالحكمة، وتطبيق القوانين، وتفعيل دور الدولة في المجتمع، تلك التي يطلقها الإمام السيستاني في مناسبة وغير مناسبة، ليست كلمات مجردة أو بيانات سياسية للاستهلاك الوطني الداخلي، بل هي تحذيرات حقيقية نابعة من قراءة سديدة لواقعيات الساحة العراقية، وتقف الدعوة إلى التسامح في قلب المفردات الحيوية في هذا الإطار، ومن المفترض أن تولي القوى السياسية الفاعلة سواءٌ الموجودة في الحكومة الحالية ـ حكومة الوحدة الوطنية ـ أو في المعارضة أن تتعامل مع هذه الدعوات باعتبارها جرس إنذار حقيقي لما يفترض أن تكون عليه الأحزاب والقوى السياسية في البلاد، وإلّا غرقت الساحة بمحيط من الفتن من الصعب إنقاذها منه.

إنّ الإمام يطالب الحكومة بمزيد من العمل باتجاه فرض القانون، وتلبية جانب الخدمات الاجتماعية والاقتصادية الملحة للشعب العراقي، وحين يلتقي شخصيات في الحكومة العراقية، يتابع بالدقة جهود الحكومة في هذا الإطار، مع تأكيده لخيار حكومة الوحدة الوطنية التي تبتعد ما أمكنها عن مظاهر المحاصصة الطائفية؛ لتكون حكومة الوحدة الوطنية بالفعل.

إنّ المسؤول عن الأمن وتلبية الخدمات على كافة المستويات، وتوفير الحياة الحرة الكريمة هي الدولة، ومسؤولية المرجع هي التسديد والنصح والتنبيه؛ لأنّ المرجع يضطلع بمهام لها علاقة بالأمة وتطلعاتها المشروعة، كذلك كان لزاماً القول: إنّ الإمام ليس صانع قرارات

الحكومة، ولا المسؤول عن أدائها، ولا يضع برنامجاً اقتصادياً واجتماعياً إغاثياً لها، ولا يتدخل في التفاصيل والإجراءات الميدانية لسياساتها، وما دام الشعب العراقي صوّت بالأكثرية على قيام حكومة الوحدة الوطنية، فعلى الحكومة أن تضطلع بمسؤولياتها في هذا الإطار.

منذ البيانات الأولى التي صدرت عن مكتب سماحته، وفي الفتاوى الشرعية، رفض الإمام استفراد جهة أو تيار أو حزب أو ميليشيا مسلحة علنية أو سرية بالدولة والقانون والثروة الوطنية. وشدد - وكان حاسماً في تشديده - على رفض احتكار القوة إذا آلت مسؤوليات الدولة إلى جهة سياسية بعينها، وأكد أنّ العراق بلد متعدد الأعراق والقوميات والاثنيات، وأنّ الشعب العراقي هو الأحق بالتصرف بثروته، وفق قواعد اجتماعية واقتصادية وقانونية تشرع في هذا المجال.

لقد واجه السيد بعد سقوط النظام عدة طروحات تميزت بالحدة في تناول موضوعات لها مساس بالثروة الوطنية وتوزيعها والموقف من الوحدة الوطنية، وكون الشعب العراقي نسيجاً اجتماعياً وطنياً واحداً، وقد أوضح الإمام موقفه الرافض لكافة مظاهر تجزئة هذا النسيج تحت عناوين وإن بدت دستورية وقانونية أقرت في لجنة كتابة الدستور، لكنه توقف طويلاً عند شرعيتها وصلاحيتها كقواعد لوحدة المجتمع العراقي.

وفي تلك الفترة أبدت الكثير من التيارات والاتجاهات والقوى السياسية مواقف متباينة من طرح الإمام، لكن الشيء الأهم الذي يفترض أن نؤكده في هذا المجال، هو أنّ ما كان الإمام حذر من تأثيراته وانعكاساته السلبية على وحدة القوى الوطنية ووحدة المجتمع العراقي قد وقع بالفعل من طريق إصرار البعض على التهديد بقطع أعناق الأنهار في حال قيام فيدرالية في الجنوب، الأمر الذي أدخل البلاد في مواجهات مستمرة مازالت مفاعيلها السياسية وحساسياتها البالغة تضرب عميقاً في الخارطة

السياسية للبلد.

لقد رفض الإمام تجزئة المجتمع العراقي عبر كانتونات اجتماعية تجعل الأغلبية العربية الشيعية في الجنوب في كانتونات جغرافية، متسائلاً في الوقت نفسه عن جدوى هكذا مشروع يحيل مذهب الأكثرية إلى طائفة، والطائفة إلى قطاع في جزء من الوطن، في حين أنّ الوطن تاريخياً جزء لا يتجزأ من تلك الأكثرية.

وفي الوقت الذي كان السيد يعمل على التحذير من إمكانية إحداث هذا الانقسام الكبير في الخارطة السكانية وتأثيرات ذلك على بنية الاجتماع العراقي، كان يحذر بنفس القوة من أحكام استغلال هذا الانقسام لقيام الحرب الطائفية التي ستنشأ جراء الإقرار بنص بالتجزئة هذه.

إنّ الشروحات السياسية التي قدمت للفيدرالية من الممكن استيعابها والعمل بقواعدها لو كانت الأجواء العراقية قادرة على تأهيل هذا المشروع؛ لأنّ البلد غارق في الجدل الدموي المسلح بين أطراف وتيارات مسلحة، بعضها استقدم من خارج الحدود بدعم من طبقة فكرية وفقهية متطرفة تضمر العداء لشيعة العراق، والبعض الآخر من داخل الطيف العربي الشيعي العراقي مدفوع بمظاهر القوة الداخلية والدفاع عن أتباعه ومؤيديه في تلك المناطق، ذلك أنّ هكذا مشروع سيصطدم بجدار سميك من شرارات هذا الجدل، وستغرق الخارطة بالدم والضحايا، وهي نتيجة متوقعة في ضوء واقع وحركية التيارات المسلحة والقوى السياسية المتواجدة في إقليم الجنوب.

المسألة الأهم في هذا المجال هي أنّ السيد كان يخشى من إعادة إنتاج فكر المراحل السابقة التي مرت في تاريخ الشعب العراقي، تلك المراحل التي ساد فيها منطق الاستفراد والهيمنة والدكتاتورية والاستئصال، وهو ما لم ينسجم مع طموحات العراقيين وآمالهم الوطنية الجديدة برؤية نظام سياسي وطني يعبر عن أهدافهم في الخلاص والحرية وتوزيع الثروة بشكل عادل.

لقد كان الإمام صارماً في رفضه سيادة منطق المليشيات المسلحة التي تريد إعادة إنتاج احتكار القوة في الشارع في حال إقرار الفيدرالية، وشدد على مركزية الدولة باعتبارها السبيل الوحيد لإنعاش البلاد اقتصادياً واجتماعياً وتنموياً وأمنياً.

إنّ الإقرار بالانقسام الاجتماعي هو إقرار حقيقي بالتفتيت، وإخضاع البلاد لنزاعات طائفية وعرقية وجهوية من أجل تكريس هويات جزئية بديلة ونقيضة للهوية الوطنية، وهو ما رفضه الإمام ونبه على خطورته في وقت مبكر، ولمخاطر هذه الظواهر المسيئة للوحدة الوطنية، دعا إلى إحياء كلّ المقومات والركائز القادرة على إعادة الروح الوطنية، وتكريس مفهوم الأمة الواحدة والخارطة الواحدة.

ومن هنا كان مشروع (المصالحة الوطنية) في محله من صراع الدولة المركزية الوطنية مع التفتيت، وفي القلب منه مواجهتها للتيارات التكفيرية وبقايا النظام السابق، والتدخلات الإقليمية والدولية.

وكذلك الموقف من المليشيات المسلحة وقرار الحكومة بسحب السلاح وتحديده بيد الأجهزة الأمنية الرسمية.

إنّ تشديد الإمام مثلاً على ضرورة حصر السلاح بيد الدولة، هو دعوة شرعية وسياسية حقيقية إلى قيام دولة تمثل ألوان الطيف العراقي دون استثناء، ودون الاعتماد على حكومات غير مركزية تضعف في حال احتكارها للقوة من إحساس المواطن بوجود دولة مركزية تمثله.

الباب الرابع

إمامان بولاية واحدة

في الوقت الذي يؤكد فيه الإمام الخميني على قيام دولة الولاية المطلقة للفقيه، يذهب الإمام السيستاني إلى الدولة التي تنتجها صناديق الاقتراع، فيما يبقى الفقيه في موقع التسديد والترشيد والنصح في الدولة الديمقراطية الوطنية وفي ضوء ذلك نتساءل:

هل هنالك تعارض فقهي، أو تعارض سياسي بين المدرستين؟

في التجربة السياسية الإسلامية المعاصرة أدّى الإمام الخميني دوره المحوري في توجيه الحدث السياسي في إيران قبل الثورة، ومراجعة سريعة لخطابات الإمام الخميني منذ الخمسينيات مروراً بانتفاضة ١٥ خرداد سنة (١٩٦٣)، وانتهاء بانتصار الثورة في ١١ شباط (١٩٧٩) تحيلنا إلى محورية قيادية ظاهرة وبارزة على التحول، قادرة على توجيه الأمة، فانضوت كلّ الأحزاب والتنظيمات السياسية العلمانية والليبرالية والإسلامية في إطار هذه المحورية القيادية.

كان الإمام الخميني هو الذي يقود الثورة من تركيا والعراق وباريس، وكانت الحوزة العلمية والشخصيات والمرجعيات الدينية تقف مع الإمام في ثورته وانتفاضته الإسلامية المستمرة، حتى إنّ الإمام الخميني بعد انتصار الثورة، شكل أوّل جمهورية إسلامية من شخصيات ليبرالية، وشهدت التجربة السياسية للدولة في إيران بروز مهدي بازركان الليبرالي رئيساً للوزراء، وإبراهيم يزدي الليبرالي وزيراً للخارجية ورجال آخرين في هذا الإطار، وتم انتخاب أبي الحسن بني صدر رئيساً للجمهورية.

كان الإعلام الإسلامي في إيران يتصرف باعتباره إعلام الثورة التي صنعتها الجماهير الإيرانية والأحزاب والتيارات الفكرية والاجتماعية، ثورة الإسلاميين والشيوعيين والليبراليين والوطنيين، ولم يكن إعلام الإسلاميين الراديكاليين فقط، أو ما يعرف بخط الإمام، مع أنّ المصطلح ليس دقيقاً من وجهة نظري؛ لأنّ الإمام الخميني كان خيار كلّ التيارات والأحزاب الإيرانية.

ولعل التسمية واحدة من الأخطاء السياسية التي سقط بها التيار المؤيد بشدة للإمام وأتباعه الخلص في الساحة الإيرانية.

ولأنّني عشت البدايات الثورية وإرهاصات تشكل أول دولة إسلامية في العصر الحديث، ومن عاصمة التحول الثوري طهران أقول: كنت أشاهد كلّ ليلة في التلفزيون الإيراني مناظرات

فكرية وفلسفية وسياسية تمتد إلى ساعات بين قيادات في الثورة، مثل: رئيس مجلس الشورى الإيراني الشهيد محمد حسين بهشتي وزعماء في الحزب الشيوعي الإيراني (توده)، مع أنّ حزب توده اختلف مع قيادة الثورة منذ البدايات، وكان يعمل على انقلاب عسكري يطيح بإنجاز الجمهور الإيراني، مع ذلك كان قادة الثورة يناقشون مستقبل العملية السياسية الإيرانية في الداخل بودٍ كبير مع الشيوعيين، ولو أنّ الأجهزة الأمنية الإيرانية لم تكتشف انقلاب الشيوعيين الإيرانيين، لكان زعماؤهم لليوم يتمتعون بالحماية الكاملة كحرية التعبير عن الأفكار، ومازلت إلى الآن أتذكر الأكشاك الإيرانية وهي تبيع كلّ صباح صحف ومجلات لأحزاب وتيارات وجمعيات سياسية ومنظمات مجتمع مدني يصل عددها إلى (١٠٠٠) صحيفة ومنشور إعلامي.

كان هذا يحدث في دولة إسلامية يفترض بالولي الفقيه صاحب الصلاحيات والشروط المطلقة أن يمارس ولايته فيها، والواقع أنّ ممارسة الولاية في جو سياسي عاصف كهذا وفي وقت لم تكن ملامح الدولة واضحة بالدرجة الكافية، اختزنت في تضاعيفها استيعاب هذه الأشواق، وتأسيس دولة قادرة على التعاطي مع المجتمع وتحولاته السياسية والاجتماعية والعقيدية والمصالح فيه، بما يناسب طبيعة المجتمع وتطلعاته وخياراته الاستراتيجية.

كان بإمكان الولي الفقيه إعلان الأحكام العرفية أمام المظاهر الشاذة، كالتظاهرات المسلحة التي أخرجتها منظمة (مجاهدي الشعب) بقيادة رجوي في الشارع الإيراني، وأعمال القتل وتخريب المحلات والعدوان على الناس، وكان بإمكانه أن يعارض انتخاب أبي الحسن بني صدر، خصوصاً أنّ الثورة بدأت تتحسس تآمر صدام حسين عليها لمهاجمة حدودها سنة (١٩٨٠)، ولو كان الإمام الخميني فعل ذلك، لما واجه معارضة أحد في الشارع الإيراني الذي بايعه إماماً للثورة والدولة معاً.

إنّ الولاية التي يتحدث بعض الكتاب العرب بغلظة شديدة عنها، ويعدونها استبداداً وديكتاتورية الفقيه، كانت تواجه عنفاً واستبداداً ودموية أحزاب وتيارات وجماعات حاولت فرض (ولايتها) السياسية والعنفية بالقوة، في حين كان يفرض الإمام ولايته الشرعية والقيادية الإسلامية بالتسامح والاستيعاب ومعالجة القضايا المركزية والكبرى التي كانت تواجه الثورة.

في المشهد العراقي، فإنّ لون الدم الذي أهرق في شوارع طهران من قبل المجموعات السرية الدموية مستهدفاً كلّ شيء: دور السينما، الباصات، محلات كسب الرزق، الأسواق، الناس بمختلف شرائحهم وألوانهم، هو ذاته الذي يهرق في العاصمة بغداد والمدن العراقية الأخرى من قبل ذات التوجهات، وربما بأيدي أولئك الذين أحرقوا الناس وهم أحياء في طهران.

وفي المشهد، سيارات مفخخة وقتلى وجرحى بالآلاف، وحسب إحصائية أممية تعدى الرقم المليون قتيل وجريح ومهجر من منزله، لكن لون الدم المراق واحد في كلّ من طهران وبغداد، وربّما تسفر المواجهات عن نتائج، فإنّ الفعل السياسي لفقيه بغداد يوازي حجم المشكلة وثقل الأزمة، إنّه يتصرف بوحي من مسؤولية سياسية وشرعية محددة، وتلك المسؤولية لم يؤسسها في واقع الشعب العراقي مثلما أسس الإمام الخميني مسؤولية إقامة الدولة في إيران، لأنّ الفرق واضح بين الزمنين.

الإمام الخميني هو الذي قاد المسيرة السياسية، وأشرف على بناء الجيش والقوات المسلحة، وأنجز وعد السيادة الحقيقية للدولة، وكان صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في مسيرة عنوانها الدعوة إلى إقامة الحكومة الإسلامية، في حين الإمام السيستاني تعامل مع دولة أو نمط من الحكومة الوطنية الديمقراطية من خارج شروط الدولة التي أقامها الإمام الخميني.

ومن الطبيعي أن يكون خطاب الدولة الإسلامية في إيران مختلفاً عن خطاب الدولة الوطنية في العراق، رغم أنّ

(الوطنيــة) في العــراق و(الإســلامية) في إيـران ذات توجهـات متشـابهة في العديـد من المظاهر والأشكال.

فالإمـام الخمـيني الـذي أرسـى دعـائم الحكـم الإسـلامي في إيـران، تعامـل مـع (الإســلام) خيــاراً اســتراتيجياً في الحيــاة الإيرانيـة، لكنـه فسـح في المجـال أمـام الشعب الإيراني لإجراء الدورات الانتخابية سواء لانتخاب رئيس للجمهورية، أو لاختيار أعضاء مجلس الشورى والمجالس البلدية، وتعد تجربة (الانتخابات) في إيران واحدة من الميزات الديمقراطية المتقدمة المعاصرة التي تحدد نوع الدولة الإسلامية وقدرتها على التعامل مع الآليات الديمقراطية وفق معـايير سياسـية معاصـرة، وربمـا كـان انتخاب أحمدي نجاد وهزيمة رفسنجاني في الانتخابات الإيرانية الماضية دليلاً على تعويم الاستبداد والارتقاء بالحرية.

السـيد السيسـتاني لم يكـن رجـل الدولة العراقية، ولم تؤدِّ النجف الأشرف كموقــع للمرجعيــة الدينيــة دوراً في إسـقاط صـدام في ٩ نيسـان ٢٠٠٣ (وإن كانـت مسـاهمات المرجعيـة الدينيـة (الصـدر الأول والثـاني) وجهـود الفقهـاء الآخـرين أرسـت ملامـح هـذا المشـروع الإسقاطي)، لكـن المسـألة السياسـية في العــراق بــدخول الولايــات المتحــدة الأمريكيـة علـى الخـط غيّـر بالتأكيـد ملامـح الخريطـة السياسـية العراقيـة، وبـدلاً مـن أن تكـون النجـف وعـالم الاجتهـاد هـو الـذي يؤسـس نمـط الدولـة، جـاءت الدولـة إليـه تسـتدعيه في إطـار المعرفـة بالقواعـد والسياسـات والـدعم والإشـراف الأخلاقـي، وإذا كـان الفقيـه الخميني هو الذي قاد الثورة وأنجز وعد الدولــة، وعرفــت الدولــة بــالعنوان الخميني، واستمرت فاعلة في السياسات الإقليمية والدولية، فـإنّ الدولـة العراقيـة أفسـحت المجـال لفقيـه النجـف؛ لبلـورة السياسات والاعتماد عليه في دعم المسيرة السياسـية؛ لأنّ الدولـة الـتي نشـأت لا تتعـارض مـع النجـف، ولا تختلـف مـع الفقيـه العـارف بـأنّ الـزمن السياسـي العراقـي هـو زمـن (الوطنيـة) القريبـة في توجهاتهـا مـن عصـر الفقيـه العـارف بضرورات الناس.

وإذا كان الإمام الخميني واجه تحديات عصيبة في الداخل وضغوط وصعوبات وحرب شرسة امتدت ثمان سنوات ضد الدولة الإسلامية، شاركت فيها أغلب القوى الكبرى، وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية إلى جانب النظام العراقي السابق، فإن السيد السيستاني وموقع المرجعية الدينية في النجف الأشرف والمشروع السياسي الشيعي العراقي واجه ويواجه إلى حين كتابة هذه السطور تحديات لا قبل للعراق والمرجعية الدينية وتاريخ العراق السياسي الحديث بها.

لكن موقف المرجعيتين الدينيتين من تلك التحديات والضغوط متشابه عبر الرسالة السياسية والدينية والأخلاقية التي أدتها هاتان المرجعيتان في الحياة الإيرانية والعراقية.

كلّ البدايات السياسية تحمل في طياتها مشكلات عصيبة؛ لأنّها بدايات، وما رافق انتصار الثورة في إيران كان من النوع الثقيل الذي لم تحتمله أية تجربة سياسية أُخرى، لكن حكمة الإمام وصلابته في وجه التحديات ووقوف المجتمع الإيراني إلى جانبه حمى الثورة من غول مؤامرات عديدة كان أكبرها الحرب التي شنت على سيادة الدولة عام (١٩٨٠) من قبل النظام العراقي السابق، وما يفعله الإمام السيستاني في المسألة العراقية هو ذاته ما قام به الإمام الخميني عبر حماية التجربة العراقية الوليدة وصيانة حقوق الشعب العراقي، دون انغلاق على الحكم العراقي الحالي؛ لأنّه لم يعلن الإسلام كياناً للدولة، إنّه أدى ما أدته طائفة من فقهاء الشيعة الذين كانوا يرون في الدول القائمة بالعدالة والحرية دولاً إسلامية كالشيخ الأراكي والعلامة المجلسي.

إنّ إدارة الأُمور الحسبية عند الإمام السيستاني تعدت الجانب الفقهي لها عبر الاهتمام بالأيتام ورعاية الشؤون الاجتماعية وكفالة المؤسسات الدينية إلى الاهتمام بالجانب السياسي، فأصبحت (الحسبية) في نظر السيستاني والإمام الخميني كفالة للأمة وحاجاتها ومطاليبها السياسية

وأهدافها العقيدية، ما دام الأمر يتعلّق بالمستقبل وحاجة الشعوب الإسلامية إلى نظام يتكفل بالحرية والحقوق المدنية وحاجة الأمة إلى قيادة ترعى مسيرتها الاجتماعية وآمالها في الحياة الحرة الكريمة وإلّا ما معنى وجود قيادة في الأمة في زمن الغيبة الكبرى للإمام المعصوم عليه السلام هل لكفالة الأيتام والاهتمام بالأُمور الاجتماعية وبناء المؤسسات التربوية والدينية على أهميتها، أو مواجهة المطالب الحقيقية والملحة في عالم يتوزع على قوى سياسية كبرى تحاول استلاب الأمم والكيانات الإنسانية؟.

إن الشيخ النائيني (١٩٣٧) أوّل من نبه في كتابه (تنبيه الأمة وتنزيه الملة) على ضرورة إجراء إصلاحات فقهية وفكرية حقيقية على منظومة (المصالح)، وعلى قيم النظر إلى الضرورات الاجتماعية والسياسية في الأمة، ودعا إلى الانفتاح على القيم الحضارية الغربية بما يحصن الأمة من وقوعها في شرك الاستلاب والإفادة من التجارب الأخرى، ولعل الإمام الخميني - وقد كانت تلك الظاهرة في البدايات - استلهم الدروس السياسية الأولى من خلال احتكاكه بالواقع، وسار على ذات النهج، نهج الأخذ بأسباب التطور وعدم الاعتراف بالدول التي تشتغل بالظاهر الإسلامي، لكنها تعمل وفق سياقات (امبريالية) كنظام الشاه محمد رضا، خلافاً للسائد من رؤية فقهاء كانوا يرون تأييد هذه الدول بإعلانها الظاهر الإسلامي.

وهنا أقول: لو كان الإمام الخميني على قيد الحياة اليوم، لكان أعلن تأييده للعملية السياسية في العراق؛ إذ جاءت عبر صناديق الاقتراع، واستمدت شرعيتها من الورقة الانتخابية للجماهير؛ لأنّها تنطلق في تصورها لمفهوم السيادة والعلاقة بالعالم والمحيط العربي والإسلامي من خلال قواعد القانون الدولي ونصوص الإسلام والإفادة من التجربة السياسية الديمقراطية في العالم.

إن الأسباب التي تدعو المرجعية الدينية لتأييد العملية السياسية وتأييد

الحكومة التي تأتي عبر الانتخابات والدستور، لكونها حكومة قادمة على خلفية نضالات طويلة وأنهار دم واسعة وتضحيات جليلة قدمتها الحركة الإسلامية والوطنية العراقية هي.

١ـ أنها سلطة شرعية بصندوق الاقتراع، وليس سلطة قهرية قائمة بالقوة الغاشمة.

٢ـ إن الطبقة السياسية التي تقود الدولة جاءت عبر انتخابات مليونية شارك فيها الملايين من العراقيين برغبتهم، وليس عبر سوقهم إلى مراكز الاقتراع بالقوة والتهديد بقطع الحصة التموينية كما كان سائداً في عهد النظام السابق، وهي طبقة مناضلة عملت في الميدان وقدمت أحزابها وتنظيماتها السياسية آلاف القرابين من أجل حرية الشعب العراقي.

٣ـ أنها سلطة قائمة على أساس رعاية مصالح الشعب العراقي وتعمل على بناء سياسات تصب في سياق التنمية الاقتصادية والاجتماعية والفكرية وحماية الدين وحقوق الأقليات ولا تعادي مصالح الأمة.

٤ـ أنها دولة انتهت إلى إقرار دستور دائم للبلاد بالإفادة من خبرات التكنوقراط، واستدعاء المرجعية الدينية باعتبارها سلطة في الأمة.

د.الشيخ حسين الخشن

مفكر إسلامي من لبنان

الإمام علي عليه السلام في مواجهة التكفيريين والإسلام دين الأمل

لا شك أنّ التكفير بما يمثّله من ثقافة سوداوية تستعدي الآخر، وتستهين به، ولا ترى له حرمة في نفسه أو عرضه أو دمه، كان ـ ولا يزال ـ ظاهرة على خلاف الفطرة الإنسانية التي تحرّض على كل خير وترفض كل ظلم وعدوان، بيد أنّ الخروج عن مقتضيات الفطرة كان يجد له أنصاراً منذ فجر التاريخ، ولذا فإني لا أعتقد أنّ التكفير هو حالة جديدة ومستولدة من رحم الإسلام وأنّ البشرية لم تعرفها قبل ذلك، كما قد يخّيل إلى البعض أو يحاول البعض الآخر الإيحاء به، وكل مطلّع على التاريخ البشري وما يضج به من صراعات الأديان المختلفة وتناحر المذاهب المنضوية في الدين الواحد يدرك أنّ التكفير هو «ظاهرة» إنسانية عامة وعابرة للطوائف والمذاهب وليس ذا هوية إسلامية بالخصوص أو أنّه منتج إسلامي.

مقدّمة

لا شك أنّ التكفير بما يمثّله من ثقافة سوداوية تستعدي الآخر، وتستهين به، ولا ترى له حرمة في نفسه أو عرضه أو دمه، كان ـ ولا يزال ـ ظاهرة على خلاف الفطرة الإنسانية التي تحرّض على كل خير وترفض كل ظلم وعدوان، بيد أنّ الخروج عن مقتضيات الفطرة كان يجد له أنصاراً منذ فجر التاريخ، ولذا فإني لا أعتقد أنّ التكفير هو حالة جديدة ومستولدة من رحم الإسلام وأنّ البشرية لم تعرفها قبل ذلك، كما قد يخّيل إلى البعض أو يحاول البعض الآخر الإيحاء به، وكل مطلّع على التاريخ البشري وما يضج به من صراعات الأديان المختلفة وتناحر المذاهب المنضوية في الدين الواحد يدرك أنّ التكفير هو «ظاهرة» إنسانية عامة وعابرة للطوائف والمذاهب وليس ذا هوية إسلامية بالخصوص أو أنّه منتج إسلامي، وذلك لأنّ الشذوذ عن الفطرة هو حالة إنسانية بامتياز، أجل لا شك في أن الكثير من المجتمعات البشرية استطاعت أن تتغلب على هذه الظاهرة أو تحاصرها وتحدّ من انعكاساتها السلبية، بابتكار أو اعتماد منهج عقلاني يسمح بإدارة الاختلاف وتنظيمه دون اللجوء إلى استخدام العنف.

وأمّا في الفضاء الإسلامي فعلى الرغم من سوداوية المشهد الذي نراه اليوم حيث بلغ التكفير أوجه، وارتفعت حدة الخطاب المذهبي وانزلق الكثير من العلماء ووقعوا في فخ التكفير، فإني على يقين من أنّ الأمة تستطيع الخروج من هذا النفق المظلم ليس بابتكار منهج جديد أو استيراد منهج من الخارج، فالمنهج الإسلامي القرآني والنبوي في

إدارة الاختلاف موجود، ولا يحتاج إلاّ إلى إعادة الاعتبار إليه وتبنيّه والعمل به وتثقيف الأمة وتربية آبائها عليه، وقد نعمت الأمة الإسلامية لفترات طويلة من تاريخها بالأمن والاستقرار إلى حدٍ كبير عندما اعتمدت هذا المنهج الأصيل.

لا أريد أن أقدّم صورة ورديّة عن تاريخنا الإسلامي، لأنّي مدرك بأن «ثقافة» جزّ الرقاب وقطع الأعناق ليست وليدة هذا العصر، بل إنّها تمتد إلى العصر الإسلامي الأول، وتحديداً إلى ما بعد معركة صفين ونشوء فرقة الخوارج التي يمكن اعتبارها أول حركة تكفيرية ودمويّة عرفها التاريخ الإسلامي، فقد حكم الخوارج بكفر أو شرك مرتكب الكبيرة[1] من المسلمين، ووصلت بهم الجرأة إلى تكفير الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، لأنه رفض التوبة عن قبول التحكيم، مما اعتبروه معصية كبيرة، وقد كتبوا إليه رسالة في هذا الصدد جاء فيها:

«أما بعد فإنّك لم تغضب لربك، إنّما غضبت لنفسك، فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك وإلا فقد نابذناك على سواء إنّ الله لا يحب الخائنين»[2].

مشاهد من عنف الخوارج

وعقيدتهم التكفيرية هذه جعلتهم يستبيحون الخوض في دماء المسلمين دون أدنى تورع أو تحفظ، وقد نقل لنا التاريخ صوراً مؤلمة ومشاهدة مروّعة في هذا الشأن، ولطالما كنّا نصاب بالصدمة والذهول ونحن نقرأ تلك الأعمال الشنيعة التي ارتكبوها حتى دار الزمان ورأينا بأم العين ما هو أفظع منها!

ومن تلك المشاهد المروعة التي نقلها لنا المؤرخون أنّ خوارج البصرة التقوا أثناء مسيرهم إلى النهروان «برجل يسوق بامرأة على حمار، فعبروا إليه فدعوه فتهددوه وأفزعوه، وقالوا له: من أنت؟

قال: أنا عبد الله بن خبّاب صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم أهوى إلى ثوبه يتناوله من الأرض، وكان سقط عنه لما أفزعوه.

قالوا له: أفزعناك.

قال: نعم.

قالوا له: لا روع عليك، فحدثنا عن أبيك بحديثٍ سمعه من النبي ﷺ لعل الله ينفعنا به.

قال: حدثني أبي عن رسول الله ﷺ **«أنّ فتنة تكون يموت فيها قلب الرجل كما يموت فيها بدنه يمسي فيها مؤمناً ويصبح فيها كافراً ويمسي فيها مؤمناً»**.

فقالوا: لهذا الحديث سألناك، فما تقول في أبي بكر وعمر، فأثنى عليهما خيراً.

قالوا: ما تقول في عثمان في أول خلافته وفي آخرها؟

قال: إنّه كان محقاً في أولها وفي أخرها.

قالوا: فما تقول في علي قبل التحكيم وبعده؟

قال: إنّه أعلم بالله منكم وأشد توقياً على دينه وأنفذ بصيرة.

فقالوا: إنّك تتبع الهوى، وتوالي الرجال على أسمائها، لا على أفعالها، والله لنقتلنّك قتلة ما قتلناها أحد!

فأخذوه فكتّفوه، ثم أقبلوا به وبامرأته وهي حبلى متمّ (في نهاية حملها) حتّى نزلوا تحت نخل مواقر (كثير الحمل) فسقطت منه رطبة، فأخذها أحدهم فقذف بها في فمه.

فقال أحدهم: بغير حلها بغير ثمن! فلفظها وألقاها من فمه، ثم أخذ سيفه فمرّ به خنزير لأهل الذمة فضربه بسيفه.

فقالوا: هذا فساد في الأرض، فأتى صاحب الخنزير فأرضاه من خنزير!

فلما رأى ذلك منهم ابن خباب قال: لئن كنتم صادقين فيما أرى، فما عليّ منكم بأس، إني لمسلم، ما أحدثت في الإسلام حدثاً ولقد آمنتموني قلتم: لا روع عليك.

فجاؤوا به فأضجعوه، فذبحوه وسال دمه في الماء! وأقبلوا على المرأة، فقالت: إنّي إنّما أنا امرأة ألا تتقون الله فبقروا بطنها!! وقتلوا ثلاث نسوة من طيء وقتلوا أم سنان الصيداوية..»[٣].

وينقل عن بعضهم أنهم «أصابوا في

طريقهم مسلماً ونصرانياً، فقتلوا المسلم، لأنه عندهم كافر إذ كان على خلاف معتقدهم واستوصوا بالنصراني، وقالوا: احفظوا ذمة نبيكم»[٤].

إنّ هذه التصرفات التي ارتكبها هؤلاء مما حدثتنا عنها المصادر التاريخية تعكس وبوضوح خصائص الشخصية التكفيرية وأهمّ سماتها، فهي شخصية تستهين بالكبائر، كسفك الدم وقتل الأبرياء، وتستعظم الصغائر، كأكل حبة من التمر دون إذنٍ من صاحبها، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على افتقاد الإنسان التكفيري إلى الميزان الصحيح الذي يزن به الأمور.

علي عليه السلام يحاورهم:

وفي المقابل، فإنّ الإمام علي عليه السلام وقف ليحاورهم ويجادلهم بالتي هي أحسن، ويفنّد شبهاتهم وأوهامهم بالحجة والمنطق، دون أن يقمعهم أو يمنعهم حقوقهم السياسية والمدنية إلاّ بعد أن تحولوا إلى قطّاع طرق سلابين، وأخلّوا بالأمن العام، فنهض حينها ليضع حداً لبغيهم وإرهابهم، حماية للأمن الاجتماعي وحفظاً للنظام العام، ولولا اندفاعهم إلى ممارسة العنف والإخلال بالأمن العام لاستمروا وبقوا حركة معارضة، لهم ما لسائر المسلمين، وقد أوضح الإمام علي عليه السلام ذلك بشكل واضح لا لبس فيه، حيث أرسل إليهم في بادئ الأمر قائلاً «**كونوا حيث شئتم وبيننا وبينكم أن لا تسفكوا دماً حراماً ولا تقطعوا سبيلاً ولا تظلموا أحداً**»[٥].

لقد عمل علي عليه السلام على محاصرة الأزمة ومنع تفاقمها ولو على حسابه الخاص، فلم ير أن تكفيرهم له يمنعهم حقوقهم أو يبيح قتالهم أو يستوجب هدر دمائهم، ولذا خاطبهم قائلاً «فإن أبيتم إلا أن تزعموا أنّي أخطأت وضللت فلمَ تضللون عامة أمة محمد صلى الله عليه وآله بضلالي وتأخذونهم بخطئي وتكفرونهم بذنبي! سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البرء والسقم، وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب»[٦].

وحرصاً منهم على تجنب الصدام أو اللجوء إلى العنف، فقد أرسل لهم ابن عمه عبد الله بن عباس المعروف بحبر الأمة، فحاورهم ودحض حججهم ودعاهم للرجوع عن غيهم وبغيهم وعدوانهم والعودة إلى الانخراط في الجماعة الإسلامية، لكنهم أصرّوا على الرفض، وتمادوا في العدوان، ما اضطره في نهاية المطاف أن ينهض عليه السلام لمواجهتهم ودرء شرهم وخطرهم.

ويرفض تكفيرهم:

وعلى الرغم مما فعلوه من مظاهر الإجرام ومن تكفيرهم له عليه السلام فإنّ علياً عليه السلام رفض أن يواجه التكفير بتكفير مضاد، بل نراه قد دافع في أكثر من مناسبة عن إسلامهم وحقوقهم وأكّد على ضرورة التعامل معهم معاملة المسلمين، فقد سئل عن أهل النهروان هل كفروا؟ قال:« **من الكفر فروا**»، قيل: فمنافقون؟ قال :**إنّ المنافقين إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، وهؤلاء تحقرون صلاتكم بجانب صلاتهم** .قيل: ماذا تقول فيهم؟ قال :**قوم تأولوا فأخطأوا**»[٧] .

في مصدر آخر رويت على الشكل التالي: « لما قُتِل علي رضي الله عنه الحرورية (الخوارج)، قالوا: من هؤلاء يا أمير المؤمنين أكفّارٌ هم؟ قال :**من الكفر فرّوا**، قيل: فمنافقين؟ قال :**إنّ المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً وهؤلاء يذكرون الله كثيراً**، قيل: فما هم؟ قال :**قوم أصابتهم فتنة فعموا فيها وأصموا**»[٨].

وقد علّق ابن حجر العسقلاني على هذا الخبر بأنه: «إن ثبت حُمل على أن علياً لم يكن اطلع على معتقدهم الذي أوجب تكفيرهم عند كفرهم»[٩].

والصحيح أنّه إنما لم يكفرهم لا عن جهل بمعتقداتهم فهو أدرى الناس بهم وبآرائهم، وإنما لأنه كان لا يرى وجهاً لتكفير المسلم الناطق بالشهادتين حتى لو كان ظالماً باغياً، وسيأتي أنه كان يقول عنهم: «**إخوان لنا بغوا علينا**».

التكفيريون الجدد

وعقيب فتنة الخوارج تلك شهد

الفكر التكفيري تراجعاً ملحوظاً أمام سيطرة فكر الاعتدال والوسطية في المجتمعات الإسلامية، دون أن يعني ذلك أنّ الفكر التكفيري قد تمّ قلعه من جذوره، فقد عرف تاريخنا الإسلامي مذاهب وحركات تكفيرية عديدة كانت تظهر بين الفينة والأخرى، في حقب ومراحل زمنية مختلفة، وهذا ما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام في بعض كلماته، وذلك أنّه وبعد أن قاتل الخوارج في النهروان وقضى عليهم قيل له: يا أمير المؤمنين هلك القوم بأجمعهم؟ قال عليه السلام: «**كلا، إنّهم نطف في أصلاب الرجال وقرارات النساء كلما نجم منهم قرن قطع**»[10]...

وتأتي على رأس الجماعات التكفيرية بعض الفرق المتأخرّة التي لم تتورع عن تكفير عامة المسلمين أو رميهم بالشرك، لمجرد أنّهم يتبركون ببعض آثار النبي صلى الله عليه وآله أو يتوسلون به أو يحتفلون بذكرى مولده أو وفاته، ومن رحم تلك الفرقة خرجت كل الجماعات التكفيرية المعاصرة، والتي غدت تمثّل موجةً عامةً وحملت سيف البغي والعدوان وشهرته بوجه مخالفيها في العقيدة والمذهب، الأمر الذي شوّه صورة الإسلام النقيّة، وأضعف المسلمين وحوّل بأسهم بينهم وجعلهم ملاً متناحرة وفرقاً متناثرة.

الإسلام دين الأمل

في زمن الذبح والنحر وقطع الرؤوس، في زمن الفتنة المذهبية والتوترات السياسية والأمنية في هذا الزمن برزت العديد من الظواهر المرضيّة المقلقة والمخيفة، ومن ذلك ظاهرة أو حالة اليأس.

وإذا كان اليأس ليس أمراً جديداً في ابتلاء الإنسان به، بل عرفته البشريّة منذ القدم، إلاّ أنّ الجديد في المسألة هو انتشار حالة اليأس والاحباط وتحولّها إلى ظاهرة، كما أننا نلاحظ دخول عنصر جديد على العناصر المسببة لليأس، ألا وهو الخطاب الديني المنفّر، فإنّ هذا

الخطاب لم يساهم في إبعاد الإنسان عن الدين فحسب، بل أسهم في تحويل الدين نفسه إلى عامل توتر وقلق. إنّ الدين الذي كان على الدوام يشكّل خشبة الخلاص للإنسانية غدا مشكلة حقيقية!

ومن هنا يجدر بنا أن ندرس هذه الظاهرة ونتعرّف على أسبابها وآثارها السلبيّة على الفرد والمجتمع.

١ـ اليأس وآثاره السلبية

اليأس في الحياة هو واحد من أخطر الأمراض التي تفتك بالإنسان فتشل إرادته وتنعكس على صحته الجسديّة والنفسيّة، وتؤثر على علاقاته مع الآخرين، سواءً في الدائرة الصغيرة، أعني دائرة الأسرة، أو في غيرها من الدوائر الاجتماعية.

وإننا نلاحظ أنّ الإنسان اليائس لسبب أو لآخر قد يدفعه يأسه إلى الانتحار، وربما يقتل زوجته وأولاده معه، لأنّه لا يريد لهم ـ بزعمه ـ أن يعيشوا القهر والمعاناة، وقد يدفع ـ اليأس ـ البعض الآخر من اليائسين إلى ارتكاب شتى الجرائم والاستخفاف بحياة الناس والاستهانة بحقوقهم.

كما أنّ اليأس قد يدفع بعض الناس إلى الكفر بالله تعالى والشكّ في عدالته أو حكمته أو قدرته!

هذه بعض سلبيات اليأس وآثاره المدمرة.

٢ـ أسباب اليأس

وأسباب اليأس كثيرة:

١ـ فالفقر هو أحد هذه الأسباب الرئيسة التي تدفع الفقير إلى حضن اليأس والإحباط، حيث ترى الفقير يركض وراء لقمة العيش وهي تركض أمامه، نتيجة الغلاء والاحتكار وسياسة الإفقار والاستغلال.

٢ـ ومن الأسباب التي تدفع نحو اليأس: فشل التجربة، أو عدم وصول المرء إلى تحقيق مبتغاه ورغباته وآماله، فالمرأة التي لا يتيسر لها الزواج أو تفشل

في تجربة زوجيّة معينة، فإنّ ذلك قد يدفعها إلى اليأس دفعاً، فتعيش حياتها محبطة بائسة يائسة، وهكذا الكثيرون ممن يفشلون في الوصول إلى ما يطمحون إليه، فإنّ فشلهم ينعكس بأساً وإحباطاً عليهم.

٣ـ والظلم أيضاً هو من جملة أسباب اليأس، وبالأخص في صورة عدم وجود نظام يحقق العدالة الاجتماعيّة، ويمكّن المظلومَ من أخذ حقه من الظالم، فإنّ ذلك قد يدفعه إلى أن يعيش حياته يائساً محبطاً، أو يدفعه ذلك إلى الانتقام والعدوانية..

٤ـ وهكذا فإنّ ابتلاءات الحياة الأخرى، من فقد حبيب أو عزيز أو معيل، أو خسارة مال ثمين، أو تفكّك أسري.. قد تدفع بعض الناس إلى حضن اليأس.

٣ـ اليأس الفردي والاجتماعي

واليأس تارة يقف عند حدود الفرد فيشلّ إرادته ويُفْقِده توازنه، وأخرى يتعدى ذلك فيكون يأساً اجتماعياً، ولو وقف اليأس عند حدود الفرد ولم يَسْرِ إلى المجتمع فإنّ الخطب ـ رغم صعوبته ـ يبقى هيناً، فإنّ الفرد الذي تواجهه بعض المشاكل وتعترضه بعض المحن والفتن فيقع أسير اليأس، قد يستطيع المجتمع إذا كان بخير أن ينتشله من هذا الجو أو يخفّف من نتائج حالة اليأس عنده، وأما إذا بلغ المجتمع نفسه حدّ اليأس نتيجة انسداد آفاق التغيير على الصعيد السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي فستكون المصيبة أدهى وأمرّ، لأنّ مجتمعاً هذه حاله لن يتسنى له النهوض ولا الإبداع ولا التقدّم.

وغنيّ عن البيان أنّ المجتمع اليائس هو:

أولاً: موئل خصب لكلّ الأمراض، من الانتحار إلى التعدّي والقتل والسرقة، إلى التفكك الأسري والتفلت الأخلاقي

ثانياً: هو مجتمع مهزوم ومتفكك داخلياً، ولا يمكنه مواجهة التحديات الخارجية، الأمر الذي يفرض علينا

ونحن نعدّ العدة لمواجهة العدوان الخارجي أن نعمل بادىء ذي بدء على تحصين المجتمع من الداخل وأن نبثّ فيه ثقافة الأمل والحياة.

٤ـ الإيمان والأمل

في مواجهة هذه الحالة المَرَضِيّة (حالة اليأس) قد يحتاج الأمر ولاسيما في علاج حالة اليأس الفردي إلى الرجوع إلى أهل الخبرة من المتخصصين النفسيين أو غيرهم، في سبيل معالجة بعض الآثار السلبية التي يتركها اليأس على الفرد، ولا شكّ أنّ التوجيهات التربويّة والدينيّة والاجتماعية تنفع كثيراً في هذا المجال وتستطيع أن تؤمّل الإنسان اليائس وتفتح أمامه أبواب الأمل، بما يعينه على مواصلة رحلة الحياة.

ولكنْ ثّمة علاج من نوع آخر لحالة اليأس على الصعيدين الفردي والاجتماعي يجدر بنا لفت النظر إليه، وربّما شكّل عامل وقايةٍ من اليأس وليس علاجاً فحسب، وهذا العلاج ينطلق من صلب العقيدة الإسلامية، وذلك من خلال الارتباط الفاعل بالله تعالى والتسليم المطلق له والإيمان بقضائه وقدره، فإنّ الإيمان بالله تعالى ليس مجرّد شعارات نرفعها ولا طقوس نؤديها، بل إنّ الإيمان الحقيقي يجعلك تعيش الاطمئنان والتسليم في مواجهة الخطوب، وتشعر أنّ الله تعالى دوماً إلى جانبك ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة ٤٠)، وأنّه تعالى لا يتخلّى عنك أبداً ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ (الزمر٣٦)، وأنّ كلّ ما يواجهك في الحياة فهو في عين الله تعالى، ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة ٥١).

إنّ الإيمان الحقيقي سيجعل المؤمن يستعذب الآلام والصعاب ويتغلّب عليها، ولا يسمح لها بأن تُسقط إرادته، ولذا نرى أنّ اليأس أكثر ما يستحكم في نفوس الذين لا يؤمنون بالله تعالى أو في نفوس ضعاف الإيمان، فالإنسان الملحد ـ مثلاً ـ وعلى عتبة أي مشكلة مصيرية

تواجهه قد يشعر باليأس وتفقد حياته معناها، وتغدو حياة عبثيّة غير ذات قيمة بالنسبة إليه، وأمّا المؤمن بالله تعالى وبحكمته تعالى وأنه لا يفعل عبثاً، فإنّ إيمانه سوف يحصّنه ويحميه من كلّ ذلك.

وهكذا فإنّ الإيمان باليوم الآخر، يوم العدالة، يوم الجزاء الأوفى، يوم السعادة في رضوان الله، هو الآخر عامل مساعد على بثّ روح الأمل في نفس الإنسان المؤمن، لأنّه حتى لو تعرّض في هذا العالم للظلم والقهر أو فاتته بعض الرغبات أو واجهته بعض الصعاب فإنّ ذلك كلّه هو بعين الله، وإذا لم يُقدِّر الناسُ معروفَك فإنّ الله لا يضيع عنده شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (الكهف ٣٠)، ولسوف يعوّضنا يوم القيامة عن كلّ هذه الآلام، ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (القصص ٦٠).

ولا يقتصر الدور الإيجابي للإيمان على التأميل الأُخروي، فالإيمان يمنحنا أملاً في هذه الدنيا أيضاً وقبل يوم الحساب، وذلك من خلال الوعد الإلهي بتمكين العباد المؤمنين في الأرض، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور ٥٥)، وهذا هو ما تعنيه عقيدتنا بالمهدي المنتظر عليه السلام والمخلّص الموعود، فإنّ عقيدتنا هذه هي عقيدة يفترض أن تبعث الأمل في النفوس وتحفّز

الإنسان المستضعف على العمل والاستعداد، لا أن تدفعه إلى اليأس أو الاحباط، وقد تنبه بعض الباحثين العرب[11]، إلى الدور الذي أسهمت به عقيدة المهدوية في إبقاء التشيّع مذهباً حيّاً وفاعلاً رغم الصعاب التي واجهت أتباعه ورغم التهديد والوعيد والظلم الذي تعرضوا له على مرّ التاريخ.

وانطلاقاً من هذا الرابط التنافري بين الإيمان واليأس ومن أنّ العقيدة لها دور في مواجهة ثقافة اليأس فقد اعتبر القرآن الكريم أن اليأس هو علامة الكفر، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (يوسف ٨٧).

وقال سبحانه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود ٩]

وهذا الربط القرآني بين اليأس والكفر مردّه إلى أنّ الإنسان اليائس هو إنسان لا يمتلك الثقة بالله تعالى ولا يحسن الظنّ به، بل ولا يعرف تعالى حق معرفته، وربّما دفعه يأسه إلى الاعتراض على الله تعالى والتشكيك بحكمته وقدرته.

٥ـ الإسلام دين الأمل

وإنّ التعاليم القرآنية ووصايا النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة من أهل البيت عليهم السلام قد أكدّت على أهمية أن يظلّ الإنسان متفائلاً بالخير متأملاً بالأفضل، فإذا مرض فلا يسقطه المرض، بل يتأمل الشفاء، وإذا كان فقيراً فلا يحبطه الفقر بل يظلّ يأمل انفتاح أبواب الرزق وتغيّر الحال إلى الأحسن، وإذا واجهته بعض التحديات والأمور المخيفة فلا ينهار أمام أسباب الخوف، بل يحاول أن يتمسّك بحبل الله تعالى وبذكره، فيمنحه ذلك الأمن والأمان..

ويعطينا القرآن الكريم نموذجاً رائعاً عن الأمل الذي عاشه نبيّ الله يعقوب عليه السلام، فإنّه ورغم طول غيبة يوسف عليه السلام عنه دون أن يعرف عنه شيئاً ظلّ متمسكاً بحبل الأمل، وقال لأولاده: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (يوسف ٨٧).

وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الأمل رحمة لأمتي، ولولا الأمل ما أرضعت والدةٌ ولدها ولا غرس غارس شجراً**»[١٢].

فالأمل هو الذي يعطي الحياة

معناها، ويمنح الإنسان حوافز الاستمرار والبقاء، وقد أجاد الطغرائي في التعبير عن هذا المعنى في لاميّة العجم:

أُعلّل النفسَ بالآمالِ أرقِبُهَا

ما أضيقَ العيشَ لولا فسحةُ الأَمَلِ

وفي الخبر أنّه بينما عيسى بن مريم جالس وشيخ يعمل بمسحاة ويثير بها الأرض فقال عيسى:اللهم انزع عنه الأمل، فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة، فقال عيسى: «اللهم أردِدْ إليه الأمل، فقام فجعل يعمل»[١٣].

وفي ضوء ما تقدّم، فإنّ علينا ومن منطلق إيماني ليس أن نعيش الأمل فحسب، بل وأن نعمل على بثّ ثقافة الأمل في النفوس، ولا سيّما في هذه المرحلة من تاريخ أمتنا حيث إنّ أسباب اليأس والإحباط كثيرة.

إنّ علينا أن نعيَ جيّداً أنّ هذا الدين كلّه رحمة وأمل وعدل، وأنّ انتماءنا إلى هذا الدين يحتّم علينا أن نكون دعاة ومبشّرين بثقافة الأمل.

ومن التعاليم الرائعة التي يوصينا بها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله - بحسب الرواية - أنّه إذا دخل الشخص على المريض عائداً فيجمل به أن يؤمّله بالحياة، لا أن يتحدّث معه بطريقة تشعره وكأنّه ميّت في هذا المرض ولا أمل له بالنجاة ولا فرصة له في الحياة ، كما قد يفعل البعض عندما يقول للمريض:

«لا تحزن فكلّنا على هذا الطريق أو كلّنا ميّتون»، وربّما يتأفف البعض أمام المريض وتبدو عليه الصدمة والتأثر ما يزيده هماً على هم، ففي الحديث عن أبي سعيد الخدري قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **إذا دخلتم على المريض فنفّسوا (وسعوا) له في الأجل، فإنّ ذلك لا يردّ شيئاً وهو يطيّب النفس**»[١٤].

٦- فقد الأمل بالدين!

ما تقدّم كان حديثاً عن حالة اليأس التي تواجه الإنسان في هذه الحياة، وهو يأس من الحياة نفسها، وهو ناشئ إمّا من إحساس الإنسان بالملل وعدم الجدوى من هذه الحياة، وإمّا من الفشل الذي

يواجهه في حياته فيصاب بالإحباط ويشعر بعدم إمكانية التغيير، ولكن هناك أشكال أخرى من اليأس تصيب الإنسان وهي لا تقل خطورة عن اليأس المشار إليه، وفيما يلي أتحدّث عن نوعين آخرين من اليأس وهما:

أ) اليأس من الدين.

ب) اليأس من رحمة الله وعفوه.

أمّا اليأس من الدين فهو دون شكّ من أخطر أنواع اليأس التي يلزمنا العمل على مواجهتها بحكمة وعناية، حيث إننا نلاحظ أنّ بعض المسلمين قد أخذوا يفقدون الأمل ليس بالحياة بل بصدقيّة دينهم، وذلك نتيجة بعض التصرّفات المروّعة والأعمال الإجرامية التي يرتكبها البعض باسم الدين، فيذبحون الأبرياء باسم الله، ويَسْبُون النساء باسم رسول الله صلى الله عليه وآله! وهذا أمر خطير للغاية، لأنّ هذه الأعمال أصابت الدين نفسه بسهامها قبل أن تصيب الضحايا الأبرياء الذين يطالهم سيف التكفير، الأمر الذي يحتّم على الدعاة والمربّين والرساليين أن يستنفروا لمواجهة أسباب هذا اليأس، ويُظهروا بالحُجّة والبرهان الجانب المشرق والحقيقي لهذا الدين، ولا يجوز أن يتسرّب الشكّ إلى نفوسنا قيد أنملة في أنّ الإسلام يمتلك من الأصالة والانفتاح ما يجعله قادراً على التعايش مع العصر ومواكبته وتقديم الحلول الناجعة لمشكلاته.

ومع أهميّة لجوئنا واعتمادنا في مواجهة هذا النوع من اليأس على إظهار الوجه الحقيقي للإسلام والعمل على تعرية الفكر التكفيري التيأيسي لنثبت بالدليل والبرهان أنّه فكر دخيل على الإسلام، وأنّ هؤلاء المتشددين لا يحملون من الدين إلاّ اسمه[١٥]، مع أهمية ذلك وضرورته لكنّه قد لا يكون كافياً، وإنما يلزمنا بالإضافة إليه أن نقدّم صورة واقعية مشرقة، بحيث نُظهر الوجه الحقيقي للدين من خلال سلوكنا، ومن خلال تقديم نموذج عملي وواقعي عن إنسانية هذا الدين وأصالته.

٧ـ الأمل بالله والرجاء برحمته

وأما اليأس من رحمة الله ومن مغفرته فهو ما يبتلي به بعض المذنبين الذين ارتكبوا الفواحش وانغمسوا بالمعاصي والكبائر، ونتيجة لذلك يتملكهم إحساس بأنّ الله تعالى لن يغفر لهم ذنوبهم وإن تابوا إليه واستغفروه وندموا على ما فعلوه، وهذا الإحساس قد يدفعهم إلى الإيغال في المعاصي أكثر فأكثر والاستهانة بكلّ الفواحش والكبائر، لأنّهم ـ بحسب ظنّهم ـ مطرودون من رحمة الله على كلّ حال، فما قيمة أن يضيفوا ذنباً جديداً إلى قائمة الذنوب التي ارتكبوها!

وهذا اليأس هو من أخطر أنواع اليأس على الإطلاق، لأنّه يأس يؤثّر على مصير الإنسان في الآخرة وليس في الدنيا فحسب، كما أنّه يأس يعبّر عن خطأ عقائدي وفكري وليس خطأً سلوكياً فحسب، وذلك لأنّ اليائس من عفو الله ورحمته إنّما يسيء الظن بالله ولا يعرفه حق المعرفة ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (الأنعام ٩١)، فما حجم ذنوبنا في جنب رحمته؟!

ففي الحديث عن بعض الأئمة من أهل البيت عليهم السلام فيما وعظ الله به تعالى عيسى بن مريم عليه السلام: «يا عيسى تُبْ إليّ، فإنّي لا يتعاظمني ذنب أن أغفره وأنا أرحم الراحمين»[١٦].

وعن الامام زين العابدين عليه السلام: «**وَلَا يَسْتَعْظِمُ عَفْوَكَ إِنْ عَفَوْتَ عَنْه ورَحِمْتَه، لأَنَّكَ الرَّبُّ الْكَرِيمُ الَّذِي لَا يَتَعَاظَمُه غُفْرَانُ الذَّنْبِ الْعَظِيم**»[١٧].

إنّ على الإنسان الذي يعيش اليأس من رحمة الله ومغفرته نتيجة ارتكابه لبعض الذنوب والمعاصي أن يعلم أنّه لا مبرر ليأسه هذا، لأنّ رحمة الله أوسع منا ومن ذنوبنا ولا يقف أمامها ذنبٌ ولا يتعاظمها معصية، فهو يغفر الذنوب جميعها مهما عظمت وتكاثرت، وتعال معي لنتأمل مليّاً في هذا المقطع الرائع من دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام في سَحَرِ شهر رمضان، وسوف نكتشف من هذا المقطع عظيم مغفرة الله تعالى وتفاهة

ذنوبنا في جنب عفوه وحقارة أعمالنا في جنب نعمه وكرمه، يقول عليه السلام:

«يا حبيب من تحبب إليك! ويا قرّة عين من لاذ بك وانقطع إليك! أنت المحسن ونحن المسيئون، فتجاوز يا رب عن قبيح ما عندنا بجميل ما عندك، وأيّ جهل يا ربّ لا يسعه جودك، أو أيّ زمان أطول من أناتك، وما قدر أعمالنا في جنب نعمك، وكيف نستكثر أعمالاً نقابل بها كرمك! بل كيف يضيق على المذنبين ما وسعهم من رحمتك! يا واسع المغفرة يا باسط اليدين بالرحمة، فوعزتك يا سيّدي لو نهرتني ما برحت من بابك ولا كففت عن تملقك لما انتهى إليّ من المعرفة بجودك وكرمك، وأنت الفاعل لما تشاء تعذب من تشاء بما تشاء كيف تشاء، وترحم من تشاء بما تشاء كيف تشاء»[18].

ونحن نلاحظ أنّ النصوص الإسلامية وفي مواجهة هذا النوع من اليأس قد تحرّكت في خطين:

أولاً: رفض اليأس من رحمة الله والقنوط من مغفرته رفضاً قاطعاً، وعدّته تلك النصوص في عداد كبائر الذنوب والمعاصي[19]. والوجه في ذلك ما أشرنا إليه من أنّ هذا اليأس يمثّل خللاً عقدياً لدى الإنسان، كما ويدفعه إلى الانغماس بالمعاصي والاستهانة بالذنوب.

ثانياً: وحثّت تلك النصوص على حسن الظن بالله وأكدّت على أنّ المؤمن لا بدّ أن يعيش الرجاء المستمر، فعنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «**وَجَدْنَا فِي كِتَابِ عَلِيٍّ عليه السلام أَنَّ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وآله قَالَ وهُوَ عَلَى مِنْبَرِه: والَّذِي لَا إِلَه إِلَّا هُوَ مَا أُعْطِيَ مُؤْمِنٌ قَطُّ خَيْرَ الدُّنْيَا والآخِرَةِ إِلَّا بِحُسْنِ ظَنِّه بِاللَّه ورَجَائِه لَه وحُسْنِ خُلُقِه والْكَفِّ عَنِ اغْتِيَابِ الْمُؤْمِنِينَ، والَّذِي لَا إِلَه إِلَّا هُوَ لَا يُعَذِّبُ اللَّه مُؤْمِناً بَعْدَ التَّوْبَةِ والِاسْتِغْفَارِ إِلَّا بِسُوءِ ظَنِّه بِاللَّه وتَقْصِيرِه مِنْ رَجَائِه وسُوءِ خُلُقِه واغْتِيَابِه لِلْمُؤْمِنِينَ، والَّذِي لَا إِلَه إِلَّا هُوَ لَا يَحْسُنُ ظَنُّ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ بِاللَّه إِلَّا كَانَ اللَّه عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِه الْمُؤْمِنِ، لِأَنَّ اللَّه كَرِيمٌ بِيَدِه الْخَيْرَاتُ يَسْتَحْيِي أَنْ يَكُونَ عَبْدُه الْمُؤْمِنُ قَدْ**

أَحْسَنَ بِه الظَّنَّ ثُمَّ يُخْلِفَ ظَنَّه ورَجَاءَه فَأَحْسِنُوا بِاللّه الظَّنَّ وارْغَبُوا إِلَيْه»[٢٠].

ولكن في الوقت عينه فإنّ على الإنسان أن لا يعيش الاسترخاء الكامل، فينصرف عن العمل الصالح ويعزف عن طاعة الله وينغمس في المعاصي، اعتماداً منه على رحمة الله وركوناً إلى عفوه، وهذه الحال هي ما تعبّر عنه الروايات بالأمن من مكر الله ، وهو ـ كاليأس من روح الله ـ من كبائر الذنوب، فيفترض بالمؤمن أن يعيش بين الخوف والرجاء.

٨ـ طول الأمل

أجل، عندما نتحدث عن أهميّة الأمل على مستوى الفرد والجماعة، وعن دوره في استمرار الحياة، فإنّ علينا أن نستدرك لنقول: إنّ الأمل قد يخرج عن حدّه فيصبح مذموماً ومرفوضاً ، ومن أجلى مصاديق الأمل المرفوض هو ما عبّرت عنه الأحاديث بـ «طول الأمل» ، فطول الأمل مذموم، لما له من سلبيات:

أ) فهو يدفع الإنسان إلى التسويف، فإذا سألته لماذا لا تعمل أو لا تصوم أو لا تحج أو لا تعمل صالحاً؟ يجيبك قائلاً: الوقت أمامنا ، وإذا سألته: لماذا لا تتزوج وتبني أسرة؟ يجيبك: لا زال أمامنا متسع طويل.. وهكذا تقلّ إنتاجية هذا الشخص، كما نبّه على ذلك الإمام عليّ عليه السلام في كلمته المروية عنه: «**من اتسع أملُه قَصُرَ عمله**»[٢١].

ب) وهو يدفعه أيضاً إلى نسيان الآخرة والاستغراق في الدنيا ، فعن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : «**وإنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنتان: اتباع الهوى وطول الأمل، فأمّا اتباع الهوى فيصدّ عن الحقّ، وأمّا طول الأمل فينسي الآخرة**».

ج) ومن سلبيات طول الأمل أيضاً: قسوة القلب، ففي الكافي: «فيما ناجى الله عزَّ وجلَّ به موسى: يا موسى لا تطوّل في الدنيا أملك، فيقسو قلبك والقاسي القلب مني بعيد»[٢٢].

وهكذا يتضح أنّ طول الأمل هو كاليأس في الآثار السلبية والنتائج غير المحمودة .

الآمال الخادعة

إنّ على الإنسان أن يكون واقعياً في آماله وتوقعاته فلا يعيش أحلاماً خيالية بعيدة عن الواقع، وعليه في الوقت عينه أن يكون صادقاً مع نفسه فلا يخدعها ولا يغشها، والتسويف وطول الأمل قد يصل إلى حدّ خداع النفس وإلهائها عن واجباتها، كما قال تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (الحجر ٣).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**اتقوا باطل الأمل، فربَّ مستقبلِ يومٍ ليس بمستدبره، ومغبوط في أوّل ليله قامت عليه بواكيه في أخره**»(٢٣).

وعنه عليه السلام: «**الأمل كالسراب يغرّ من رآه ويخلف من رجاه**»(٢٤).

وعنه عليه السلام: «**واعلموا أنّ الأمل يسهي العقل وينسي الذكر، فأكذبوا الأمل فإنّه غرور وصاحبه مغرور**»(٢٥).

وفي الختام دعوني أقُلْ: رغم العتمة والظلمة المنتشرة من حولنا لن نسمح لليأس أن يتسرّب إلى نفوسنا ليصيبنا بالإحباط، بل سوف يبقى الأمل رائدنا يملأ قلوبنا بحبّ الخير ويثير فينا الفكرة المبدعة والعاطفة الصادقة، ويحرّك خطانا نحو الأفضل، لنضيء شمعة هنا ونزرع وردة هناك ونواسي مظلوماً هنالك.

سنبقى نحلم بالعدل القادم وننتظره انتظار العاملين وليس انتظار الإتكاليين أو الكسالى، انتظار الفلّاح للشمس التي تُشرق على الزّرع الذي بذره بيمناه، وانتظاره للمطر الذي يروي الأغراس التي غرسها بساعده.

الهوامش

(١) يرى معظم الفقهاء أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر، والكبائر هي كل ما أوعد الله عليه بالنار والعذاب، من قبيل حرمة أكل الربا وأكل مال اليتيم وشرب الخمر وقتل النفس المحترمة وغيرها، وأما الصغائر فهي ما عدا ذلك، ويرى هؤلاء الفقهاء أيضاً أن اجتناب الكبائر سبب للعفو عن الصغائر، لقوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ (النساء: ٣١) وفي المقابل يرى بعض الفقهاء أن الذنوب كلها كبائر، لأنّ التمرد على الله حاصل في ارتكاب الكبائر كما هو حاصل فب ارتكاب الصغائر، وأما الحكم على بعضها بأنها صغيرة فإنما هو بالقياس إلى ما هو أكبر منه، وتفصيل ذلك موكول إلى محله.

(٢) تاريخ الطبري: ج٤ ص ٥٧، البداية والنهاية لابن كثير: ج٧ ص ٣١٨.

(٣) تاريخ الطبري: ج٤ ص٦٠ـ ٦١.

(٤) الكامل في التاريخ: ج٢ ص ١٢٢.

(٥) سبل السلام: ج٣ ص٢٦٠.

(٦) نهج البلاغة: ص١٨٤، دار الهجرة للنشر، قم.

(٧) المجموع للنووي: ج١٩ ص١٩٣،

(٨) المصنف لعبد الرزاق الصنعاني: ج ١٠ ص١٥٠.

(٩) فتح البراي في شرح صحيح البخاري: ج١٢ ص٢٦٨.

(١٠) نهج البلاغة ج١ ص ١٠٨

(١١) انظر: فجر الإسلام لأحمد أمين ص ٢٧٤، وأسس التقدم عند مفكري الإسلام لفهمي جدعان ص ٣٨.

(١٢) بحار الأنوار ج١٤ ص٣٢٩.

(١٣) تنبيه الخواطر ج١ ص٢٧٢.

(١٤) سنن الترمذي ج٣ ص٢٢٨، وكنز الفوائد للكراجكي ص١٧٨.

(١٥) وهذا ما بحثناه بشكل تفصيلي وموسع في كتاب: العقل التكفيري قراءة في المنهج الإقصائي.

(١٦) الكافي ج ٨ ص ١٣٤.

(١٧) الصحيفة السجادية من دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام في ذكر التوبة.

(١٨) مصباح المتهجد للشيخ الطوسي ٥٨٥.

(١٩) انظر: وسائل الشيعة ج ١٥ ص ٣٢٢، الباب ٤٦، من أبواب جهاد النفس.

(٢٠) الكافي ج٢ ص٧٢.

(٢١) الإرشاد ج١ ص٣٠٤.

(٢٢) الكافي ج١ ص٣٣٠.

(٢٣) عيون الحكم والمواعظ ص٩١.

(٢٤) عيون الحكم والمواعظ ص٥٧.

(٢٥) نهج البلاغة ج١ ص١٥١

سماحة آية الله الشيخ
محمد مهدي الآصفي رحمه الله

بحوث قرآنية العُجُب في القرآن الكريم*

من أخطر ما يصنعه الشيطان بالإنسان من مكر، هو «العُجب»، وذلك أن الشيطان قد يحرف الإنسان من العبادة إلى الشرك، وهذا نوع من المكر ظاهر يتمكن الإنسان من مكافحته، وقد يحول الشيطان العبادة نفسها إلى الشرك، وهذا هو أخطر مكر الشيطان، وقد يقطع الشيطان السبيل على الإنسان فيحوله من الإقبال على الله إلى الإعراض عن الله وقد يحول الشيطان الإقبال على الله ـ نفسه ـ إلى الإعراض عن الله وهذا أخطر من الأول.

كيف يمكر الشيطان هذا المكر، وما هي الأداة التي يستخدمها فيحول العبادة والإقبال على الله إلى الشرك والإعراض عن الله؟

---

* ارتأت المجلة إعادة جمع بحوث سماحة آية الله الشيخ محمد الآصفي رحمه الله إحياءاً لتراثه وأهميته.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ (الكهف: ١٠٣-١٠٥).

المدخل إلى البحث

من أخطر ما يصنعه الشيطان بالإنسان من مكر، هو «العُجب»، وذلك أن الشيطان قد يحرف الإنسان من العبادة إلى الشرك، وهذا نوع من المكر ظاهر يتمكن الإنسان من مكافحته، وقد يحول الشيطان العبادة نفسها إلى الشرك، وهذا هو أخطر مكر الشيطان، وقد يقطع الشيطان السبيل على الإنسان فيحوله من الإقبال على الله إلى الإعراض عن الله وقد يحول الشيطان الإقبال على الله - نفسه - إلى الإعراض عن الله وهذا أخطر من الأول.

كيف يمكر الشيطان هذا المكر، وما هي الأداة التي يستخدمها فيحول العبادة والإقبال على الله إلى الشرك والإعراض عن الله؟

الجواب على ذلك ينطوي في كلمتي «العُجب» و«الرياء».

في العجب يحجب الشيطان الإنسان عن الله بـ «الأنا»، ويجعل الأنا حجاباً بين الإنسان وبين الله فتتحول العبادة إلى ضدها: إعراض وشرك، وفي الرياء يحجب الشيطان الإنسان عن الله بالغير، وليس بـ«الأنا» فيجعل وجهة عمله والغاية من عمله هو «الغير» وليس الله ويستدرج الإنسان من الإخلاص لله تعالى وابتغاء مرضاته إلى ابتغاء مرضاة الآخرين وإعجابهم، فيتحول عمل الإنسان من الطاعة والإقبال على الله إلى الشرك والإعراض عن الله.

إذن من أخطر مكر الشيطان في

حياة الإنسان «العُجب» و«الرياء»، ونحن في هذا المقالة نحاول أن نبحث عن «العُجب» إن شاء الله ونتعرف على أسبابه وأعراضه وأنواعه وعلاجه من خلال القرآن الكريم.

علاقة الإنسان بنفسه

من طرائق الفكر الإسلامي تحديد نوع علاقة الإنسان بنفسه، وهو أفق واسع في نفس الإنسان، وقد تتعقد شبكة العلاقة التي تربط الإنسان بنفسه أكثر من تعقيد شبكة العلاقات الاجتماعية التي تربط الإنسان بالآخرين من أفراد أسرته وزملائه وأصدقائه ومنافسيه وأعدائه.

ولكل من هاتين الشبكتين «في النفس والمجتمع» أصولها وأحكامها ومنهاجها التربوي الذي يخصها، ولعل اهتمام الإسلام بالشبكة الأولى في علاقة الإنسان بنفسه لا تقل عن اهتمامه بالشبكة الثانية في علاقة الإنسان بالآخرين.

وللناس في العلاقة بأنفسهم أطوار مختلفة، فقد تكون علاقة الإنسان بنفسه قائمة على «السلام مع النفس» ـ كما قال المسيح بن مريم عليه السلام: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ (مريم: ٣٣)، فهذا طور من العلاقة بالنفس قائمة على السلام مع النفس.

وقد تكون علاقة الإنسان بنفسه قائمة على أساس من «الظلم والاعتداء» يقول تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ (هود: ١٠١).

وقد تكون علاقة الإنسان بنفسه قائمة على أساس «التفكير الذاتي بالنفس». يقول تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ...﴾(الروم: ٨).

وقد تكون العلاقة بالنفس قائمة على أساس «مراقبة النفس وإخضاعها للمراقبة والحساب». يقول تعالى:﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ (المائدة: ١٠٥).

وقد تكون هذه العلاقة بالعكس قائمة على أساس «نسيان النفس وإهمال

مراقبتها». يقول تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ (البقرة: ٤٤).

وقد تكون علاقة الإنسان بنفسه قائمة على أساس «الصراع الداخلي بين الخير والشر»: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ...﴾ (يوسف: ٥٣).

وقد تكون هذه العلاقة قائمة على أساس «إستقرار النفس على الهدى والاستقامة على خط الفطرة». يقول تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾(الفجر: ٢٧ ـ ٢٨)، ويقول تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الرعد: ٢٨).

وهناك نماذج أخرى كثيرة لعلاقة الإنسان بنفسه، قد أولاها القرآن الكريم إهتماماً كبيراً والذي يقرأ القرآن بإمعان يجد أن علاقة الإنسان بنفسه وتنظيم هذه العلاقة وتصحيحها يأخذ من كتاب الله إهتماماً كبيراً ومساحة واسعة.

ولا نريد نحن أن ندخل هذا الأفق من البحث في هذا المقال، وإنما نريد فقط أن نشير إلى أن من النماذج الخطرة لعلاقة الإنسان بنفسه هو «العُجب» وهو حالة انشداد الإنسان بنفسه واعجابه الشديد بها وبأعمالها، بحيث يستأثر «الأنا» بكل اهتمامه وإعجابه ويستأثر بكل رؤيته، فلا يرى غير نفسه وغير أعماله.

وعندما يبلغ الإنسان هذه الدرجة من الانشداد بالأنا يحجبه «الأنا» عن الله تعالى، فيملأ الضئيل الذي يقدمه لله تعالى من عمل وجهد وطاعة كل قلبه وإحساسه، دون أن يرى عظيم رحمة الله تعالى وفضله وجميله به.

ولو كان الإنسان ينظر إلى الأشياء نظرة سوية ويراها بحجمها الحقيقي لاستهان بجهده وعمله وطاعته لله تعالى، وأكبر فضل الله تعالى ورحمته في حقه، واستحى من الله تعالى أن يقابل عظيم رحمته وفضله بمثل هذا الجهد الضئيل. ولكن عندما يستأثر الأنا بكل رؤيته واهتمامه وإعجابه لا يرى إلا جهده وفعله، دون أن يرى رحمة الله تعالى

وفضله، فيتحول إقباله على الله وطاعته لله بهذه الطريقة النفسية الملتوية إلى إعراض عن الله وشرك أو كفر به تعالى، فإن الكافر هو الذي يحجبه حاجب عن الله تعالى حجباً كاملاً. والعجب إذا دخل النفس وتمكن منها يحجب الإنسان عن الله حجباً كاملاً، وفي ذلك هلاك الإنسان وسقوطه التام.

عن الإمام الصادق عليه السلام: «**من دخله العجب هلك**».

وأما في الحالات السوية، عندما يقترن عمل الإنسان وجهده في طاعة الله تعالى بإحساسحقيقي وواضح بعجزه عن شكر الله تعالى ومقابلة إحسانه وفضله، فإن عمله عند ذلك على ضآلة حجمه يكون جسراً يوصله إلى الله تعالى. وقد روي عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام أنه قال لبعض ولده: «**يا بنيّ! عليك بالجد ولا تخرجن نفسك عن حد التقصير في عبادة الله عز وجل وطاعته، فإن الله لا يعبد حق عبادته**».

وعن جابر قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: «يا جابر! لا أخرجك الله من النقص ولا التقصير».

فالعمل الواحد إذن قد يؤدي بالإنسان إلى طريق الله تعالى ويقرّبه من الله، وقد يحجبه ويقطعه عن الله تعالى والفارق الرؤية، وهو أمر عظيم يستحق من الإنسان كل اهتمام.

فقد لا يختلف عمل عن عمل من حيث الحجم والوزن، ولكن أحدهما يقرب العبد إلى الله تعالى والآخر يبعده عنه تعالى.

العجب والإعتداد بالنفس والأنانية

«العجب» حالة واحدة من ثلاث حالات ناتجة عن انشداد الإنسان بمحور الأنا، وهذه الحالات الثالثة هي «العجب» و«الاعتداد بالنفس» و«الأنانية».

و«العجب» هو أن يستأثر الأنا بإعجاب الإنسان ويحجبه عن رؤية فضله تعالى ورحمته به، وفي مقابل «العجب» الشعور بالتقصير والعجز عن أداء شكره ومقابلة فضله ورحمته بالطاعة والعبادة.

والاعتداد بالنفس هي حالة أخرى من حالات الانشداد للنفس تتلخص في اعتماد النفس وطرح الثقة بها في مقابل التوكل على الله ووضع الثقة المطلقة في الله تعالى، وهما حالتان من الاعتماد والثقة في مقابل العمل. وفي الحالة الأولى يضع الإنسان ثقته في نفسه، ويعتمدها وهي الحالة الانحرافية في التعامل مع النفس، وفي الحالة الثانية يضع الإنسان ثقته في الله تعالى ويعتمده في شؤونه وحياته وأعماله كلها وهي الحالة السوية في التعامل.

والحالة الثالثة من حالات الانحراف النفسي في انشداد الإنسان بنفسه هي حالة الأنانية، وهي حالة يكون فيها «الأنا» هو المحور الذي يدور حوله كل حركة الإنسان ونشاطه، ويستأثر بكل فعالية الإنسان وتحركه، وفي مقابل هذه الحالة «الإخلاص لله» الذي يجعل من مرضاة الله تعالى محوراً لكل سعي الإنسان وحركته ونشاطه.

إذن هناك ثلاث حالات من الانشداد بالذات هي «العجب، الاعتداد بالنفس، الأنانية». وهي حالات انحرافية في نفس الإنسان نابعة من إنشداد الإنسان لنفسه وحبه لها وفي مقابلها حالات ثلاثة سوية من الانشداد بالله تعالى والتعلق به وإيثار مرضاته على كل شيء وهي «الإحساس بالتقصير والعجز من أداء شكر الله تعالى والتوكل على الله، والإخلاص لله».

قد يعجب الإنسان بنفسه وملكاته وخصاله وقد يعجب الإنسان بأعماله وقد تكون خصاله وملكاته التي تعجبه خصالاً وملكات صالحة، وقد تكون خصالاً وملكات سيئة. فقد يعجب الإنسان بما في نفسه من رأفة ورحمة، وقد يعجب الإنسان بما في نفسه من قسوة وغلظة. وقد تكون أعماله التي تعجبه أعمالاً صالحة وحسنات، وقد تكون أعمالاً فاسدة وسيئات، فقد يعجب الظالم بظلمه وإجحافه وتعسفه بالناس، ويحسب أن ذلك من متطلبات الحزم والقوة. وهو أقبح أنواع العجب،

ويصف الله تعالى في كتابه أصحاب هذه الحالة بالاخسرين أعمالاً.

يقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ (الكهف: ١٠٤).

مراحل العُجب

للعجب مراحل في نفس الإنسان. فقد يعجب الإنسان بنفسه وخصاله وأعماله وتمتلئ نفسه زهواً بما عنده من خصال وأعمال فيحجبه هذا الشعور عن رؤية فضل الله تعالى عليه ورحمته به. وإنما تحجبه خصاله ومواهبه عن الله إذا فصلها عن الله تعالى وربطها بنفسه، كأنها أشياء تخصه وهو صاحبها وليس لله تعالى فيها عليه فضل. فيحجبه هذا الشعور عن الله تعالى، ويكون الأنا حجاباً للإنسان.

أما إذا كان إحساسه بنفسه وخصاله وأعماله في امتداد إحساسه بفضل الله تعالى ورحمته، فهذا الإحساس لا يحجبه عن الله تعالى، بل يعمق ارتباطه بالله، ويكرس ذلك الله تعالى في نفسه.

والمرحلة الأخرى من العجب أن يتجاوز الإنسان مرحلة العجب بالنفس وخصالها وأعمالها إلى مرحلة الادلال على الله سبحانه، فيتصور الإنسان أن له بأعماله دالة على الله تعالى وهذه مرحلة «الادلال».

ويأتي بعد هذه المرحلة مرحلة «التوقع» من الله، فيتوقع الإنسان من الله ألا يرد له دعاء مثلاً أو أن لا يصيبه بسوء ومكروه، ولا يقوم هذا التوقع على أساس من حسن الظن بالله تعالى ورحمته ومنّه على عباده، وإنما يقوم على أساس الإحساس باستحقاق من الله تعالى بإزاء عمله وجهده. وهذه المرحلة من العجب أقبح من سابقتها.

ويأتي بعد هذه المرحلة مرحلة «العتاب» و«الاعتراض» المكتوم على الله إذا لم تتحقق توقعات الإنسان كما

يريد، وكما يرى أنه يستحقها من الله تعالى، عندئذ يضمر العتاب والاعتراض في نفسه على الله تعالى، وهو على حد الكفر بالله تعالى وهو أقبح من سابقه.

ويأتي بعد هذه المرحلة مرحلة «المن» على الله. فإن الإنسان إذا تمادى في شعوره هذا يستدرجه الشيطان إلى الإحساس بالمن على الله، فيتصور أنه قد أفاد دين الله، ونفع رسالة الله، وأدى خدمة إلى الله تعالى. وهو من أقبح أنواع العجب، وهو على حد الكفر بالله تعالى كما ذكرنا، أو من الكفر بالله أعاذنا الله تعالى منه.

أسباب العجب

العجب يتكون من عنصرين: الانبهار بـ «الأنا» والغفلة عن الله تعالى وهما مرتبطان ومتداخلان. فإن الانبهار بـ «الأنا»، إذا فصله الإنسان عن الله تعالى يحجب الإنسان ويغفله عن الله، والعكس كذلك صحيح. فإن الانصراف والغفلة عن ذكر الله يعطي الفرصة للانا ليستأثر بمشاعر صاحبه، ويبهره.

إلا أن جذور حالة العجب تكمن في «الغفلة» عن ذكر الله، فإن الإنسان إذا كان ذاكراً لله تعالى، مستحضراً لعظمته وجلاله ورحمته ونعمائه لا يمكن أن يكبر عنده «الأنا»، ولا يمكن أن يستأثر الأنا باهتمامه وإعجابه وذكره، وإنما يبرز «الأنا» في حياة الإنسان بقدر ما يغيب ذكر الله عن قلب الإنسان. وعلى ذلك فإن علاج «العجب» أيضاً هو من نفس سنخ السبب، وهو استعادة ذكر الله وتمكينه من العقل والقلب، وتكريس «الذكر» من النفس.

وليس الذكر من مقولة القول واللفظ في شيء، وإنما القول واللفظ تعبير وإبراز للذكر، وحقيقة الذكر هو استحضار صفات الله وأسمائه الحسنى ونعمائه في النفس.

أعراض العجب

من أخطر الأمراض التي تصيب

الإنسان «العجب» وخطورة هذا المرض تنشأ من خطورة الاعراض والنتائج المترتبة عليه ونحن نشير فيما يلي إلى بعض أعراض حالة العجب.

الاستكبار

إن حالة العجب تكرس «الأنا» في نفس الإنسان وتدفع الإنسان إلى تضخيم حجم «الأنا» في نفسه، وفي نفس الوقت تؤدي إلى ضمور ذكر الله في قلب الإنسان.

وهذا التورم في «الأنا» عندما يقترن بضمور ذكر الله في النفس يصبح أساساً لحالة انحرافية مريضة خطيرة في النفس يبتغي فيها الإنسان التمييز والكبر على الآخرين ويتصنع فيها الكبر والتمييز، وهي الحالة التي يسميها القرآن بالاستكبار والتكبر. وقد يكون التكبر على الحق وحتى على آيات الله وأحكامه، فيرفض المتكبر أن يخضع للحق، ويرفض أن يقبل بآيات الله وأن يخضع لأحكامه وأمره ونهيه. وهذا الرفض واللجاج من أبرز خصائص التكبر.

وحالة التكبر والعناد هي الأساس لأعظم مصائب الإنسان وبؤسه وشقائه وهي التي حجبت أعداء الله تعالى من أمثال فرعون ونمرود وهامان وأبي سفيان وأبي جهل وعتاة قريش عن رؤية آيات الله وعن الخضوع لأحكامه تعالى. ومن قبل منعت إبليس عن السجود لآدم:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ❖ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ❖ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (الأعراف: ١١-١٣).

وما أضر بالإنسان شيء أعظم من «التكبر» وما يهلك الناس ويدفعهم إلى جهنم شيء أعظم من «التكبر».

والذي يمعن النظر في كتاب الله يرى أن التكبر هو أساس «الإعراض عن الإيمان بالله تعالى» والإعراض عن «لا إله

إلا الله».

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (الصافات: ٣٥).

وأساس الإعراض عن دعوة الأنبياء:

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ (البقرة: ٨٧).

وأساس الكفر بالله ورسوله:

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ (الأعراف: ٧٦).

وأساس العناد واللجاج والصدّ عن سبيل الله:

﴿... لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ (المنافقون: ٥).

﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ (نوح: ٧).

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ﴾ (الأعراف: ٨٨).

والاستكبار يؤدي إلى الاستنكاف عن عبادة الله تعالى:

﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ (النساء: ١٧٢).

وهؤلاء المتكبرون إذا تمادوا في الكبر يطبع الله على قلوبهم وأبصارهم:

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (غافر: ٣٥).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ (لقمان: ٧).

وهؤلاء تغلق عليهم أبواب السماء «أبواب الرحمة».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ...﴾ (الأعراف: ٤٠)، وتتفتح عليهم أبواب جهنم:

﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (الزمر: ٧٢).

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (الزمر: ٦٠).

الانحراف المركب

والانحراف على شكلين: بسيط ومركب. وأما البسيط فهو أن ينحرف الإنسان عن صراط الله تعالى عالماً بانحرافه، وأمر هذا الانحراف أهون من

غيره، فإن فرص الاستقامة تبقى قائمة للإنسان عندما يكون انحرافه بسيطاً. أما إذا كان صاحب الانحراف يؤمن بأنه يحسن صنعاً ويسير على الصراط المستقيم فذلك من الانحراف المركب (تركيب من الانحراف والجهل)، وهذا أخطر من الانحراف الأول. فإن الإنسان المنحرف يعتقد في هذه الحالة أنه ليس بمنحرف، وهذا التصور يفوت عليه فرص العودة والاستقامة.

و«العجب» من أهمّ مصادر هذه الحالة من الانحراف المركب، فإن الإنسان عندما يأخذه العجب بنفسه يرى القبيح الذي يصدر منه حسناً والسيئة التي يرتكبها حسنة، ولا يسمح لأحد أن يراجعه في شيء من ذلك، ولا يسمح لنفسه الشك والتردد في سلامة شيء من مواقفه وأعماله، ويرى لنفسه ما يشبه العصمة، وهذه الحالة كما ذكرنا أخطر حالات الانحراف وإلى هذه الحالة من الانحراف المركب تشير الآية الكريمة:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ (الكهف: ١٠٣-١٠٥).

عندما يبلغ الإنسان هذه الدرجة من الانحراف تحترق عنده الرؤية بشكل كامل، فيتصور قبائح أعماله وسيئاته حسنات، «وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً».

وهذه حالة من حالات عمى العقل والقلب والبصيرة، يفقد فيها الإنسان القدرة على التمييز بين الحق والباطل، كما يفقد المصابون بعمى الألوان القدرة على تمييز بعض الألوان، بل «العمى» في حالة العجب أخطر، حث لا يفقد فيها الإنسان الرؤية فقط، وإنما تنعكس فيها الرؤية فيرى القبيح منه حسناً، ويرى الحسن من غيره قبيحاً. وتسبب هذه الحالة من العمى وفقدان القدرة على التمييز إنقلاب المقاييس عند الإنسان في حالة «العجب».

فإن الإنسان في حالة الرشد والاستواء يجعل من الحق مقياساً لنفسه وأعماله ومواقفه ويطبق نفسه وأخلاقه وسلوكه ومواقفه دائماً على هذا المقياس، فيستقيم ويصحح أعماله ومواقفه كلما تعرض لخطأ أو انحراف.

وكلما يتقدم الإنسان في «العجب» أكثر تتعمق في نفسه هذه الحالة من انقلاب المقاييس أكثر من ذي قبل، حتى ينقلب الإنسان فيكون هو مقياساً كاملاً للحق، فما يعمله هو الحق وما يتركه هو الباطل وما يريده هو الحق، وما يعارضه ويرفضه هو الباطل ويكون «الأنا» هو المقياس للحق، وليس «الحق» هو المقياس للانا.

والقرآن يصف هؤلاء بأوصاف عجيبة، تستوقف الإنسان، وتدعو إلى كثير من التأمل والتفكير.

فهو يقول لهم أولاً: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، وهذه حالة تخص الحياة الدنيا، فيضيع سعيهم، وضياع السعي بانتفاء الأثر والفائدة المترتبة على السعي، فإن السعي كالحرث يؤتي ثماره طيبة شهية، إذا أراد الله تعالى لها الخير وبارك فيه، ويكون مبتوراً عقيماً إذا سلب الله تعالى منه الخير والبركة، كذلك «السعي» و«الحركة» إذا سلب الله تعالى منه الخير والبركة كان جهداً ضائعاً وسعياً ضالاً.

ويعبر القرآن عنهم ثانياً بـ: (الأخسرين أعمالاً)، وهذه أيضاً حالة تخص الدنيا، والخسارة هي أن يفقد الإنسان جهده وحياته وحركته دون أن يأتي له ذلك بنتيجة أو ثمرة، وجهد الإنسان وحركته وعمره هو «رأس ماله» الذي يتاجر به ويحوله إلى «مرضاة الله» و«قرب الله» و«ثواب الآخرة». وكل جهد وحركة وساعة من عمر الإنسان لا يتحول إلى هذه النتائج فهو خسارة العمر والجهد، وكان مثل هذا الإنسان مثل التاجر الذي ينفق رأس ماله دون أن يعود عليه بأي شيء، وهذه هي الخسارة الكبيرة التي تشير إليها سورة العصر: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ❖ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾.

ولكن القرآن الكريم لا يقتصر هنا في تصوير مأساة الإنسان على هذا الحد، وإنما يتجاوز ذلك ويصف مأساة الإنسان في هذه الحالة بـ «الأخسرين أعمالاً» بصيغة أفعل التفضيل. وسبب تكريس حالة الخسارة هذه أن جهد الإنسان وسعيه وحركته ليس فقط يضيع، وإنما يتحول إلى ضده، فيتحول جهد الإنسان إلى عذاب الله وعقابه وغضبه عوض أن يتحول إلى رحمة الله وقربه ورضوانه وجنّته. كمن ينفق ماله في ارتكاب جريمة فيعاقب ويغرم، فإن هذا الإنسان ليس فقط يخسر رأس ماله، وإنما ينقلب رأس ماله إلى وبال عليه.

ثم يقول القرآن الكريم عنهم ثالثاً: ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾، وهذه الحالة تخص يوم القيامة وهي حالة «الحبط» الكامل في الآخرة وحالة «انعدام الوزن»، ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾.

وحالة «الحبط» في مقابل أصل لله «البقاء» و«الثبات» للأعمال في يوم القيامة، والذي يشير إليه القرآن في كثير من آياته:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٧-٨).

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (الكهف: ٤٩).

وبموجب هذه الحالة لا ينعدم شيء من العمل من خير أو شر يصدر عن الإنسان يوم القيامة. وهذا أصل كوني من الاصول الكونية التي يشرحها القرآن في تبيان سنن الله تعالى.

إلا أن «الكفر» و«الانحراف المركب» النابع من العجب يؤدي إلى حبط الأعمال يوم القيامة: ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾، وأصل «الحبط» في مقابل أصل الثبات.

كما يؤدي الكفر والانحراف المركب إلى حالة «إنعدام الوزن» يوم

القيامـــــة: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾. وبـالوزن يـوم القيامـة يسـتقر الإنسـان في رحمـة الله ورضـوانه، وإذا فقـد الإنسـان الوزن يوم القيامـة فـلا يسـتطيع أن يسـتقر في رحمة الله.

أرأيـت لـو أن الإنسـان فقـدَ «الـوزن الفيزياوي» في الدنيا على وجه الأرض هل يسـتطيع أن يسـتقر فيهـا أو يـبني لنفسـه حيـاة فيهـا؟ كـذلك انعـدام الـوزن يـوم القيامة.

علاج العجب

في حيـاة الإنسـان مصـدران للابـتلاء «الهـوى» و«الأنـا» وكـل منهمـا سـبب لسقوط الإنسان وهلاكه.

فقـد يسـقط الإنسـان علـى مزلـق الاسـتجابة للـهوى فيملـك الهـوى أمـره، ويحكمـه في حياتـه فيجـره إلى الهـلاك والسـقوط. وهـو بـاب واسـع مـن أبـواب الفسـاد والهـلاك والسـقوط في حيـاة الإنسان، وقد حذر الإسلام منه كثيراً واعتبره من أخطر المزالق التي تواجه الإنسان.

وهذه الآية الكريمة تجمع طائفة من أمهات الأهواء في حياة الإنسان:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (آل عمران: ١٤).

والمصـدر الآخـر للسـقوط والهـلاك والفسـاد في حيـاة الإنسـان هـو «الأنـا»، وكمـا كانـت الاسـتجابة غـير المحـدودة للهوى سبباً في السقوط والهلاك في حياة الإنسان كذلك الاستجابة غير المحدودة للانـا يعتـبر المصـدر الثـاني للسـقوط في حيـاة الإنسـان. فـإن الأنـا عنـدما يسـتعلي ويسـتكبر ويتحـول إلى محـور يسـتقطب كـل اهتمامـات ومشـاعر وجهـد الإنسـان يتحـول إلى صـنم يتخـذه الإنسـان إلهـاً في حياته من دون الله. وهـذا بـاب واسـع آخـر للسـقوط والفسـاد والهـلاك في حيـاة الإنسان.

وقد أعطى الإسلام في منهاجه التربوي اهتماماً لهذا وذاك معاً. وقد أعطى الإسلام في منهاجه التربوي اهتماماً لهذا وذاك معاً.

والطريقة الصحيحة في معالجة كل من «الهوى» و«الأنا» ليس في استئصاله أو كبته ومحاربته، وإنما في تعديله وتلطيفه والتحكم فيه.

ومن الوسائل التربوية الصحيحة في تعديل كل من «الهوى» و«الأنا» وضبطهما والتحكم فيهما هي العبادات.

ففي العبادات ما يتخذه الإسلام وسيلة لتعديل الهوى وكفه وضبطه وتحديده كالصوم.

ومن العبادات ما يتخذه الإسلام أداة لتعديل الأنا وتحجيمها كالصلاة فإن الصلاة وسيلة فعالة وقوية لإذلال الأنا وتركيعها بين يدي الله تعالى في الأذكار والأفعال معاً. فالتكبير والتهليل، والحمد، والتعبيد، والاستعانة بالله والتوحيد والدعاء في الأذكار يذلل الأنا ويخضعها لله، ويشعرها بهذا الذل والخضوع بإيحاءات متعددة.

والحج عبادة فريدة في الإسلام يجمع بين هذا وذاك، ففي الحج منهاج تربوي واسع لتدريب الإنسان على ضبط الهوى وتحديده، ويمكن الإنسان من أهوائه وشهواته.

ففي محرمات الإحرام منهج عملي لضبط مجموعة من الأهواء القوية والمؤثرة في النفس، كالغريزة الجنسية والنزوع إلى جملة من الطيبات والنزوع إلى الرفاه والراحة.

وفي محرمات الإحرام ما يضبط الأنا ويحدده ويتحكم فيه، كتحريم لبس المخيط على الحجاج الرجال، واللباس من أبرز سمات شخصية الإنسان في انتمائه الطبقي والقومي. وفي الميقات يتجرد الحجاج من كل ملابسهم وأزيائهم الشخصية والقومية ويظهرون بمظهر واحد، دون امتيازات شخصية أو طبقية أو قومية أو فئوية.

ومن محرمات الإحرام «الجدال» وهو من الميول الأنانية العميقة في نفس

الإنسان بالظهور والاستعلاء على خصمه. والطواف يرمز إلى تكريس التوحيد ومحورية «الله» تعالى في حياة الإنسان في مقابل تكريس محورية الذات. ولوقوف المسلمين جميعا في عرفات في وقت واحد في واد غير ذي زرع من دون امتيازات وفوارق للبعض على بعض، للتذلل والتضرع بين يدي الله تعالى دور كبير في اذلال الأنا وتعبيدها لله تعالى وتحويلها من طور الألوهية والأنانية إلى طور العبودية لله تعالى.

والذي يمعن النظر في فريضة الحج يجد أن هذه الفريضة العبادية تتضمن منهاجاً تربوياً دقيقاً وعملياً في ضبط «الهوى» و«الأنا» وتعديلهما وتعبيدهما لله تعالى.

ونحن في هذا الحديث لا نريد أن نبحث عن الهوى وأخطاره وأعراضه وعلاجه في حياة الإنسان. فليس في هذا المقال موضع للدخول في هذا البحث، وإنما أشرنا إليه إشارة لنعرف موضع «الأنا» من الأخطار التي تهدد حياة الإنسان، وليكتمل عندنا منهج البحث وإطاره.

فإن «الأنا» هو مصدر «العجب» في حياة الإنسان. ولا محالة بكون علاج العجب بعلاج الأنا. و« الأنا» كما ذكرنا أحد مصدري الخطر والسقوط والفساد في حياة الإنسان.

« العُجب و الأنا»

مصدر العجب «الأنا» ولا محالة يكون علاج العجب في علاج «الأنا»، إذن المسألة الأساسية في المرض والعلاج هو «الأنا»، فلنتأمل إذن فيه.

للأنا حالتان: في الحالة الأولى يتمحور الأنا حول نفسه، ويستقطب كل جهد صاحبه وحركته وكل حبّه وبغضه وكل مشاعره واهتماماته.

وفي الحالة الثانية تكون مرضاة الله هي المحور لكل حركة الإنسان ونشاطه واهتمامه.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢).

في الحالة الأولى يسقط الإنسان وفي الحالة الثانية يعرج الإنسان. ومرض العجب بعض أعراض الحالة الأولى، وعلاج هذا المرض وسائر الأمراض الناشئة من مركزية «الأنا» في الحالة الثانية. فإذا فكّ الإنسان ارتباطه من «الأنا» وربط نفسه بمحور الله تعالى وذكره ورضاه يخلص من العجب كما يتخلص من كل الأعراض والأمراض الكثيرة الأخرى التي تنشأ من حالة محورية الأنا.

وهذه الحالة من الإستكبار ومحورية «الأنا» هو الذي منع إبليس (لعنه الله) من الإستجابة لأمر الله تعالى في السجود لآدم: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ (ص: ٧٥-٧٦).

وفي الخطاب الإلهي لإبليس من العناية بخلق آدم ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾. ومن الإنكار الساخر على إبليس ﴿أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾؟ ما لا يخفى على الذي يمعن النظر في هذا الخطاب.

وصياغة الآية دقيقة ومعبرة، فهي تبرز «الأنا» بشكل صارخ في جواب إبليس عن السبب الذي منعه من السجود ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾؟

وينحدر اللّعين من «الأنا» إلى الحسد، فلا يطيق أن يرى هذه الميزة لآدم عليه السلام من دونه فيحسده، وهذا هو الانحدار الأوّل.

ويشقَ عليه أن يستجيب لأمر الله تعالى في السجود لآدم، فيتمرد على أمر الله تعالى ويمتنع عن الاستجابة له، وهذا هو الانحدار الثاني، وهو نهاية السقوط في حياة هذا اللّعين.

وابتلاء قارون أيضاً في هذه الأنانية الطاغية:

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾

(القصص: ٧٨).

فلا يرى قارون لله تعالى فضلاً عليه فيما عنده من الكنوز حتى يحاسبه عليه ويطلب منه الإنفاق منها، وإنما هي له خاصة، تجمعت عنده على علم عنده وجهد له. إذن، نقطة الضعف في

شخصية قارون هي «الأنا»، ومن خلال هذه النقطة اندسّ الشيطان إليه، ودعاه إلى التمرّد على الله تعالى ورسوله.

ويبرز الأنا بصورة صارخة في حياة فرعون:

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ (النازعات:٢٣ ـ ٢٤)، وهذه واحدة من أقبح حالات الإستعلاء للأنا.

وهذه الحالة من الأنانية الطاغية تؤدّي بصاحبها إلى استضعاف الآخرين واستخفافهم وإذلالهم للتمكن منهم وفرض نفوذه وسيطرته عليهم: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ (الزخرف: ٥٤).

وهذا هو الوجه الممقوت والقبيح من الأنا، وإلى هذا الوجه تعود طائفة كبيرة من المشاكل والمتاعب والمصائب والابتلاء في حياة الإنسان.

والوجه الآخر للأنا هو وجه العبودية والإرتباط والإنشداد بالله تعالى.

والأنا ـ في هذا الوجه الآخر ـ لا يكون محوراً لحركة الإنسان وجهده ونشاطه وحبّه وبغضه، وإنما يتحوّل الإنسان من «الأنا» إلى محور مرضاة الله تعالى وقربه، ويكون مرضاة الله هو غاية الإنسان في حركته ونشاطه وهو الأساس والمحور في حبّه وبغضه.

يقول تعالى فيما يوجه به عبده ورسوله ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦١ـ١٦٣)، وهذا هو الوجه المقبل على الله تعالى من « الأنا» فيما كان الوجه الأوّل هو الوجه المعرض عن الله تعالى من الأنا.

الدوائر الأربعة للأنا

وكما ينشئ الإنسان العلاقة مع الآخرين تتصف بالحبّ والبغض والإنسجام والتناقض والتعاون والتواكل، كذلك للإنسان دوائر أُخر من العلاقات على نفس الترتيب مع الله

تعالى ومع نفسه ومع الدنيا.

وهذه أربعة داوئر للعلاقات يدخل فيها الأنا بالصورة التالية:

١ـ علاقة الأنا بالله تعالى.

٢ـ علاقة الأنا بالآخرين.

٣ـ علاقة الأنا بالدنيا (الأشياء).

٤ـ علاقة الأنا بنفسه.

ونمط علاقة الأنا في كل من هذه الدوائر الأربعة يختلف اختلافاً جوهرياً وعميقاً في الحالة الأولى (محورية الأنا) عن الحالة الثانية (محورية الله تعالى).

وطائفة واسعة من مصائب الإنسان وابتلاءاته ومشاكله هي من إفرازات «الأنا» عندما يتحوّل «الأنا» في حياة الإنسان إلى محور من دون الله تعالى. فيكون من إفراز «الإنا» في هذه الحالة في علاقة الإنسان بالله تعالى التكبر على الله، والتمرّد على الله والشرك والكفر. ومن إفراز الأنا في علاقة الإنسان بالآخرين نظام الإستكبار والإستضعاف في العلاقات الاجتماعية، والحسد، والعدوان، والبغضاء، والكراهية فيما بين الناس. ومن إفراز الأنا في هذه الحالة في علاقات الإنسان بالدنيا الحرص والطمع والجشع. ومن إفراز الأنا في علاقته بنفسه العجب، الغرور والاعتداد بالنفس وتزكية النفس وتبرئتها عن الخطأ والتقصير.

بينما نجد أن إفراز الأنا ونتائجه عندما يجعل الإنسان مرضاة الله تعالى في حياته هي المحور ويجعل الأنا تابعاً لهذا المحور أمر يختلف تماماً في النقاط التي ذكرناها في هذه الشبكة الواسعة من العلاقات.

وهذا إجمال لابد له من تفصيل، وهذا التفصيل يرتبط بموضوع بحثنا ارتباطاً وثيقاً، لابد من الدخول فيه.

وإليك هذا التفصيل:

عندما يتحوّل «الأنا» في حياة الإنسان إلى محور يستقطب كل مشاعره واهتماماته يصدق على هذا الإنسان أنه أتخذ «الأنا» إلهاً. ويتحول «الأنا» إلى صنم في حياته يعبده الإنسان من دون الله. وبقدر ما يبرز «الأنا» إلهاً في حياة الإنسان

يضمر إحساس الإنسان بألوهية الله تعالى في حياته.

وبين هذا وذاك نسبة عكسية دائماً، فكلما تبرز ألوهية الأنا أو الهوى في حياة الإنسان أكثر يختفي التوحيد أكثر. فإن التوحيد يقع في النقطة المقابلة لمحورية الأنا تماماً. وكلما تتكرس حالة محورية الأنا في حياة الإنسان تختفي حالة التوحيد.

والمرحلة الأولى لهذا البروز والإختفاء «الشرك» حيث يشرك الإنسان بالله تعالى، والشريك الذي يشركه الإنسان في الألوهية هو «الأنا». والمرحلة الأخيرة لهذا البروز والإختفاء «الكفر» حيث يغطي الأنا ذكر الله في قلب الإنسان بشكل كامل، والكفر بمعنى التغطية، فتبرز محورية

الأنا في حياة الإنسان بصورة طاغية ويختفي التوحيد تماماً من نفسه وهذه هي التي ينتهي إليها الإنسان غالباً عندما يستدرجه حبّ الذات.

وهذا «الكفر» من الكفر في مقام العمل، وليس من الكفر في «العقيدة». وقد يختلفان فيبقى الإنسان في العقيدة مؤمناً بالله تعالى خالقاً ورازقاً وربا، ولكنه في مرحلة العمل ينسى الله تعالى ويُنكره تماماً في اهتماماته وجهده وحركته ومشاعره ويتحرك حول نفسه، ويتحول من محور «الله» إلى محور «الأنا» وينفك تماماً عن المحور الأول، ويرتبط تماماً بالمحور الثاني.

وهذا الكفر في التعامل قد يستتبع الكفر في العقيدة، وقد يفارق الكفر في العقيدة ولكن القرآن يحكم عليه بالكفر، كما يحكم على الحالة الأولى منها بالشرك.

قصّة صاحب الجنتين

وفي قصّة صاحب الجنتين في سورة الكهف نلتقي نحن هذه الحالة من الكفر المستبطن في التعامل.

ولنقرأ هذه القصة في سورة الكهف:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا

زَرْعًا ، كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ، وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ، وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ، وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ، قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ، لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ، وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ، فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ، أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ، وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ، وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ (الكهف: ٣٢-٤٤).

ولنتأمل في هذه الآيات فإنها غنية بالمفاهيم والأفكار، وأوّل ما يلفت نظرنا في هذه الآيات تأكيد القرآن على ربط هذه النعم بالله تعالى: ﴿رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾، ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾.

ولا شكّ أنها عناية مقصود في بداية القصة، وهو أحد الإتجاهين المختلفين في الحوار الذي يجري في جوّ هذه القصة في سورة الكهف.

وهذا الإتجاه هو ربط كلّ نعمة وموهبة وخير ورزق في حياة الإنسان بالله تعالى، والتأكيد على هذا الربط في مقابل الإتجاه الآخر نقرأه في هذه القصة وهو فكّ ارتباط النّعم عن الله تعالى وربطها بالإنسان واعتبار الإنسان هو صاحب هذه النعم ووليّها.

ويبرز هذا الإتجاه في الحوار الذي يجري في القصة في كلمة صاحب الجنتين لصاحبه، وهو يحاوره: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾، فالمال والنفر العزيز للأنا، وليس لارتباطهما بالله تعالى ذكر أو إشارة.

ومن عجب أن هذه النعم الموصولة بالله تعالى بدل أن تتحوّل في نفس

صاحب الجنتين إلى إحساس بالشكر والتواضع لله تعالى تتحوّل في نفسه إلى طغيان للأنانية وبروز صارخ للأنا أوّلاً ثم إلى تكاثر وتفاخر ومباهاة: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾.

وسبب بروز «الأنا» وطغيانه عند صاحب الجنتين ليس هو «النعمة». وإنما طريقة فهمه للنعمة وعلاقة النعمة به. إن النعمة عنده له وهو وليها وليس لأحد فضل عليه فيها، بعكس التصور الذي يقدمه القرآن لعلاقة الإنسان بالنعمة والتي أشرنا إليها قريباً.

فإن النعمة ـ بناءً على التصوّر القرآني ـ لله تعالى وهو وليّها، وليس لصاحب النعمة فيها شأن أو فضل، إلاّ أن الله تعالى أودعها عنده وجعله خليفة عليها.

وهذان التصوّران مفتاحان لنمطين من الشخصية يشير إليهما الحوار الذي يجري في سورة الكهف في قصة صاحب الجنتين. ولكلّ من هاتين الشخصيّتين طريقته وأسلوبه في فهم النعمة والتعامل معها. في النمط الأوّل من الشخصية، وهو النمط القرآني، يتكرس ارتباط النعمة بالله تعالى وهو بمعنى فقر الإنسان إلى الله تعالى ولي النعمة، ولذلك فإن السمة البارزة في هذه الشخصية هي «الفقر» إلى الله تعالى. يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ (فاطر: ١٥).

وأروع تصوير لهذه الحالة من «الأنا» ورد في القرآن في قصة موسى بن عمران عليه السلام عندما وقف في الظلّ يستريح بعدما سقى لابنتي شعيب: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (القصص: ٢٤).

والأنا في هذه الآية الكريمة تقع بين نعمة نازلة من الله «لما أنزلت إليّ» وفقر صاعد إلى الله «فقير» أحدهما ينتهي إلى.. الإنسان من الله تعالى وهو النعمة والرحمة، والآخر ينطلق من الإنسان إلى الله وهو الفقر. و«الأنا» بين هذا الخط الصاعد والخط النازل.

وهذا هو الوضع الصحيح للأنا في

الإرتباط بالنعمة والنمط القرآني للشخصية.

وهذا النموذج من الشخصية بارز كل البروز في الحوار الوارد في قصة صاحب الجنتين، كما سيتضح أكثر فيما بعد، إن شاء الله.

والنمط الآخر من الشخصية هو النمط الأناني، وفيها يتكرس ارتباط النعمة بالأنا وتختفي علاقة النعمة بالله تعالى، فتكون النعمة في حياة الإنسان من علامة «الغنى» وليس «الفقر» وكلّما يزداد حظ الإنسان من النعمة يشعر بالإستغناء أكثر من ذي قبل.

والإحساس الاحساس سبب الإنفصال عن الله، كما أن الإحساس بالفقر سبب الإرتباط بالله تعالى.

وفي حالة الإسحساس بالغنى والإنفصال عن الله يبرز الأنا ويطغى، كما أن الأنا في حالة الإحساس بالفقر والإرتباط بالله يختفي ويضمر.

وصدق الله تعالى حيث يقول: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ (العلق: ٦-٧)، وهذه الآية تصوّر بصورة واضحة ودقيقة كيف تتحوّل النعمة في حياة الإنسان إلى إحساس بالغنى وشعور بالإنفصال عن الله وبالتالي الطغيان. وهذه الحالة من الأنانية وبروز الأنا وما يستتبعه من التباهي والتفاخر والتكاثر ظاهر في هذه الفقرة من الحوار الوارد في القصة» ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾. ومكافحة هذه الحالة من الطغيان بتكريس الفقر إلى الله وتحجيم الأنا وتحديده والمنع من بروزه.

وفي التصوّر الذي يقدّمه إلينا القرآن عن «الأنا» وطريقة التعامل معه يعتبر إطلاق العنان للأنا من الظلم الذي يمارسه الإنسان على نفسه، حيث يقطع الإنسان نفسه عن الله. وهو من أقبح أنواع الظلم الذي يمارسه الإنسان على نفسه.

ولذلك فإن القرآن يقول عن صاحب الجنتين: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾.

ولهذا الظلم وجهان اثنان:

الوجه الأوّل: الإنشداد إلى متاع الحياة الدنيا وطول الأمل فيه، حتى كأنه لا يبيد ولا يفنى: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾. وهو أمر طبيعي، فإن الإنسان إذا شدّ كل حبال نفسه بالدنيا ودّ لو لم ينقطع عن الدنيا وتبقى له ولا تبيد، وهو بمعنى طول الأمل.

والوجه الثاني: قطع الرجاء والأمل عن الله في مقابل طول الأمل بالدنيا، حتى كأن الساعة لا تقوم، وإلى هذا الإحساس الباطني المكتوم تشير الآية الكريم: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾.

وهذان وجهان لحقيقة واحدة، لا يمكن التفكيك بينهما.

والفصل الأخير من مأساة «الأنا» في هذا الحوار، إن الإنسان عندما يسترسل في الطغيان، يتحوّل عنده بالتدريج الشعور بالفقر إلى الله إلى إحساس بالإستحقاق على الله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾، فهو يفترض أنه في الآخرة ـ لو قامت الساعة ـ لا يقلّ مالاً وولداً عنه في هذه الدنيا، بل يجد فيها خيراً مما يملك في الدنيا منقلباً.

وليس يطلب ذلك من الله تعالى ولا يرجوه، ولا يسعى لتحصله سعياً في الدنيا، وإنما يفترض أنه يستحق ذلك على الله استحقاقاً.

ولا يخفى في نفس الوقت شكّه في أن تقوم الساعة: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ وينتهي هذا الطرف من الحوار هنا، ويبدأ ذكر الطرف الآخر من الحوار، وهو نموذج آخر من الشخصية

يختلف عن النموذج الأوّل في مكوناته ومنطلقاته. فلنتأمل في هذا الشطر الآخر من الحوار: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾؟

وهذه أبرز نطقة تلفت النظر في هذا الحوار: فلم يسبق من صاحب الجنتين إنكار لله تعالى بالصراحة، عدا ما سبق منه من التشكيك في أن تقوم الساعة. فما مصدر هذه النسبة التي ينسبها إليه صاحبه المؤمن الذي يحاوره. إن هذا

الكفر هو كفر بالله تعالى في مقام التعامل، يستبطنه الموقف العملي لصاحب الجنتين وطريقة تعامله مع نِعم الله تعالى.

إلا أن صاحب الجنتين يحاول أن يتكتم عليه ويخفيه ويحاول صاحبه المؤمن الذي يحاوره أن يجابهه به علانية، ويقرعه به ليردعه عنه.

وهذه هي الحقيقة التي أكدناها من قبل، فإن في كل بروز للأنا إختفاء للتوحيد في علاقة الإنسان بالله، والمرحلة الأولى منه الشرك والمرحلة الأخيرة الكفر.

ولنتأمّل في البقية من هذا الحوار:

﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ، وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ، فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ وهذا شطر آخر من الخلاف في طريقة التعامل مع الأنا من هذين النموذجين من الشخصية، فإذا كان «الأنا» أبرز شيء في كلام المحاور الأوّل، فإن «الأنا» هنا يختفي، ويبرز التوحيد بشكل بارز: ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي ﴾.

والفرق بين «الأنا» في كلام هذا وذاك هو مفتاح فهم كلّ من هاتين الشخصيتين وأساس الفرق بينهما: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾، ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي ﴾ وإذا كان المحاور الأوّل ربط النعمة مباشرة بنفسه، وكأنه وليّها ومالكها الحقيقي نجد أن المحاور المؤمن يربط هذه النعمة بمشيئة الله وقوّته: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾.

وإذا كان أمل المحاور الأوّل وثقته فيما يفني ويبيد من متاع الدنيا، فإن ثقة المحاور المؤمن فيما يبقى ولا يزول من الأمل برحمة الله: ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾.

علاقة «الأنا» بالآخرين

هذا في علاقة «الأنا» بالله تعالى، وأما في علاقة «الأنا» بالآخرين فإن

أكثر مآسي الإنسان وشقائه في علاقته بالآخرين يعود إلى «الأنا» و«الهوى»، كما أن أكثر شقاء الإنسان في علاقته بالله تبارك وتعالى هو كذلك في «الأنا» و«الهوى».

نحن نتحدّث هنا عن بؤس الإنسان في علاقته بالآخرين بقدر ما يتعلق الأمر بـ«الأنا»، كما تحدّثنا قبل هذا عن بؤسه في علاقته بالله تعالى في نفس الحقل.

إن حالة التكريس والإستعلاء للأنا تؤدّي في شبكة العلاقات الإجتماعية إلى حالتي الإستكبار والإستضعاف في علاقة الناس بعضهم ببعض في المجتمع. وضمن هذه العلاقة يحاول كلّ فرد في المجتمع أن يفرض نفوذه وهيمنته على الآخرين. ولكي يحقق هذه الغاية يستضعف الآخرين ويستخفّهم ليتمكّن من فرض نفوذه عليهم.

يقول تعالى عن علاقة فرعون بقومه: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾.

وبهذه الطريقة يتكوّن في المجتمع نظام من العلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية يقوم على أساس الاستكبار والاستضعاف، وهو أساس لكثير من الفساد على وجه الأرض.

كما أن حالة التكريس والاستئثار والمحورية للأنا تؤدّي إلى طائفة من المتاعب الاجتماعية والأخلاقية في حياة الإنسان في علاقاته بالآخرين، كالعدوان والحسد «تمني إزالة النعمة عن الآخرين»، والكراهية والبغضاء والاستئثار وسوء الظن والارتياب وفقدان الثقة فيما بين الناس، وحبّ البروز والاشتهار واستراق الأضواء عن الآخرين.

وهذه المفاسد وغيرها في العلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية هي حصيلة حالة الاستعلاء والتكريس والاستئثار للأنا.

علاقة الإنسان بنفسه

وأما علاقة الإنسان بنفسه فهي علاقة معقدة شديدة التعقيد، أشرنا إليها سابقاً إشارة سريعة.

وهذه العلاقة قد تقوم على أساس من إنبهار الإنسان بنفسه فيما آتاه الله سبحانه وتعالى من ملكات ومواهب وفيما يفعله ويقوله وهو جانب من العجب. وقد تقوم على أساس من الترفع عن النقد ورفض الاعتراف بتقصير أو خطأ في قول أو فعل و«تزكية النفس»وتبرأتها وهو الجانب الآخر من العجب.

علاقة الإنسان بالدنيا

وفي دائرة علاقة الإنسان بالدنيا ومغرياتها تؤدي هذه الحالة إلى الحرص والجشع و«جوعة الدنيا» والنهم الذي لا يشبعه شيء. وقد روي عن رسول الله ’: «لو لابن آدم واديان من ذهب لا بتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب..».

النهاية

والنتيجة والعاقبة التي ينتهي إليها جميع أولئك الذين يتخذون «الأنا» إلهاً ومحوراً في حياتهم من دون الله تعالى هي الانغلاق الكامل على آيات الله تعالى والطبع والرين على القلوب.

يقول تعالى: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾. ويقول أيضاً: ﴿ءَامَنُوٓاْ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾

تعديل الأنا

وبعد هذه الجولة في أعراض «الأنا» عندما يتخذ الإنسان «الأنا» محوراً وإلهاً في حياته من دون الله، نبحث عن الوسائل التي يقدّمها الإسلام في منهاجه التربوي لتعديل «الأنا» في حياة الإنسان.

فإن الإسلام لا يؤمن بمبدأ إلغاء «الأنا» كما لا يؤمن بمشروع الغاء «الهوى» والمنهج الذي يقره الإسلام في «الأنا» و«الهوى» هو التعديل وليس الإلغاء.

ولابد أن نبحث عن الوسائل التي يقدمّها الإسلام في منهجه التربوي لتعديل «الأنا»، أما تعديل الهوى فهو أمر خارج عن اختصاص هذه المقالة نُحيلة إلى مواضعه من الدراسات الأخلاقية والنفسية في الإسلام.

وتعديل «الأنا» هو علاج العجب بشكل دقيق، فإن مشكلة «العجب» تكمن في «الأنا» وبالضرورة يكون علاج هذه المشكلة في تعديل الأنا وتلطيفه.

ويتم تعديل الأنا بصورة كاملة في التربية الإسلامية ضمن تحديد وتنظيم علاقة الأنا بالله تعالى وعلاقته بالآخرين وعلاقته بنفسه.

وقد أولى الإسلام هذه الدوائر الثلاثة من العلاقات في حياة الإنسان اهتماماً كبيراً. وإذا قدر للإنسان أن ينظم علاقاته مع الله ومع الآخرين ومع نفسه ومع الدنيا بالطريقة التي يشرحها ويوضحها الإسلام، يسلم من كل الأعراض التي تصيب الإنسان من ناحية «الأنا» والعجب من أهمّ هذه الأمراض.

علاقة «الأنا» بالله تعالى

الأنماط الثلاثة للعلاقة بالله

علاقة «الأنا» بالله تعالى من الأمور الدقيقة التي تعطيها النصوص الإسلامية اهتماماً كبيراً.

فهناك أنماط من العلاقة بالله تعالى تقوم على أساس الطغيان على الله وتجاوز حدود العبودية، والقرآن يسمّي هذه العلاقة بالطغيان، يقول تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ (العلق: ٦).

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا، فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات: ٣٧-٣٩).

﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (يونس: ١١).

وللطغيان في حياة الإنسان صورة ومصاديق كثيرة منها:

الخصومة مع الله تعالى:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾(يس: ٧٧).

ومنه الصد عن سبيل الله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ (الأنفال: ٣٦).

ومنه محاربة الله.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا

وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ (التوبة: ١٠٧).

ومنه محادّة الله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ (المجادلة٢٠).

ومنه مشاقة الله:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (الأنفال: ١٣).

وهناك نوع آخر من العلاقة بالله قائمة على أساس الإدلال والمنّ على الله ورسوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (الحجرات: ١٧).

والنوع الثالث من العلاقة بالله تعالى قائمة على أساس العبودية لله والحب والذكر والخوف والرجاء والطاعة والخشوع والخضوع والإخبات لله. وموقع الأنا في هذه العلاقة من الله تعالى هو موقع التذلل والعبودية والخشوع وليس موقع الطغيان والخلاف ولا موقع الإدلال والمنّ.

وهذه هي العلاقة الصحيحة للأنا مع الله تعالى، وهذه العلاقة تحمي الإنسان من العجب وتمنع من حالة تورم الأنا، وتحدّد الموضع الصحيح للأنا من الله تعالى والحجم الحقيقي لها.

عناصر العلاقة بالله

والنصوص الإسلامية تعطي للعلاقة بالله تعالى اهتماماً كبيراً، وتعتبر هذه العلاقة هي الأساس والمحور للشخصية الإسلامية، وتحدّد الأبعاد الأخرى للشخصية الإسلامية على ضوء هذه العلاقة. والعناصر التي تتألّف منها علاقة العبد بالله تعالى مجموعة متناسقة من النقاط يتألّف منها طيف منسجم ومتناسب ومتعادل في العلاقة بالله سبحانه وتعالى.

ودراسة هذا الطيف وتحليله يحتاج إلى فرصة ودراسة أوسع من هذا المقال.

إلا أننا سوف نحاول أن نشير إلى مجموعة من النقاط التي تتألّف منها العلاقة بالله من خلال النصوص

الإسلامية في القرآن الكريم والحديث.

وإليكم عناصر العلاقة بالله تعالى:

١ـ الخوف والخشية من الله

يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات: ٤٠ـ٤١).

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ (البقرة: ١٥).

٢ـ التضرع

﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ (الأنعام: ٦٣).

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ (الأعراف: ٢٠٥).

٣ـ الإنابة

﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ (الزمر: ٥٤).

﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ...﴾ (ص: ٢٤).

٤ـ الإخبات: التواضع والخشوع

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ...﴾ (هود: ٢٣).

﴿...وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ (الحج: ٣٤).

٥ـ الحبّ

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ و... أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة: ٢٤).

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ...﴾ (البقرة: ١٦٥).

٦ـ التقوى

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ (الأحزاب: ١).

٧ـ الإستغفار

﴿...وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٩٩).

٨ـ التوبة

﴿... فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ...﴾ (البقرة: ٥٤).

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ...﴾ (هود: ٥٢).

٩ـ الإعتذار والندم

«اللهم عظم بلائي، وأفرط بي سوء حالي، وقصرت بي أعمالي، وقعدت بي أغلالي، وحبسني عن نفعي بُعدُ أملي، وخدعتني الدنيا بغرورها، ونفسي بجنايتها،

ومطالي يا سيّدي» (دعاء كُميل).

١٠ـ١١ـ١٢ـ الإنكسار، الإستقالة، الإقرار والإذعان والإعتراف

«أتيتك يا إلهي بعد تقصيري وإسرافي على نفسي معتذراً نادماً، منكسراً مستقيلاً، مستغفراً منيباً، مقرّاً مذعناً معترفاً، لا أجد مفراً مما كان منّي، ولا مفزعاً أتوجه إليه في أمري غير قبولك عذري... اللهم فاقبل عذري وارحم شدة ضرّي...»(دعاء كُميل).

«أنت الساتر عورتي والمؤمن روعتي والمُقيل عثرتي...»(دعاء الأسحار)

١٣ـ الذلّ والمسكنة والإستكانة بين يدي الله

«هذا مقام العائذ بك من النار، هذا مقام المستجير بك من النار، هذا مقام المستغيث بك من النار، هذا مقام الهارب إليك من النار، هذا مقام من يبوء لك بخطيئته، ويعترف بذنبه...»(دعاء الأسحار).

١٥ـ١٦ـ البكاء، الإستغاثة والتوسل إلى الله

«فبعزتك يا سيدي أُقسم صادقاً لئن تركتني ناطقاً لأضجنَ إليك بين أهلها ضجيج الآملين، ولأصرُخنّ إليك صراخ المستصرخين، ولأبكينّ عليك بكاء الفاقدين، ولأنادينّك أين كنت يا ولي المؤمنين! يا غاية آمال العارفين! يا غياث المستغيثين!... أفتراك سبحانك... تسمع صوت عبد مسلم سجن فيها بمخالفته، وذاق طعم عذابها بمعصيته، وهو يضج إليك ضجيج مؤمل لرحمتك، وينادیك بلسان أهل توحيدك، ويتوسل إليك بربوبيتك...»(دعاء كميل).

١٧ـ الفقر إلى الله

«يا إلهي وسيّدي ومولاي ومالك رقي، يا من بيده ناصيتي، يا عليماً بضري ومسكنتي، يا خبيراً بفقري وفاقتي...»، «أنا الصغير الذي ربيته، وأنا الجاهل الذي علمته، وأنا الضال الذي هديته، وأنا الوضيع الذي رفعته، وأنا الخائف الذي آمنته، فإليك يا ربّ نصبت وجهي وإليك يا ربّ مددتُ يدي».

١٨ـ الإستجارة بالله واللواذ بالله

«أجرنا من النار يا مجير»(دعاء

المجير).

«هذا مقام المستجير بك من النار».

«وأنت جار من لاذَ بك»(دعاء يستشير).

«وقد خضعتُ بالإنابة إليك، ودعوت بالإستكانة لديك، فإن طردتني من بابك فبمن الوذ، وإن رددتني عن جنابك فبمن أعوذ؟»(مناجات التائبين).

١٩ ـ الفرار إلى الله

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (الذاريات: ٥٠).

٢٠ ـ الإضرار إلى الله

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ...﴾ (النمل: ٦٢).

٢١ ـ الحياء من الله

«أنا يا ربّ الذي لم أستحيك في الخلأ، ولم أراقبك في الملأ، أنا صاحب الدواهي العظمى، أنا الذي على سيّده اجترى، أنا الذي عصيت جبار السماء...، أنا الذي أمهلتني فما ارعويت، وسترت عليّ فما استحييت» (أبو حمزة).

٢٢ ـ التملق إلى الله

«إلهي أتراك بعد الإيمان بك تعذّبني! أم بعد حبّي إياك تُبعدني! أم مع رجائي لرحمتك وصفحك تحرمني! أم مع استجارتي بعفوك تسلمني! حاشا لوجهك الكريم أن تخيّبني... إلهي هل تسود وجوهاً خرت لعظمتك ساجدة، أو تخرس ألسُناً نطقت بالثناء على مجدك وجلالك، أو تطبع على قلوب انطوت على محبّتك، أو تصم أسماعاً تلذذت بسماع ذكرك، أو تغل أكفاً رفعتها الآمال إليك رجاء رأفتك، إلهي لا تغلق علي موحديك أبواب رحمتك، ولا تحجب مشتاقيك عن النظر إلى جميل رؤيتك» (مناجاة الخائفين).

«يا الله! لا تحرق وجهي بالنار بعد سجودي وتعفيري بغير من عليك، بل لك الحمد والمن والفضل»(دعاء الأسحار).

٢٣ ـ الالتماس والترجي

«إلهي من الذي نزل بك ملتمساً قراك فما قريته، ومن الذي أناخ ببابك مرتجياً نداك فما أوليته» (مناجات الراجين).

٢٤ ـ تحسيس النفس بالتقصير

«وهذا مقام من اعترف بسبوغ النعماء، وقابلها بالتقصير، وشهد على نفسه بالإهمال والتضييع. إلهي تصاغر عند تعاظم آلائك شكري، وتضاءل في جنب إكرامك إياك ثنائي ونشري» (مناجاة الشاكرين).

«يا من يقبل اليسير، ويعفو عن الكثير، اقبل مني اليسير، واعف عني الكثير» (دعاء الأسحار).

«أفبلساني هذا الكال أشكرك، أم بغاية جهدي في عملي أرضيك، وما قدر لساني يا ربّ في جنب شكر، وما قدر عملي في جنب نعمك وإحسانك»(أبو حمزة).

هذه طائفة من العناصر التي تؤلف العلاقة بالله تعالى استخرجناها من نصوص القرآن والحديث والدعاء، وهذه بمجموعها تؤلف طيفاً زاهياً منسجماً ومتوازناً للعلاقة بالله تعالى.

٢٥ ـ الذكر

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ (الرعد: ٢٨).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ (المنافقون: ٩).

٢٦ ـ الأنس بالله

«وهب لي الأنس بك وبأوليائك وبأهل طاعتك. أجعل سكون قلبي وأنس نفسي واستغنائي وكفايتي بك وبخيار خلقك» (الدعاء٢١ من الصحيفة الكاملة للإمام زين العابدين).

٢٧ ـ الشوق إلى الله

«وامنن عليّ بشوقي إليك، والعمل لك ما تحب» (الدعاء: ٢١ من الصحيفة الكاملة).